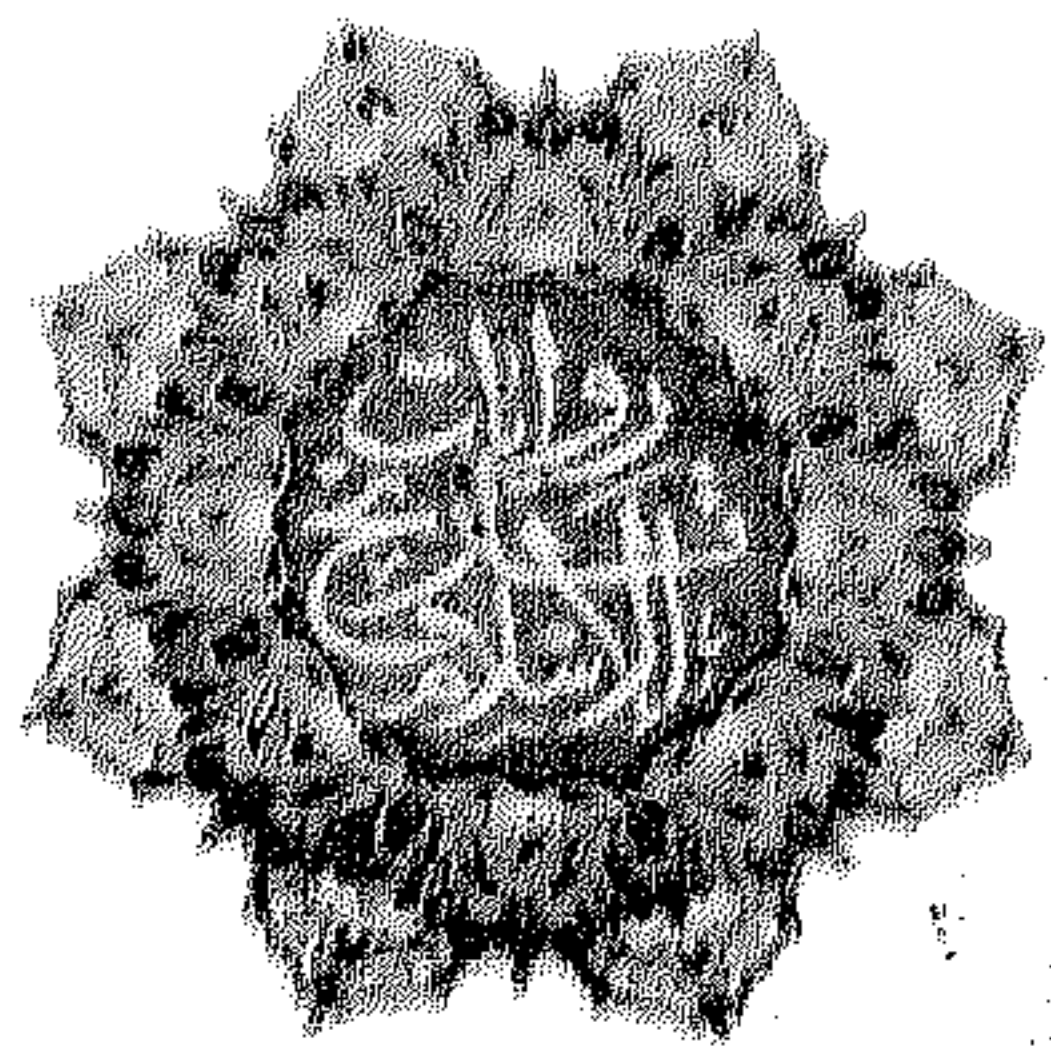
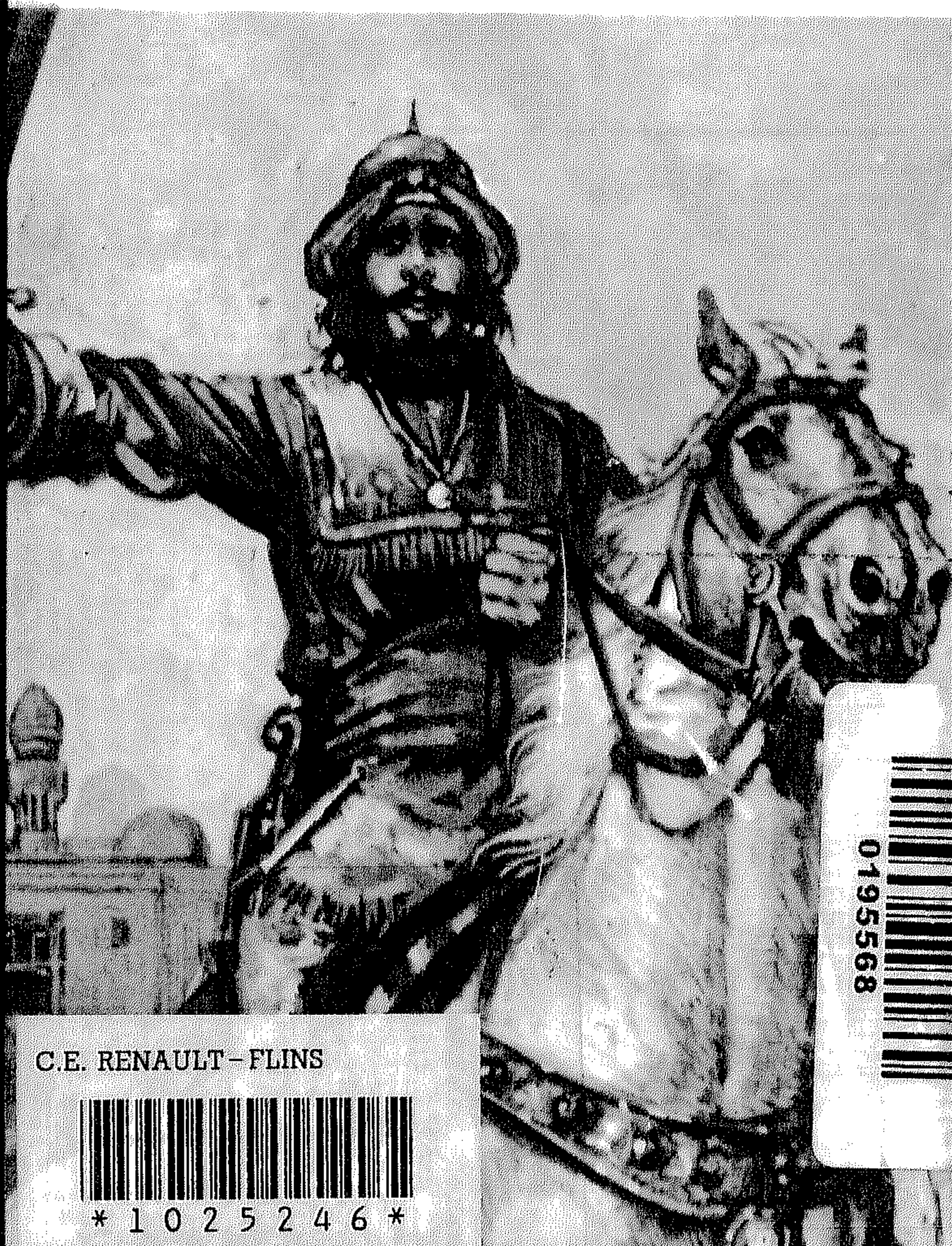


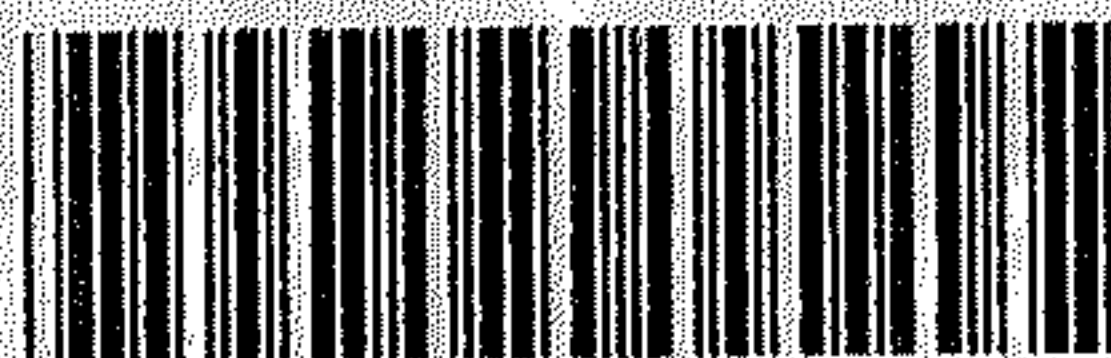
الأمين والمؤمن



جرجي زيدان



C.E. RENAULT-FLINS



* 1 0 2 5 2 4 6 *

0195568



Bibliotheca Alexandrina



**GIFTS OF 1996
BIBLIOTHEQUE
INTERUNIVERSITAIRE DE
LANGES ORIENTALS
PARIS**

الأمين والمأمون

تشتمل على ما وقع بين الأمين والمأمون من الخلاف
بعد وفاة والدهما الرشيد ، وقيام الفرنج
لنصرة المأمون حتى فتحوا بغداد وقتلوا الأمين

المؤلف : أبو بكر بن محمد بن الحسن البغدادي

رقم المجلد : 302

رقم التسجيل : 7088/1

جرجي زيدان

COMITÉ D'ÉTABLISSEMENT

R.N.U.R. FLINS

Bibliothèque

78410 AUBERGENVILLE

N° Inventaire .Z.8.6.6.1.....

Cote Z.A.Y...E.....3.2.84

المكتبة الادبية - بيروت

أبطال الرواية

الامين *	: ابن هرون الرشيد
المأمون *	: ابن هرون الرشيد
الفصل بن الربيع *	: وزير الامين
الفصل بن سهل *	: وزير المأمون
زبيدة *	: زوجة الرشيد
زينب *	: بنت المأمون
دنابير *	: مربية زينب
عبادة بنت محمد *	: أم جعفر البرمكي
ميمونة *	: بنت جعفر البرمكي
بهراد *	: حفيد أبي مسلم الخراساني
ظاهر بن الحسين *	: قائد المأمون

مراجع هذه الرواية

هذه هي المراجع التي اعتمد عليها المؤلف في تأليف الرواية ووقائعها التاريخية

تاريخ التمدن الاسلامي لبرجي زيدان *	معجم ياقوت *
المقد الفريد *	كتاب البلدان لليعقوبي *
تاريخ ابن الاثير *	الأغاني لأبي الفرج *
أبو الفداء *	تاريخ المسعودي *
سير الملوك *	

في خان سماعيل

كان المنصور قد بنى مدينة بغداد باسمه سنة ١٢٥ هـ وجعلها معقلا له ولجنده ورجال دولته ، وشيد في وسطها قصرا له سماه قصر الذهب وأقام بجانبه مسجدا عرف باسمه ، كما أنشأ الأبنية فيما بقى من المدينة لأعمال حكومته ، ولرجال خاصته . وأحاط المدينة بسور منلت الجدران ، فتح فيه أربعة أبواب سماها بأسماء الجهات التي تؤدي إليها . فسمى الشرقي الشمالي باب خراسان ، والشمالي الغربي باب الشام ، والشرقي الجنوبي باب البصرة ، والغربي الجنوبي باب الكوفة . وأقطع رجاله ما يحيط بالمدينة من الأرباض فابتنوا فيها القصور وعرفت تلك الأرباض بأسمائهم . ولم يمض زمن حتى تكونت حول المدينة أحياء عرفت بأسماء خاصة بها ، أشهرها الحربية في الشمال ، والكرخ في الجنوب . وقامت الأبنية شرق دجلة ونشأت هناك أحياء الشماسية والرصافة والمحرم وغيرها . وبنى خارج باب خراسان قصرا كبيرا عزف بقصر الخلد ، وجعل بينه وبين ذلك الباب ميدانا كبيرا يمتد منه طريق يتجه نحو الشمال الشرقي إلى الجسر الأوسط القائم على دجلة ثم يعرج شمالا ثم شرقا حتى يمر بين الرصافة والمحرم ، ويعرف بطريق خراسان . ويتخلل تلك الأحياء كثير من القصور والحدائق والأنهار ، (أو الترع) المتفرعة من دجلة إلى كل الجهات

وكان من بينها نهر . يجري من دجلة شرقا حتى يخترق الرصافة والشماسية ، عرف بنهر جعفر . وعلى جانبي هذا النهر أو التربة وراء الرصافة بساتين فيها الأغراس والأشجار وبعض الأبنية ، وهناك بستان واقع على طريق خراسان من جهة وعلى ذلك النهر من جهة أخرى . اتخذ بعض الحمارين من أنباط السواد خانا ينزل به القادمون إلى بغداد من الغرباء . وجعل فيه مما يلي الطريق بيتا يبيع فيه الخمر والأنبذة ويصنع فيه الأطعمة لمن شاء من الغرباء أو البغداديين

وكان لبعده عن العمارة ووقوعه على قارعة الطريق يقصده الراغبون في ترويع النفس أو تناول الخمر من طبقات العسامة لرخص الأثمان وقرب التناول ، ومن بعض الخاصة الراغبين في شرب الخمر خفية خشية الرقيب أو فرارا من العار .

أما صاحب هذه الحانة فكان في حدود الستين ، عركه الدهر ، ولانت

نفسه حتى كادت تسيل رقة . وقد عاصر ثلاثة من خلفاء بني العباس هم : المهدي ، والهادي ، والرشيد . وشهد كثيرا من الأحوال آخرها نكبة البرامكة منذ ستة أعوام ، ظل ثلاثة منها يشاهد جثة جعفر منصوبة على جسر بغداد والحمارون يعتادون دماء الخلق بما يعرض لهم من مخالطة الناس في أحوال سكرهم ولهوهم ، ولا يضطربهم إلى مجاراتهم في طباعهم . فيهنون عليهم احتمال الضيم والصبر على الأذى مرضاة « لزبائنهم » . فلا عجب أن كان ذلك الحمار من ألين الناس عريكة وأطولهم بالاً وأكثرهم اطلاعا على نقائص البشر وأكثرهم لأسرارهم . وكانت حرفته هذه تكاد تكون خاصة بأهل الذمة من اليهود أو الانباط سكان البلاد الأصليين ، وذلك لتحريم شرب الخمر وبيعها على المسلمين

وكانت حانة ذلك النبطي غرفة من ذلك البيت ، في أرضها حصير عليه وسائد من الخيش محشوة بالقش ، وفي جدرانها كوى فيها دنان الأنبذة والخمور مما صنع من العنب أو التمر أو التفاح أو غيرها من الثمار ، وفوق الكوى رفوف عليها زجاجات أو أباريق وأقداح من الزجاج أو الخشب يكيل بها الخمر أو النبيذ ، ومن بينها ما يسع رطلا ، أو نصفه ، أو ربعه . وعلق على صدر الغرفة بربط ، وعود ، ودف . ترغيبا للمترددین عليه في أسباب السرور . ويغلب أن يكون الحمار رخم الصوت يحسن الضرب على بعض هذه الآلات أو كلها . وكان بعض الحمارين في بغداد يجعلون في حانتهم قينة رخيصة الصوت حسنة الصنعة جميلة الطلعة يشرب الطلاب على صوتها

ففي يوم من أيام سنة ١٩٣ هـ . مضى النهار على ذلك الحمار دون أن يقصد حانته أحد ، لبعدها عن مركز المدينة . وكان أكثر ارتزاقه من المارة الغرباء ، وهو يؤثرهم على أهل المدينة لأنهم يجهلون الأسعار ، ولا يميلون إلى المساومة كأهل البلد . فلا يبالي أحدهم أن يؤدي ثمن الرطل من النبيذ خمسة دراهم على حين أن ثمنه لا يزيد على درهمين . فلما انقضى النهار ولم يأت أحد أوقد في بعض جوانب البستان نارا ليشوى سمكة أعدها لعشائه . وفيما هو ينفخ في الوقود والدخان يتصاعد على وجهه حتى يتخلل لحيته ويغشى عمامته ، وقد استوفز وشمر قفطانه وشكه من أطرافه بزئارة . سمع صوتا من قبل باب الحانة يناديه : « يا معلم سمعان » . فخفق قلبه سرورا وأسرع ليرى مناديه . فوجده من العيارين وهم كثيرون يومئذ في بغداد ، ومعظمهم من أهل البطالة الذين يعيشون من الدعارة والنهب . وكان معه رفيق له . فلما رأهما استعاذ بالله ، ولكنه كان قد تعود الكظم في مثل هذا الموقف ، وعلم ألا مفر من استقبالهما حتى لا يصيبه أذى فتجلد وتقدم باسم مرحبا

وكان العيار لابسا خوذة من الخوص ، وعلى صدره دراعة من الجلد المدبوغ عليها نقوش ملونة . وهو عاري الذراعين ، قد علق بكتفه اليمين مخلاة فيها حصي ، وعلى حقويه سراويل من الجيش الثخين تكسوه إلى الركبتين ، والمقلاع

معلق بكوعه ، وهو سلاح العيارين . وكان مكشوف الساقين حافى القدمين .
يمسك باحدى يديه عصا غليظة ، وبالأخرى رغيفا أكل بعضه وفى فمه لقمة
يمضغها وهو يقول : « اسقنا يا معلم »

فرحب به الحمار وعمد الى رطل صب فيه نبذا وأعطاه اياه ، ثم نظر الى
رفيقه فاذا هو بملابس الجند وهى الدراعة على ظهرها طراز الدولة فسيكفيهم
الله وهو السميع العليم . وعلى رأسه قلنسوة مستطيلة مدعمة بالعيدان .
وقد علق السيف بمنطقته فوق قباء أسود . فتوسم الحمار منه خيرا لعلمه
أن الجنود يؤدون ثمن ما يأخذونه اذا أخذوا رواتبهم . وطلب منه الجندى أن
يعطيه رطلا . فبادر الى اجابة طلبه ورحب به ، فشرب الجندى واقفا ، ثم
تجشأ ومشى متبخترا . أما العيار فأخذ القدح وأدناه من فيه وهو يقول :
« بورك فيك يا معلم سمعان والله لأجعلنك عيارا عندي متى صرت عريفا أو
مقدما »

فقهقه الجندى وتقدم الى سمعان فوضع يده على كتفه وقال وفى لهجته
عجمة لأنه فرغانى الأصل من أبناء الجنود الذين استقدمهم المنصور فى
أيامه : « وأنا أعاهدك اذا حدث الانقلاب القريب وأخذنا نخصصاتنا على أن
أعطيك ثمن هذه الأبطال مضاعفا . وأظننى مدينا لك بشئ من قبل . ولكن
ما العمل ؟ لا بد من الصبر ! »

فقطع العيار كلامه وقال : « وأنتم أيضا تشكون القلة والفقر ؟ » أستم
من أصحاب الرواتب ؟ »

قال : « صدقت يا صاحبنى ، اننا نأخذ رواتبنا ولكنها لا تفى بنفقاتنا
ومن نعول . وهل يقوم بالجندى غير الغنائم فى الحرب أو ؟ » . وتوقف
وأخذ يهمس حذر سامع . فسبقه العيار وقال : « أو عند وقوع تغيير أو
انقلاب فى قصر الخلافة ، اذ تنالون أجوركم أضعافا مضاعفة ، ناهيك بحق
البيعة . . طب نفسا فان ذلك قريب »

فوضع الجندى يده على فم صاحبه يريد اسكاته حذرا من الفضيحة .
وكان سمعان يسمع كلامهما ولا يهमे مما يسمعه الا ما يتوسم من ورائه
استيفاء دينه . فلما رآهما يحاذران الكلام وهما بالباب تقدم اليهما وقال :
« تفضلا وادخلا » . وأشار الى الحصير كأنه يدعوهما الى الجلوس ، فدخلا
ومد العيار يده الى البربط المعلق على الحائط فتناوله ودفعه الى الحمار ، ثم
جلس وقال : « علمت أنك تحسن الغناء والضرب على البربط لقراءة بينك
وبين برصوما الزمار . فاسمعنا »

فتناول سمعان البربط وهم باصلاحه وهو يقول : « يا ليتنى كنت من
اقارب برصوما فانه من المقربين الى مولانا أمير المؤمنين يستمتع برفده
وجوائزه »

فقال الجندى : « لو كنت تحسن النفخ فى المزمار لكنت أصبت مثل حظه ،

أو حفظ ابراهيم الموصلى المغنى ، أو . . ولكن أشكر الله على حالك فان التقرب من القصر لا يخلو من الخطر . فمهما تصادف من نعيم فلن يكون خيرا من نعيم البرامكة ، وأنت تعلم مصيرهم ! »

فقطع العيار كلامه قائلا : « أراك يا صاحبي من الفلاسفة ورجال الزهد . أما أنا فادخلنى قصر الخلد واجعلنى مغنى الخليفة أو زامره أو شاعره ، ثم ليكن بعد ذلك ما يكون . أو اجعلنى جنديا مثلك على الأقل . تأخذ أجرك وأنت قاعد وإذا ذهبت فى حرب عدت بالغنائم والأسلاب والسبايا من النساء الجميلات ! »

فابتدرة قائلا وهو يهز رأسه : « اذا عدت حيا ! »

فقال له العيار : « ولماذا لم تذهب فى الحملة التى سار فيها أمير المؤمنين الى سمرقند منذ بضعة أشهر لمحاربة رافع بن الليث . ألا تتوقع منها فوزا ؟ »

قال : « علم المستقبل عند الله . . وليس لنا رأى فى تجنيدنا ، وانما الأمر لقوادنا . ولقد خرج الرشيد فى هذه الحملة يشكو مرضا وأتاب عنه ابنه الأمين فى بغداد . والأمين كريم الخلق جواد لا يخشى بأسه مثل أبيه . وهذا من حسن حظكم أيضا لأننى أرى كبيركم الحسن الهرش مقربا من البلاط كأنه صار من رجال الدولة »

فقال العيار : « يظهر ذلك . . ولكن حظنا لا يتم الا . . . وتلفت يمينا وشمالا ، ثم واصل كلامه وقد خفض صوته فقال : « الامتى صار الأمين خليفة ، فقد تحسدتنى عندئذ على العيارة ، كما أحسدتك الآن على الجندية . ثم حول وجهه فجأة نحو البستان وقال : « انى أشم سمكا يشوى »

وكان الحمار أثناء هذا الحديث قد انهمك فى اصلاح البربط ، والليل قد أسدل نقابه فظهرت النار الموقدة والدخان يتصاعد عنها ، فلما سمع العيار يذكر رائحة السمك المشوى توقف ووضع البربط من يده وصاح : « نسيت السمكة على النار » . ثم تقدم نحو سراج من الخنزف موضحوع على مسرجة مسمرة بالحائط ، فأصلح فتيلتها بسبابتها ، وأخذ فى انارتها فأتى بالقداحة والصوانة والعطبة أو الصوفانة ، فوضع الصوفانة على طرف الصوانة ، وضرب عليها بالقداحة فخرجت شرارة أشعلت الصوفانة ، فأتى بعود رأسه مغموس فى الكبريت وأدناه من رأس الصوفانة فاشتعل الكبريت وأشعل العود ، فقربه من الفتيلة فأوقدها فأضاء السراج . واغتتم العيار فرصة اشتغال الحمار بعمله وأسرع الى السمكة فتناولها من النار بيده لا يبالى حرارتها وهروا الى الجندي فوضعها على رغيف بين يديه وصاح بالحمار : « الى بقدهين من النبيذ القطربلى »

فقال : « ليس عندى شيء من نبيذ قطربل ، ولكننى أسقيكما نبيذا

مصنوعا من الذوشاب البستانى مع العسل » . وجاءهما بخمر قوية مظهرها الترحيب بهما ، بينما هو يستعيز منهما وهما يضحكان لا يباليان فلا يسعه الا أن يشاركهما الضحك

وفيما هم كذلك سمعوا رجلا ينادى فى الطريق : « السمك الطرى أربعة أرطال عند بيطار حيان » . وهى مناداتهم على السمك فى ذلك العهد . فوثب العيار يقول : « لقد سنحت لنا الفرصة لنكافئك يا معلم سمعان » ثم تناول حصاة من المخلاة وضعها فى المقلاع ، وخرج من باب الحمار وقال : « أسرع والتقط السمك من الأرض » . فعلم سمعان أن العيار سيرمى ذلك البائع المسكين بالمقلاع ، فأخذته الشفقة به ، وأمسك العيار بيده فأوقفه عن الرمي . ثم تفرس فى البائع وهو لا يكاد يراه فى العتمة فوجده فقيرا عارى الساقين والذراعين لا يستتره غير ثوب خلق وعلى رأسه فوق العمامة طبق من القش ظهر فوق السمك . فجذب العيار يده من يد الحمار وقال : « دعنى أعوضك عن سمكتك سمكتين »

فقال : « أخاف أن تقتل الرجل . لا حاجة لى بالسمك » فضحك العيار وقال : « لا تخف انى أرمى السمك فقط ولا أمس الرجل ولا طبقه ، وسترى ! » . قال ذلك وأطلق الحجر من المقلاع فأصاب أعلى السمك فقط ، فسقط بعضه والرجل ماش لم يشعر . وللعيارين مهارة عظيمة فى رمى الحجارة . وكان بيد السماك رغيف فقال العيار للخمار : « وأرمى لك الرغيف اذا شئت » . فوقعت كلمته فى أذنى البائع فالتفت اليه وما كاد يراه حتى ذعر ورمى الرغيف الى الأرض وقال : « هذا هو الرغيف خذه ودعنى » . ثم ولى هاربا . فأشار العيار للخمار أن يأخذ السمكتين والرغيف ، ففعل وهو يعجب من مهارة رمية ودخل ليشوى السمكتين وهو يدعو الله من قلبه عسى أن ينقذه من هذه الورطة

وكان الله استجاب دعاءه ، فما عثم أن سمع وقع حوافر دابة عند باب بستانه ، فالتفت نحو الباب وعيناه تدمعان ويكاد الدخان يحجب بصره ، فرأى رجلا طويل القامة مع انحناء قليل تدل هيئته على السكينة والوقار وعلى رأسه عمامة سوداء كبيرة الحجم ، وقد ارتدى جبة طويلة تحتها ثوب عسلى اللون حوله زناد مشدود ، وهو لباس أهل الذمة فى ذلك العصر ، وقد شك فى الزنار دواة من الفضة . وكان وجهه صبوحا مع رقة ونحافة حتى كاد جلده يلصق بالعظم مع بروز الوجنتين ، وعيناه سوداوان براقتان تدلان على الذكاء ، وأنفه كبير منحن قليلا ، وله لحية كثيفة مسترسلة قد دب فيها الشيب تتصل من الجانبين بسالفين كثرين

ودخل الرجل يتوكأ على عكاز بيمينه وقد تأبط بالآخرى شيئا تحت الجبة . فلما رآه الحمار أدرك أنه من وجهاء الصابئة أو أحد علمائهم ، فاستغرب مجيئه اذ ليس للحانات نصيب من زيارة أمثال هذه الطبقة من الناس . وتنحى

العيار والجندي للرجل بينما تقدم الخمار وانحنى كأنه يسأله ما يريد ، فقال الرجل بصوت خشن هادئ : « أليس هذا خان المعلم سمعان ؟ »
فسر الخمار لاشتهار اسمه عند كرام القوم وقال : « نعم يا سيدي »
قال : « وهل في بستانك مكان للاستراحة ؟ »
قال : « نعم يا مولاي . . . تفضل »

ودخل الخمار مهرولا فتبعه الرجل وقال : « اذا سألك مقدم العيارين الليلة عن (الملفان) سعدون فقل له اني في انتظاره هنا » . والملفان رتبة علمية عند السريان تقابل رتبة دكتور أو علامة اليوم

وكان العيار والجندي واقفين ينظران الى الرجل ، فتذكر العيار أنه رآه من قبل ، ولما سمعه يذكر مقدم العيارين أجفل وتذكر أنه شاهده معه غير مرة . فرأى من الحكمة أن يخرج من ذلك المكان قبل مجيء مقدمه ، فتحول وخرج . وأما الجندي فأحب البقاء ليطلع على ما عساه أن يكون من أمر هذا الاجتماع الذي يندر في مثل هذا المكان خارج المدينة . فجلس على وسادة فوق الحصير بقرب الحائط وجعل سيفه في حجره والحائط بينه وبين البستان

أما الخمار فسره قدوم الملفان سعدون وما يتوقعه من قدوم الهرش مقدمه العيارين ، فقد يتعشيان أو يشربان فينال منهما ما يعوض به خسارته ذلك المساء . فمشى بين يدي الرجل ، وكان هذا لطول قامته يخاف أن تعلق عمامته ببعض الأغصان فمشى مطأطئ الرأس حتى وصل الى مصطبة مطلة على نهر جعفر تظللها شجرة كبيرة وفوق المصطبة حصير عليه وسادتان ، فأجلسه الخمار هناك . ثم تركه ريثما عاد بالسراج الذي كان في الحانة فوضعه على أرومة شجرة بجانب المصطبة ، وسأله هل يحتاج الى شيء من طعام أو شراب فقال : « لا . . . » . ثم اتكأ على إحدى الوسادتين ووضع العصا بجانبه وأخرج من كفه جرابا صغيرا وضعه بين يديه ، وتشاغل بتمشييط لحيته بأنامله ، منصتا الى صوت ساقيه تدور في بستان قريب . فتركه الخمار الى الحانة فأتى بسراج آخر أضاءه ، والتفت الى الجندي فوجده وحده هناك ، فسأله عن رفيقه فقال : « فرخوفا من قدوم (الهرش) أميره » . ثم سعل وقال : « عسى هذا الصابى ان يعوضك ما خسرتة علينا ! » . فقال : « ان شاء الله ! »

وساد الصمت لحظة ، ثم عاد الجندي الى الكلام فقال : « لأمر ما تواعد هذا الصابى على اللقاء هنا مع الهرش مقدم العيارين ؟ ! »

فقال سمعان : « هؤلاء الصابئة أهل سحر ونجامة لا تخفى عليهم خافية ولعل الهرش يستعين به على كشف المخبات »

فهز الجندي رأسه موافقا ، وأوجس خيفة من أن يطلع سعدون بسحره على دخيلة أمره ، فسكت واشتغل الخمار عنه بالتقاط ما وقع على أرض الحانة

من آثار الأكل والشرب استعدادا لمجيء الهرش

ثم سمعا جواد الصابىء يسهل سهيلا قويا، وكان مربوطا بجانب الطريق يحرسه غلام ، فأجابه سهيل مثله عن بعد ، فاستبشر الخمار بأن أناسا من أهل الوجاهة قادمين إليه . ثم اقتربت الأصوات واشتد وقع الخوافر، وظهر على الباب فارس وبين يديه غلام بلباس العيارين ما لبث أن صاح مناديا : « يا معلم سمعان »

فخف الخمار الى استقباله مرحبا، وأخذ يتأمل فى لباسه الفاخر وقلنسوته القصيرة كسراويله ، والى سيفه المدلى على ساقيه اللتين يحيط بهما لفائف من الجلد حتى الكعب فوق النعال ، ثم سأله الغلام : « هل جاءك الملقان سعدون ؟ »

فقال : « نعم هو فى البستان » . وأيقن أن الفارس هو الهرش مقدم العيارين ، فتقدم وأمسك بلجام الجواد والركاب حتى ترجل الهرش . وكان هذا قصير القامة ممتلئ الجسم قويه لا يزال سريع الحركة رغم كهولته ، اذا مشى تبختر تيتها وخيلاء ، غليظ الشفتين خفيف اللحية والشاربين أشيبهما، وعلى جبهته ندبة غائرة من أثر جرح أصابه فى قتال كاد يقضى عليه فى صباه وهو يفاخر أقرانه بهذا الأثر . وكان كبير العينين لا يبرح الاحمرار ظاهرا فيهما كأنه صبحا من رقاد عميق . فاذا علمت أن الرجل أمير العيارين سهل عليك الحكم على أخلاقه . والعيارون يرتزقون بالسرقة والاعتداء ونحوهما ، ولا رقيب عليهم ولا حسيب . وكثيرا ما كانت الحكومة تستعين بهم فاذا أخلصوا لها نفعوها لأنهم أقدر الناس على كشف أخبار الدعارة وتتبع اللصوص . وكانت الحكومة يومئذ تستعين حتى باللصوص أنفسهم، وعندها طائفة منهم تابوا عن اللصوصية فسمتهم التوابين، وأجرت عليهم الأرزاق لتستخدمهم فى كشف السرقات على أنهم ندر ان أخلصوا لها الخدمة ولم يكونوا مع اللصوص عليها . وانما تكثر أمثال هذه المفاسد فى عهد الحكومات الاستبدادية اذا ضعف صاحبها وطمع رجاله فى الأموال وفسدت النيات وأصبح الناس عيونا بعضهم على بعض

دخل الهرش مقدم العيارين بستان سمعان ، فى حين وقف غلامه بالجواد فى منعطف الطريق . وأسرع الخمار فى أثر الهرش حتى أوصله الى المصطبة، فوقف له الملقان ورحب به ، فجلس الى جانبه وأشار الى الخمار ألا حاجة بهما الى شئ . ففهم أنهما يريدان الخلوة ، فرجع الى الجندي وأشار عليه بأن ينصرف لئلا يكون وجوده باعثا على شك ، فانصرف أسفا

أما الهرش فنظر الى رفيقه وتبسم قائلا : « أظننى أبطأت عليك »

قال : « لم أنتظر الا قليلا »

قال : انه، فم، شوق الى رؤيتك ولولا ذلك ما استطعت المجيء اليك

ولاسيما اليوم لغياب أمير المؤمنين الرشيد عن بغداد «
فقال : « أليس ابنه الأمين مكانه ؟ »

قال : « بلى . ولكن هذا الغلام - وأنت أعلم به مني - لا خبرة له بسياسة الدولة . ولعله أدرى بسياسة الجوارى والغلمان والكأس والطاس . فتراني لا أخرج من منزلي الا قليلا ، وترى رسول صاحب الشرطة ذاهبا جائيا الى يحمل الى الأسئلة عما غمض عليهم كآني الملفان سعدون الصابىء الحراني أضرب المندل وأستطلع الغيب بالنجوم ! » قال ذلك وضحك . فأدرك سعدون غرضه وتجاهل وقال : « العفو أيها الأمير ، ان ما يستطيعه مقدم العيارين يعجز عنه مثلي . وأنا اذا عرفت شيئا فانما يدلني عليه الكتاب والحساب ، أما أنت فتعرفه بفراستك وشجاعتك »

فسر بهذا الاطراء وقال : « قد أكون أعرف كل شيء ، ولكنني أقر بعجزى عن معرفة مقرك لأننى ما بحثت عنك مرة واستطعت لقياك - اللهم الا اذا ضربت لى موعدا »

قال : « ليس هذا دليلا على عجزك بل هو من سوء حظى لأن اشتغالى بالكيمياء فضلا عن المندل والنجامة يقضى على بالانزواء معظم الايام ، ولذا ترانى تركت أهلى وهجرت حران لئلا يشغلونى عن عملى . وقد طال بعدى عنهم حتى أصبحوا لا يعرفوننى ولا يدرون مقرى ولو سألتهم لأنكروا أمرى »
ففرح الهرش بتطرق الرجل الى ذكر الكيمياء ليسأله عما فعله بقطعة من النحاس دفعها اليه منذ أيام ليحولها الى ذهب فقال له : « أظنك طبعا نسيت صديقك الهرش ولم . . . »

فقطع سعدون كلامه قائلا : « كلا أنى لا أنسى مولاي المقدم ، وأبشره بأن حظله فى أسمى الطوالع ، لأننى وفقت فى طبخ نحاسه توفيقا غريبا يندر مثله ! »

فطرب الهرش اذ توقع الفنى القريب ، وسأله : « هل صحت الطبخة ؟ » فتبسم سعدون ومد يده الى جرابه ، فحل عقده وأخرج منه سبيكة من الذهب الابريز وقال : « نعم يا سيدى وهذه هى القطعة التى جربتها ومتى نضج الباقي دفعته اليك » ثم قال له همسا وهو يناوله السبيكة : « وأظننى لا أحتاج الى أن أوصيك بتكتم الأمر عن سائر الناس فانى لا أحب أن . . . وأنت تعلم السبب »

فأخذ الهرش السبيكة وأدناها من لهيب السراج وتفرس فيها فإذا هى ذهب لا ريب فيه . على أنه خاف أن يكون فى الأمر خداع وهو قد اعتاد بحكم منصبه أن يسيء الظن بالناس وأن يرى الغش حيث تطلع وأين مشى ، فجعل يزن السبيكة بيده ليمتحن وزنها فلما رأى سعدون شكه قال بهدوء ورزانة وفى صوته لهجة العتاب : « لا تشك يا سيدى . وتستطيع أن تبيعها

فى سوق الصياغ غدا فتعلم صدق قولى . ولا ألومك على الشك لأن الناس لم يتعودوا الصدق ولا علموا نجاح الكيمياء الا قليلا ، ويغلب فيمن يصح طبيخه أن يستأثر بالذهب لنفسه »

فخجل الهرش من هذا التوبيخ اللطيف وازداد احتراما للملفان سعدون وثقة به ، فبادر يعتذر وقال : « حاشا لى أن أرتاب فى صدقك ، ولست حديث العهد بمعرفتكم فكيف كشفت لى من المخبات ، وأعلمتنى من الأسرار حتى صرت أعدك أخى بل أعز من أخى »

فقال : « أكون مسلما ويكون أخوك صابئا ؟ هل ترضى ذلك لنفسك ؟ » . وضحك وهو يلف درجا كان يقلبه فى أثناء الحديث وجعله فى الجراب الذى أخرج السبيكة منه

أما الهرش فأدرك أنه يمازحه فقال : « اذا كان الصابئة كلهم مثل الملفان سعدون فانهم اخوتى جميعا ، وأكرم بها من طائفة عندها علم النجوم . . . » . وسكت مصغيا كأنه يسمع صوتا ثم قال : « كأننى أسمع قرقرة لجم البريد »

وكان الصابئ قد ربط الجراب وتأبطه وتحفز للنهوض فقال : « هذا بريد خراسان يحمل خبرا مهما . ألا ترانى أتهيا للنهوض من قبل ؟ » فازداد الهرش اعجابا بمقدرة سعدون فى فنه حتى علم أن البريد قادم من خراسان بخبر مهم . فنهض يصلح قلنسوته وينقل سيفه وقال : « صدق من قال ان لقرقرة لجم البريد رهبة . دعنى أذهب لملاقاة صاحب البريد لعل أستطلع منه خبرا . . . انى أسمع الصوت يقترب منا »

ومشى مسرعا وسعدون يتبعه على مهل ، وقبل أن يصل الهرش الى باب الحان رأى بغل البريد وقف بالباب ، وراكبه بجانبه ملثما وقد شد وسطه بهميان عريض ، والبغل يلهث من التعب وقد تصبب العرق عن صدره وأرغى بعضه تحت اللجام . ثم سمعه يقول للخمار : « اسقنى يا سمعان . » فأسرع الرجل الى كوب ملاءها ماء ودفعها اليه

وكان الهرش قد وصل الى الباب ، فلما وقعت عيننا حامل البريد عليه ترجل قبل أن يشرب وهم بتقبيل يده ، فأومأ اليه أن يشرب ففعل ودفع الكوب الى الخمار ، ثم اقترب من الهرش فأسر اليه كلمة وجعلا يتهامسان ، وسعدون واقف على عتبة الحانة مما يلى البستان لا يسمع شيئا ، ولكنه لحظ مما بدا على الهرش عند اصغائه للرجل ان الخبر الذى يحمله من خراسان عظيم الأهمية . ولم يطل تهامسهما فاعتذر صاحب البريد وركب البغل وأطلق له العنان . فتحقق سعدون عند ذاك ان صاحب البريد يحمل خبرا ذا بال منعه من اطالة الحديث مع مقدم العيارين . فدخل سعدون الحانة فرأى الهرش مقبلا عليه والدهشة ظاهرة فى وجهه يمازجها ارتياح . وآنس

ابتسامه حول فمه تنفى انقباض أسرته ، فأدرك بفراسته أن الخبر ذو صلة بالرشيد لأنه في خراسان ، وقد ذهب اليها مريضا . وشياع ان المرض اشتد عليه ولا يرجى شفاؤه . فلما سمع قرعة لجم البريد ترجع عنده خبر موت الرشيد فلما رأى الهرش مقبلا عليه تبسم وهز رأسه وقال : « لكل أجل كتاب ! »

فبغت الهرش لقوله وعده نبوءة وأمسك بيده وانتحى به مكانا منفردا وهمس يقول : « هل عرفت بموته . وكيف ذلك ؟ »

قال : « رحم الله الرشيد انه مات غريبا وقد كنت أتوقع موته يوم خرج في هذه الحملة . عرفت ذلك من طالعه . وأراك سررت بموته . ويحق لك السرور كما يحق لسائر الأمراء والأجناد ، لأنكم ستأخذون رواتب جديدة خصوصا أنت فانك أوفر حظا من سائر الأمراء لأن الأُميين اذا تولي الخلافة زاد في تقريبك » . وتنحنج وتظاهر بأن السعال شغله عن اتمام كلامه

فتناول الهرش الحديث عنه وقال : « ولكن حامل البريد مع ثقته بي ورغبته في ارضائي كتم عني خبرا آخر قال انه على جانب عظيم من الخطورة . واكتفى بأن ذكر أنني سأعرفه قريبا »

فقطع سعدون كلامه وقال : « لا شك أنك ستعرفه لأنه سينشر على رؤوس الملاء ، ولو كان كتاب المندل معي لاستطلعت في هذه الدقيقة ولكن » . وتحفز للخروج كأنه يهم بالذهاب لعمل المندل ونادى غلامه أن يأتيه بالفرس فاستوقفه الهرش قائلا : « أراك مسرعا وأنا في حاجة اليك »

قال : « انى رهين أمرك ولكننى أحب الاطلاع على بقية الخبر »

فقال : « ولكننا تواعدنا على الاجتماع هنا لنتكلم فلم يطل مقامنا ، ثم أن أخانا على بن عيسى بن ماهان صاحب الشرطة يجب أن يراك لأننى كثيرا ما ذكرت بين يديه وحكيت له عن معجزاتك »

فقطع كلامه قائلا : « أخاف أن تكون ذكرت الكيمياء »

فضحك الهرش وهو يتشاغل برفع حمائل سيفه وقال : « الكيمياء ؟ . كلا ولكننى قصصت ما أنت عليه من المهارة فى النجامة والمندل فرأيت منه ميلا لرؤيتك ، وأوصانى بأن آتية بك . وأظنه ينفك لأنه صاحب شرطة بغداد وله شأن كبير ولاسيما بعد هذا الخبر فان مولانا الأُميين يعول عليه ويحبه . وهذه فرصة لى أيضا لكافئك على حسن صنيعك »

فأطرق سعدون هنيهة وهو ينتف عثنونه وينكت الأرض بعكازه ثم قال : « دعنى أذهب الآن على أن أعود اليك بالخبر الليلة »

قال : « اذا كنت تعود الى الليلة فلا بأس من ذهابك الآن . وأتنى فى أى

هزيع من الليل تجدنى فى قاعة العيارين بالحربية وأنت تعرفها . ومتى جئت نذهب معا الى دار صاحب الشرطة فسيكون ساهرا . ولا أظنهم ينامون الليلة اذا بلغهم ما بلغنا من أمر الرشيد ، لأن موته سيحدث تغييرا خطيرا أرجو أن يكون منه نفع لى ولك . قال ذلك ومد يده الى يد سعدون كأنه يحييه ، ثم نادى غلامه فجاء يحمل صندوقا صغيرا وعصا وملاءة مما قد يحتاج اليه فى أثناء الطريق ، فأشار اليه أن يعطى للخمار بعض المال ، فدفع اليه صرة صغيرة بها دراهم فأخذها الخمار شاكرا وأكب على يد الهرش بهم بتقبيلها فمنعه ، فالتفت سعدون اليه وقال : « هل جاء الأمير الهرش اليك الليلة ؟ »

فأدرك الخمار انه يعرض برغبته فى كتمان ذلك فأجابه : « كلا يا مولاي ولا الملفان سعدون . كن مطمئنا »

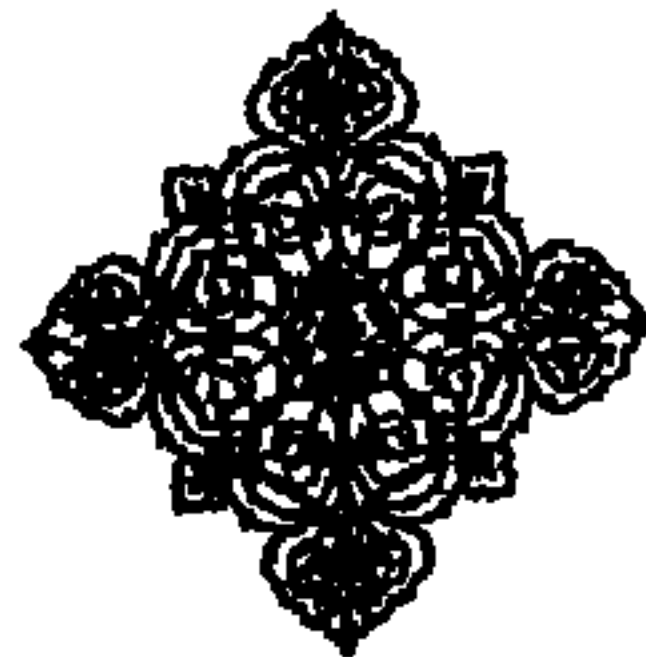
فالتفت الهرش الى سعدون ضاحكا ، فقال هذا : « اركب أنت قبلى ، ثم اركب أنا حتى لا نترك أثرا لاجتماعنا »

فقال الهرش : « أراك تبالغ فى الكتمان يا صديقى وليس فيما أتيناها ما يوجب هذا التستر . . لم يكن ثمة باعث على خروجنا الى هنا لهذا الاجتماع »

فقال وهو يخفض صوته : « يهمنى كتم أمر الكيمياء فقط . وانى أرى للجدران آذانا وللطرق السنة فاعذرني ! »

وركب الهرش ومشى الغلام فى ركابه فى طريق خراسان غربا نحو الجسر ، ثم غربا جنوبيا نحو الحربية

فلما تحقق سعدون ذهابه ركب وأدار شكيمة جواده جنوبا ثم شرقا نحو المحرم يلتمس قصر المأمون



القصر المأموني

كان قصر المأمون على عهد قصتنا هذه في جنوبي القسم الشرقي من بغداد بعد قصر الأمين . وكان يسمى قبلا القصر الجعفري نسبة الى جعفر البرمكي وزير الرشيد . والسبب في بنائه أن جعفرا كان شديد الشغف بالشرب والغناء . وكان أبوه يحيى رجلا جليلا ذا رأى وعقل يخاف على ابنه عاقبة هذا التهلكة ، فنهاه فلم ينته ، وأوصاه بأن يستتر عملا بالحديث المأثور فأبى . فلما أعيته الحيلة فيه قال له : « ان كنت تأبى التستر فاتخذ لنفسك قصرا بالجانب الشرقي من بغداد لأنه قليل العمارة ، واجمع فيه ندماءك وقيانك ، لتكون بعيدا من عيون من يكره ذلك منك »

فقبل جعفر النصيحة وأمر ببناء قصره بالجانب الشرقي وبذل في بنائه مالا كثيرا . فلما تم بناؤه سار اليه في جماعة من أصحابه فيهم صديق حكيم نخلص له اسمه مؤنس بن عمران ، فطافوا القصر واستحسنوه ، ولم يبق منهم أحد لم يقرظه بما يبلغ اليه امكانه الا ابن عمران فانه ظل ساكتا ، فقال له جعفر : « مالك ساكتا لا تتكلم وتدخل معنا في حديثنا ؟ »

فقال : « حسبى ما قالوا »

فادرك جعفر أن هناك شيئا يكتمه فقال : « أقسمت لتقولن »

فقال : « أما اذا أبيت الا أن أقول فلك على ذلك »

قال : « نعم واختصر »

فقال : « أسألك بالله ان مررت بدار بعض أصحابك ورأيتها خيرا من دارك فما كنت صانعا ؟ » . يشير الى ما كان في نفس الرشيد من جعفر من اكبار ما بلغ اليه من الثروة والنفوذ .

ففهم جعفر مراده فقال : « حسبك قد فهمت ، فما رأى ؟ »

قال : « أرى اذا صرت الى أمير المؤمنين وسألك عن تأخرك ، فقل أنك كنت في القصر الذي بنيت لمولانا المأمون واجعل أنك بنيت له »

فأعجبه رأيه وأقام بالقصر بقية ذلك اليوم ثم ذهب الى قصر الخلد ودخل على الرشيد . وكان الجواسيس قد نقلوا اليه خبر بناء هذا القصر ولم يكن في قصور الخلفاء مثله فقال له : « من أين أتيت وما الذي أخرك الى الآن ؟ »

قال : « كنت في القصر الذي بنيت لمولاي المأمون شرقي دجلة »

فقال الرشيد : « ألامون بنيتة ؟ »

قال : « نعم يا أمير المؤمنين لأنه ليسلة ولادته جعل في حجرى قبل أن يجعل في حرك ، واستخدمنى أبى له فدعانى ذلك الى أن اتخذت له بالجانب الشرقى قصرا لما بلغنى من طيب هوائه ليصح مزاجه ويقوى ذهنه ويصفو » فلما سمع الرشيد قوله سرى عنه وأسفر وجهه ووقع عنده موقع القبول وقال : « والله لا يسكنه أحد سواك ، ولا أتمم ما يعوزه من الفرش الا من خزاننا » . وزال من نفس الرشيد ما كان يخامره

فلما أوقع الرشيد بالبرامكة سنة ١٨٧ هـ واستباح قصورهم وأموالهم ، انتقل القصر الى المأمون بن الرشيد ، وهو ولى عهد المسلمين بعد الأمين ، فأحببه المأمون وهو يومئذ فى ريعان الشباب ، وصار أحب الأمانة وأشهاها لديه ، وأخذ فى توسيعه من جهة البرية فأضاف اليه قطعة من الأرض جعلها ميدانا لركض الخيل والحلبة فى أيام السباق واللعب بالكرة والصولجان ، وبنى فى جوانب القصر حظائر حبس فيها أصناف الوحوش من السباع وغيرها ، وفتح له بابا شرقيا يشرف على البرية ، وأجرى فيه نهرا ساقه من نهر الملعى ، وابتنى قريبا منه منازل لخاصته وأصحابه وسمى القصر من ذلك الحين « القصر المأمونى » . وعرفت تلك الجهة بجهة المأمونية وصار فيها بعد ذلك طريق اشتهر بهذا الاسم فى بغداد

وكان المأمون وهو ببغداد أثناء ولاية العهد حتى سنة ١٩٢ هـ قد أسكن فيه الفضل بن سهل وأخاه الحسن ، ولهذين الرجلين شأن فى تاريخه . فلما طلب الرشيد خراسان لمحاربة رافع بن الليث فيما وراء النهر ، وكان قد ثار على الدولة وعجز العمال والقواد عن اذلاله حمل الرشيد عليه بنفسه واستخلف على بغداد ابنه الأمين واليا عليها ، وأمر المأمون أن يبقى فيها وكان قد أوصى له بخراسان يتولاها بعد موته

وكان الفضل بن سهل فارسيا من سرخس ، ذا مطامع فى السلطان ، وفى نفسه نغمة على الرشيد لغدره بجعفر البرمكى . كما نقم عليه سائر رجال الفرس وأجمعوا أمرهم فيما بينهم على الأخذ بالثأر ، فتوجهت آمالهم الى المأمون لأن أمه فارسية وقد شب فى حجر جعفر البرمكى على الميل الى الشيعة العلوية وهى جامعة الفرس . وكان يحيى أبو جعفر قد اختار الفضل ابن سهل لخدمة المأمون ، وكان مجوسيا فأسلم على يده طمعا فى نصرة الفرس ، وكان المأمون يجله ويقدمه

فلما أزمع الرشيد الخروج الى خراسان فى تلك السنة وطلب الى المأمون البقاء فى بغداد ، خاف الفضل أن يموت الرشيد فى الطريق فيذهب سعيه سدى فجاء الى المأمون وقال : « لست تدري ما يحدث للرشيد ، وخراسان ولايتك ، ومحمد الأمين مقدم عليك فى ولاية العهد . وأخشى أن يخلعك وهو

ابن زبيدة وأخواله بنو هاشم ، وزبيدة وأموالها كما تعلم ، فاطلب الى أمير المؤمنين أن تسير معه . فطلب المأمون ذلك من أبيه فامتنع أولا ثم قبل ، وذهب الفضل وأخوه الحسن معهما ، وخلف المأمون بعض أهله في ذلك القصر ومعهم الخدم والعبيد وعليهم قيم يتولى شؤون بيت المأمون وأمواله وضياعه

وكان القصر المأموني نفسه على شاطئ دجلة الشرقي ، تشرف واجهته على النهر ولها شرفات ورواشن ، وفي قاعات القصر أنواع الفرش المذهبة والنمازق المقصبة المحمولة من الأتحاء البعيدة ، وقد زخرفت أبوابه بالاستائر وملئت خزائنه بأنواع الطرف مع ما تحتاج اليه القصور من الجوارى والخدم والحصيان ، وهم يعدون يومئذ من أدراك المنزل التي لا بد منها

وكان للقصر مما يلي دجلة مسناة من رخام ترسو عندها السفن يعدون اليها من الماء بدرجات من الرخام عريضة يحدها من الجانبين جدران من أساطين غليظة (درابزون) يظهر مما عليها من النقوش الفارسية أنها كانت لبعض الأبنية الكسروية وحملت الى هناك . والمسناة عريضة تمتد من حافة الشاطئ الى سور القصر عند بابه الغربى . وعند الباب ردهة فسيحة ربما فرشوها بالطنافس ونصبوا في جوانبها المقاعد للجلوس اذا أرادوا مشاهدة مجرى دجلة وفيه السفن تمر صاعدة أو نازلة

وكان المأمون قد خلف في القصر ابنته زينب لما سافر مع أبيه في ذلك العام ، وتكنى أم حبيبه ، وهى يومئذ في الثانية عشرة من العمر ، وكانت مثل أبيها ذكاء ونباهة واستقلالا في الفكر ، ومثل جدها الرشيد أنفة وتعصبا لبنى هاشم . وكانت مع صغر سننها قوية الإرادة مستبدة برأيها ، وقد عرف أبوها ذلك فيها ، وهو لا يريد تلك العصبية لرغبته فى اصطناع الفرس . فعهد فى تربيتها الى الجارية التى ربتة هو ، وأصلها من جوارى البرامكة فى إبان مجدها واسمها دنانير . وذلك ان المأمون لما جعل فى حجر جعفر عهد هذا فى تربيتها الى تلك الجارية وأوحى اليها أن تنشئه على حب الفرس ، فنشأ المأمون على ذراعيها وشب يحترمها ويراعى جانبها . ولما ترعرع أخذها اليه وجعلها فى جملة جواريه . فلما رزق بابنته عهد اليها فى تربيتها وأوصاها بأن تعودها حرية الفكر وحب الفرس ، فبذلت جهدها فى ذلك . وكان الرشيد مولعا بحفيدته هذه وهو الذى سماها زينب وكنّاها أم حبيبة وكثيرا ما كان يستقدمها اليه فى ساعات الفراغ ويداعبها ويهديها العقود والأساور ، فكانت تشهد مجالسه الخاصة مع امرأته زبيدة ، وهى كثيرة المفاخرة بنسبها الهاشمى ، فكانت زينب تسمع ما يدور بينهما من اعظام بنى هاشم فيفرس ذلك فى ذهنها عفوا ، فنشأت شديدة التعصب لهم رغم ما كانت دنانير تحاوله على خلاف ذلك . على أن زينب كانت تحب مربيتها وتحترمها وترتاح الى حديثها ولم تكن تكتمها أمرا يخالج ضميرها

زينب ودنانير

كانت زينب سريعة النمو جسما وعقلا ، يحسبها الناظر اليها تناهر السادسة عشرة وهي لم تدرك الثانية عشرة . وكانت صبيحة الوجه سوداء العينين براقتها ، صغيرة الأنف غائرة الشفتين بارزة الذقن ، يدل مبسمها على الثبات ورباطة الجأش وقوة العزيمة ، وعيناها تدلان على الذكاء وسرعة الخاطر . وكانت دنانير قد ربتهما على سداجة المعيشة ، ونزهتها عما كانت الرغبة منصرفة اليه يومئذ من التبرج والبذخ فكانت تقضى النهار وليس عليها من الثياب الا رداء ساذج وقد ضفرت شعرها ضفيرة واحدة ترسلها على ظهرها

أما دنانير فنشأت في منزل يحيى بن خالد البرمكى وكانت صفراء صادقة الملاحظة أصلها لرجل من أهل البصرة خرجها وأدبها ورواها الشعر ، ثم اتصلت بيحيى البرمكى وهي فتاة فربيت في منزله . وهي غير دنانير المغنية التي اشتهرت بالغناء وحفظ الشعر . أما هذه فكانت ميالة الى المسائل العقلية ، وكان مجلس يحيى لا يخلو من بحث أو مناظرة في علم أو أدب . وكذلك كان سائر البرامكة فانهم أول من نشط العلم في العصر العباسي . ولما هم يحيى بترجمة المجسطي الى العربية استقدم المترجمين اليه وكانت دنانير تسترق الاجتماع بهم وكثيرا ما كانوا يرونها مصغية لتستمع ما يتذكرون فيه من المسائل الفلكية واحكام النجوم في أثناء الترجمة ورفيقاتها الجوارى يضحكن منها ويعيرنها برغبتها في علوم هي من قبيل الرموز الغامضة التي لا يقدم على حلها الا قهارمة العلم من أهل الذمة . وكانت المسائل الفلسفية حديثة العهد يومئذ في العربية اذ لم يكن قد ترجم منها غير علم النجوم وبعض كتب الطب في زمن المنصور والمهدي والرشيد . على أنها كانت تلم بتلك المسائل قبل نقلها الى العربية مما يدور بين جلساء يحيى واشتهرت بين جوارى البرامكة بحب العلم والتعقل . ولذلك لما صار المأمون في حجر جدير وعهد في تربيته اليها كانت وهي تلاعبه في الحديقة تحمل معها قيثارا أو ورقا عليه رسوم فلكية أو مسائل طيبة تراجعها ، وأول ما فتح عليه وصار في سن الاستغراب والاستفهام لم يكن يسألها عن شيء الا فسرت له بتعقل . ثم أخذت في تلقيه المسائل على قدر ما يتحمله سنه . لم تكن تفعل ذلك رغبة في تعليمه بل تلذذا بالعلم فان محب العلم يلتذ بالقاء الحقائق كما يلتذ بتلقيها

ولما ترعرع المأمون وآن تسليمه الى المعلمين ، كان قد تولد فيه الميل الى البحث عن الأسباب والتماس البرهان على كل شيء . فجره ذلك الى الاعتزال والتشيع والرغبة فى العلم والفلسفة حتى كان ما كان من نقله كتب الاقدمين على ما هو مشهور

ونشأ المأمون على احترام دنائير احترام الولد لأمه . وكثيرا ما كان يجالسها فى ساعات الفراغ ويباحثها فى بعض المسائل ويسر من تعقلها . فلما رزق بابنته زينب سلمها اليها وهو على ثقة من أنها تربيها كما يحب . وكانت زينب كثيرة الشبه بأبيها من حيث الرغبة فى البحث واستطلاع الأسباب ، فلم تكن دنائير تدخر وسعا فى ترقية مداركها ، فشبت وهى تدعوها أمها ، نظرا الى أن أمها كانت متوفاة . وربما أحببتها أكثر من حبها لأبيها لاشتغال المأمون عنها بأموره . على أن الآباء قلما كانوا يعاشرن أبناءهم وانما يعهدون فى تربيتهم الى الجوارى ، فربيت زينب تربية فلسفية ونشأت لا تبالي الا بحقائق الأمور ، وطرحت ما كان يتسابق اليه أترابها من اللعب والقصف . وبلاط الخلفاء مسرح واسع لأسباب اللهو يومئذ حتى فى القصر المأمونى نفسه . فقد كان فيه كثير من وسائل اللعب يتمتع بها الجوارى والخدم ، وزينب لا تميل الى ذلك ولا تخالط من الخدم غير مربيتها ، فكانت ألزم لها من ظلها تصاحبها حيثما توجهت ، فتخرج معها الى الحديقة لقطف الأزهار ، وتخرج الى بيوت السباع لتشاهدها فى أقفاصها والسباعون يقدمون لها الطعام من قطع اللحم الكبيرة . فاذا أعوزها اللهو تشاغلت بالشطرنج ، وكانت هذه اللعبة حديثة العهد فى بلاط الخلفاء لأن الرشيد أول من لعبها منهم ، وكانت دنائير تجيد اللعب بها وربما شغلت بها زينب أحيانا ، أو خرجت بها الى الباب الغربى عند المساء لتجلسا فى روشن أو شرفة تتفرجان من بين الستور على السفن المارة فى دجلة . وكثيرا ما يكون الجلوس هناك مطربا لكثرة من يمر من أهل القصف والطرب ومعهم المغنون والعودادون

فاتفق فى اليوم الذى بدأنا فيه روايتنا أن كانت زينب جالسة مع مربيتها فى شرفة فوق المسناة تطل على دجلة ، وعليها رداء وردى اللون ، وفى عنقها عقد من اللؤلؤ أهدها اليها جدها الرشيد قبل سفره . ودار بينهما الحديث فى مسألة تتعلق بالطوالع والابراج وأشكل فهمها حتى على دنائير فقالت : « ان هذه المسألة من المسائل العويصة فمتى جاء طبيبنا سألناه عنها »

فقالت زينب : « وهل يفهم الأطباء النجوم ؟ »

قالت : « يغلب فى الطبيب أن يعرف كل علم ولاسيما أطباء الفرس ، وطبيبنا على الأخص ، فانه من نوابغ الفلاسفة وقهارمة الأطباء . . . وو . . »

فضحكت زينب ملء فيها ضحكة فتاة لا تعرف من الدنيا غير أسباب

المسرات ، وقالت والاستغراب باد في عينيها : « اذن هو أعلم منك ؟ » .
قالت ذلك لاعتقادها أن مربيتها أعلم أهل الأرض . وذلك شأن الناس فيمن
يشبون في حجره أو يتلقون العلم عنه ، فالأولاد يعتقدون الكمال في آبائهم
أو مربيتهم ، ويتوهمون أن معلمهم من كبار الفلاسفة ولو كانوا أجهل من
قاضي جبل . فيروون عنهم ويستشهدون بأقوالهم ويعظمون من أمرهم فإذا
كان المعلم صغير العقل صدق تلميذه وظن في نفسه التفوق على العلماء
والحكماء ، وقد يكون علمه محصورا في مبادئ الصرف والنحو فيتوهم انه
لا يشق له غبار فيزداد غرورا

وكانت دنائير تعلم حقيقة منزلتها ، فلما سمعت زينب تطرى علمها
ابتسمت وقالت : « انى يا سيدتى لا أعرف شيئا ، وانما التقطت بعض
المسائل من أفواه العلماء . وأما هذا الطبيب فقد تفقه في الطب والفلسفة
في مدرسة (جندى سابور) المشهورة التي تخرج فيها ابن بختيشوع طبيب
أمير المؤمنين . ولكنه أعلم منه بأمور كثيرة ولا سيما بالكيمياء والنجامة ،
ولولا ذلك لم يهتم الفضل بن سهل بأمره حتى وصى مولاي المأمون به »
فقطعت زينب كلامها وقالت : « الفضل بن سهل أوصى به ؟ ومتى كان
ذلك ؟ أليس الفضل مع أبى الآن في خراسان »

قالت : « نعم هما معا هناك ، ولكن هذا الطبيب جاءنا منذ بضع سنين
بتوصية من الفضل بن سهل ذكر فيها أنه نابغة خراسان في الطب والعلم
حتى انك لترين ذلك ظاهرا في وجهه »

فقالت : « فلماذا لا يقيم عندنا دائما ؟ هل منعه أبى من ذلك ؟ »
قالت : « كلا ولكنه اعتذر لمولاي المأمون يوم مجيئه من أنه لا يستطيع
الاقامة عندنا لأسباب ذكرها له »
فقالت : « وأين يقيم اذن ؟ »

قالت : « بلغنى أنه يقيم بالمدائن كأنه استأنس بجوار ايوان كسرى أعظم
ملوك الفرس وأعد لهم . وطبيبنا فارسي . . . »

قالت : « عرفت أنه فارسي من كلامه فانه لا يحسن النطق بالعربية حتى
الآن ولو أقام هنا لاعتاد النطق بمخالطة البغداديين »

قالت : « والمدائن قريبة منا فهي على بضع ساعات من هنا جنوبا »

قالت : « وقد كان ينبغي له أن يسكن هنا بعد ذهاب أبى وانتقالنا الى
هذا القصر البعيد عن المدينة لتتقوى به لأنه من الجبابة كما يظهر من كبر
هامته . ومع كثرة ترداده علينا لا أزال الى اليوم أتهيبه لما يقبض على يدي
ليجس نبضى »

قالت : « صدقت انه طويل القامة ولباسه المستطيل يزيد طولا ، على
انه لطيف اللسان حسن الأسلوب قريب من القلب . ولكنه يغيب عنا أحيانا

بضعة أيام متوالية ربما احتجنا اليه فى أثناءها فلا نجده ، والاطباء كثيرون ولكننى شديدة الثقة بعلمه »

فقطعت زينب كلامها ووضعت يدها على كتفها تدل بمحبتها وقالت : « قولى له أن يسكن فى أحد القصور هنا . . »

قالت : « سأطلب منه ذلك وعسى أن يجيب طلبى . انى أرى سفينة صاعدة من الجنوب لعله قادم فيها »

وكانت زينب فى أثناء الحديث تنظر الى مجرى دجلة وعيناها تتأملان ما على الشاطئ الآخر من النخيل القائم كالأصنام الهائلة ، يترأى من خلالها فى عرض الأفق بر فسيح تغشاه الأشجار والأعشاب ، تتخللها أبنية متفرقة كأنها أحجار كريمة نثرت على ديباجة خضراء . وكانت الشمس قد مالت الى الأصيل فوقعت ظلال النخيل على الماء واستطالت وتراءت فى قاع النهر معكوسة كأنها نبتت جذورها عند الشاطئ وسعفها غائصة فى الماء ، وجذوعها بين ذلك تتموج بتموج سطح الماء وتظهر متعرجة كأنها مؤلفة من قطع مرصوفة بعضها فوق بعض على غير انتظام ، فيتوهم من يرى تموجها ان الحياة قد دبّت فيها فتلوت كالأفاعى تحاول الافلات ممن قبض على أذناها ، أو انها على وشك أن تملص جذورها من الشاطئ لتنساب فى الماء

كانت زينب لاهية بهذا المنظر أثناء الحديث ، فلما لفتت دنائير انتباهها الى السفينة التفتت وقالت : « وهل يأتينا الطبيب فى الماء أم فى البر ؟ انى أعهد يجيئنا على فرس »

قالت : « من هنا الى المدائن طريقان أحدهما فى البر والاخر على الماء »

وكانتا تتكلمان وهما تنظران الى السفينة من خلال الستر فلم تعرفا من فيها . ثم ارتأى أن يجراها ببعض تعرجات النهر فاشتغلتا عنها قليلا . ثم ملت زينب الجلوس وهمت بالنهوض فاذا بها تسمع صوت ارتطام الماء على مقربة من القصر يتخلله نقر الهواء على الشراع فالتفتت فرأت قاربا صاعدا بجانب المسناة وفيه نوتيان قد أخذوا فى حل الشراع ، وفى صدر القارب امرأتان التفت احدهما برداء قديم قد غير الزمان لونه ، وسسترت رأسها بخمار ، وظهر بحياها وعليه ملامح الشيخوخة . والثانية عليها ثوب أسود فوقه خمار فى لونه قد تلثمت به حتى لا يظهر من وجهها الا العينان . وبعد هنيهة شد النوتيان القارب بحلقة من حلقات المسناة وألقيا خشبة بينها وبين القارب ، ونهضت المرأتان ومشتا وهما تتساندان حتى عبرتا الى المسناة ووقفتا فى أسفل السلم والعجوز تنظر الى القصر وتعجل بصرها فيه كأنها تبحث عن تريد أن تكلمه ، فقال لها أحد النوتين : « هذا هو القصر المأمونى يا خالة »

فنهضت دنائير لساعتها وتقدمت حتى وقفت بالباب وأطلت على القارب

وتفرست فى المراتين وظلت زينب جالسة تنتظر ما يبدو منها ، فما لبثت أن رأتها انحدرت على السلم مسرعة حتى دنت من العجوز واستقبلتها بين ذراعيها وأكبت على يدها وقبلتها بلهفة ، ثم أعانتها على الصعود والفتاة فى أثرهما . وكانت زينب تتوقع كلمة تسمعها من دنائير فتعرف القادمين فلم تسمع شيئا ، فظلت صامته حتى أقبلت والعجوز تمسئ معها تنوكاً على عكازها ، ولما دنت منها تطاولت دنائير بعنقها وقالت بصوت ضعيف : «هلم بنا يا مولاتى »

فنهضت زينب ودخلن جميعا فى دهليز بين الباب الغربى والقصر حتى وصلن الى قاعة أمرت الجوارى بالخروج منها ، وأشارت الى العجوز ورفيفتها بالدخول فدخلتا ، وأجلستهما على طنفسة هناك . بينما جلست زينب على وسادة وأخذت تنظر اليهما وتنفرس فيهما وقد أزاختا الخمار فظهر شعر العجوز وقد اشتعل شيئا . أما الفتاة فبان محياها فاذا هى فى ابان الشباب كأنها ملاك فى صورة انسان . وكانت رشيقة القوام جميلة الطلعة قمحية اللون متناسبة الملامح تدل خلقنها على كرم المحتد والوجاهة ، ويشف لباسها عن سذاجة وفقر زادا جمالها وضوحا ، رغم ما يتجلى فى وجهها من الكآبة والحزن ورغم ثوبها الأسود وما يتلألأ فى عينيها من الدمع ، وكانت فى دخولها تمسئ مطرقة كأنها تحاول كتمان ما فى نفسها ، فلما جلست رفعت عينيها وفيهما دعي وسحر فوق بصرها على زينب وكانت هذه تنفرس فيها متلهفة فلما التمى بصراهما أحست زينب بجاذب اليها لم تعهد مثله فى أحد تعرفه مع أنها فتاة مثلها ، وشعرت بميل اليها وانعطاف ، وظنت أنها قد تكون رأتها من قبل

أما العجوز فكانت مع ما يبدو عليها من مظاهر الذل والحزن ، ينم محياها عن الأنفة والعز . فلما استقر بهما الجلوس التفتت دنائير الى زينب وقالت وهى تشير الى العجوز : « ألم تعرفيها يا مولاتى ؟ »

فاجابت الفتاة بعينيها وشفتيها ان لا

فقالت دنائير وهى تهز رأسها متحسرة : « انها مولاتى أم جعفر » فتبادر الى ذهن الفتاة لأول وهلة أنها تعنى زبيدة زوج الرشيد فدهشت لما تعهده فى زبيدة من شباب باق وهى ترى بين يديها عجوزا طاعنة فى السن فضلا عن فارق الملامح . فأدركت دنائير سبب دهشتها فقالت : « انما أعنى مولاتى أم جعفر الوزير ، وهى عبادة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة » وكانت زينب قد علمت أن جدها الرشيد اغتال وزيره جعفر هذا وأباح منازلها ولم تسمع بأمه فكانت تحسبها مائتة . وغلبت العصبية الهاشمية على زينب فانقبضت نفسها وتراجعت ، فابتدرتها دنائير قائلة : « ان لأم جعفر دالة على سيدى المأمون لأنه ربي فى حجرها ، وكانت تخدمه وتحبه ، وهو يحترمها ، وكثيرا ما كان يذكرها بعد نكبة ابنها ويود أن يراها ليكرمها .

ولو علم بوجودها على قيد الحياة لاستقدمها اليه وأكرم وفادتها وعزاها على ثكلها »

وكانت أم جعفر فى أثناء ذلك تمسح دموعها وتتجلد حتى تخفى بكاءها . أما زينب فلما سمعت قول مربيتها وشاهدت بكاء تلك العجوز رق قلبها وكادت تشاركها فى البكاء لولا رباطة جأشها وما سبق الى فؤادها من كره البرامكة . وكانت دنانير تعلم ما فى نفس زينب فأحبت أن تبالغ فى استعطافها فقالت : « حتى أمير المؤمنين الرشيد ، مع ما تعلمينه من أمره مع ابنها ، يحترمها ويعلى قدرها لأنها أرضعته وربته بعد أن ماتت أمه وهو فى المهد . وكان يشاورها ويكرمها ويتبرك برأيها وطالما سمعته يناديها يا أم الرشيد ! »

فلما سمعت الفتاة ذلك قالت : « هى اذن جدتى ؟ »

فقطعت عبادة كلامها قائلة : « بل أنا أمتك يا سيدتى ، وإنما أكرمنى أمير المؤمنين بذلك تفضيلا منه . ولم يصبنا ما أصابنا بعدئذ الا بتقدير العزيز الحكيم » . قالت ذلك وشرقت بدموعها

فرق قلب زينب لحالها وقالت : « مسكينة يا أم جعفر ! لماذا لم يرع جدى زمامك ويعف عن ابنك ؟ »

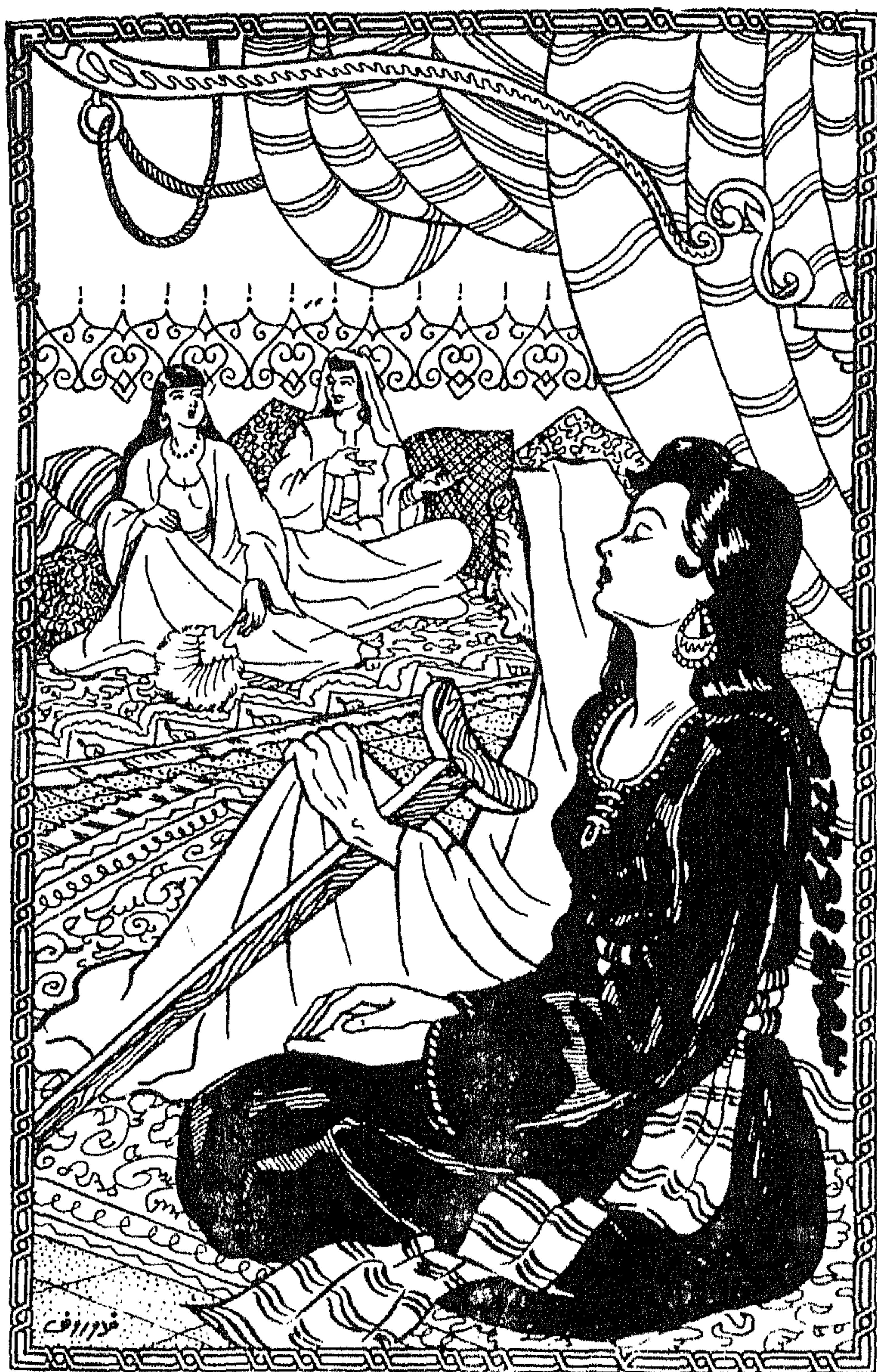
فقالت : « ان مولانا الرشيد فعل ما فعله بوشاية الأعداء لأن بعض الحساد وشى بولدى وحسن له قتله ، والرشيد حفظه الله اذا عزم على أمر بادر الى انفاذه لا يسمع فيه رجاء ولا استرحاما . ولبكن كل ما يفعله أمير المؤمنين مقبول مطاع » . ثم التفتت الى دنانير وقالت : « وقد تمكن الأعداء من اغراء الرشيد بزوجى يحيى وبابنى الفضل فأخذهما وحبسهما فشفعت اليه بحرمة اللبن أن يعفو عنهما ويأمر باطلاقهما أو تسريح أحدهما فلم يفعل » فقالت دنانير : « وماذا فعلت ؟ »



مدت أم جعفر يدها الى جيبها وأخرجت حقا من زمردة واحدة خضراء ونظرت الى دنانير وقالت ، وهى تفتح الحق بمفتاح من الذهب : « قد تشفعت اليه بما فى هذا الحق من آثاره » . وأخرجت من الحق خصلة شعر وبضع أسنان ففاحت رائحة المسك حتى تضوعت القاعة وقالت : « تشفعت اليه بهذا الشعر لأنه شعره ، وبهذه الاسنان فانها ثناياه . وقد حفظتهما منذ طفولته ، ولكنه لم يقبل شفاعتى »

فقالت دنانير : « وكيف ذلك يا مولاتى ؟ »

فبدا الاهتمام فى وجه أم جعفر وعادت اليها أنفتها واعتدلت فى مقعدها



و انفتحت دما، این زیباتر و فاتر و می. سر ای العجوز : « أم عمرها یا مولائی ؟ »

وقالت : « لما علمت بما أصاب ولدى جعفر واحسرتاه عليه ، وأن الرشيد قبض على يحيى ، قلت فى نفسى لاذهب الى الرشيد أستعطفه ليعفو عن زوجي ، لعلمى بما كان من اكرامه اياى وانه كان لا يرد لى شفاعته فى أحد . فكم أسير فككت وكم مستغلق فتحت وكم . . . » قالت ذلك وغصت بريقها ، ولكنها تجلست وأتمت الحديث فقالت : « ذهبت الى الرشيد وكنت أدخل عليه بلا اذن ، فاستأذنت فلم يأذن لى . وفشلت محاولتى العديدة للمثول بين يديه ، فلما يئست ذهبت الى بابه ماشية حافية كاشفة عن وجهى فلما رآنى الحاجب على تلك الحال دخل عليه وقال له : (ان مرضع أمير المؤمنين بالباب فى حالة تقلب شماتة الحاسد الى شفقة) . ووصف له حالتى ، فسمعتة يقول له : (ويحك أجات ماشية ؟) . قال : (نعم يا أمير المؤمنين وحافية) . فصاح فيه : (ادخلها قرب كبد غذتها ، وكربة فرجتها ، وعورة سترتها)

« فلما سمعت قوله استبشرت بنيل مرادى ، فعاد الحاجب وأشبار الى فدخلت ، فقام الرشيد وتلقانى محتفيا بى ، وأكب على تقبيل رأسى ثم أجلسنى معه فقلت : (أيعدو علينا الزمان ، ويجفونا خوفا منك الأعوان ، ويحرضك علينا أبناء البهتان ، وقد رببتك فى حجرى ، وأخذت برضاعتك الأمان من عدوى ودهرى ؟)

« فقال لى (وما ذلك يا أم الرشيد ؟)

« قلت : (جئتك فى أمر يحيى ولا أصفه بأكثر مما علم أمير المؤمنين من نصيحته واشفاقه وتعرضه للتلف فى شأن موسى الهادى)
« فقطب الرشيد حاجبيه وقال : (يا أم الرشيد ، ذلك أمر سبق ، وقضاء حم ، وغضب من الله نفذ)

« فقلت : (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)

« قال : (صدقت ولكن هذا مما لم يمحه الله)

« فقلت : (الغيب محجوب عن النبیین فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟)
فأطرق مليا ثم قال :

واذا المنية أنشبت أظفارها الفيت كل تميمة لا تنفع

« فقلت على الفور : (ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين وقد قيل :

واذا افتقرت الى الذخائر لم تجد ذخرا يكون كصالح الأعمال

« هذا بعد قول الله عز وجل : (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس

والله يحب المحسنين)

« فتشاغل هنيهة بقضيب كان بيده ثم قال : (يا أم الرشيد

إذا صرفت نفسى عن الشئ لم تكذب اليه بوجه آخر الدهر تقبل

« فلما رأيته مصرا على عزمه قلت :
ستقطع في الدنيا اذا ما قطعتنى
يمينك ، فانظر : اى كف تبدل ؟
» فقال لى : (رضيت)
« فقلت : (هبه لى يا امير المؤمنين ، فقد قيل من ترك شيئا لله لم يفقهه)
« فاطرق مليا ثم رفع رأسه وهو يقول : (لله الامر من قبل ومن بعد)
« قلت : (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز
الرحيم . . . واذكر يا مولاي أليتك ما استشفعت الا شفعتنى)
« فقال : (اذكرى يا أم الرشيد أليتك ألا شفعت لمقترف ذنبا)
« فلما رأيته صرح بمنعى ، ولاذ عن مطلبى ، أخرجت هذا الحق من جيبى
وفتحت قفله وأخرجت هذه الذوائب وهذه الثنايا وقلت : (يا امير المؤمنين
استشفع اليك وأستعين بالله عليك وبما صار معى من كريم جسدك وطيب
جوارحك ليحيى عبدك)
« فأخذ الحق منى ولثمه ، واستعبر وبكى بكاء شديدا ، وبكى أهل
المجلس . فما شككت أنه مجيب . ولكنه لما أفاق ألقى الحق وما فيه الى وقال :
(لحسن ما حفظت الوديعة)
« فقلت : (وأهل للمكافأة أنت يا امير المؤمنين)
« فسكت وأقفل الحق ودفعه الى وقال : (ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات
الى أهلها)
« قلت : (واذا حكمتكم بين الناس ان تحكموا بالعدل . ويقول : (وأوفوا
بعهد الله اذا عاهدتم)
« فنظر الى فعلت من عينيه أنه يستفهمنى عن مرادى ، وكنت قد تعودت
فهم مراده من النظر فى عينيه فقلت : (أما أقسمت لى ألا تحجبني ولا
تمتهننى ؟)
« فلما تذكر عهده قال : (أحب يا أم الرشيد أن تشتريه بحكمة فيه)
« فقلت : (انصف يا امير المؤمنين ، وقد فعلت غير مستقيلة ولا راجعة
عنك)
« قال : (بكم تشتريه ؟)
« قلت : (برضاك عمن لم يسخطك)
« فظهر الملل فى وجهه وقال : (يا أم الرشيد ، أمالى من الحق مثل الذى
لهم ؟)
« قلت : (بلى يا امير المؤمنين أنت أعز على وهم أحب الى)
« قال وهو يتزحزح من مقعده : (فتحكمى فى غير هذا) .

« فلما تحققت أنه غير مجيبى نهضت ، وأنا أقول له : (قد وهبته وجعلتك فى حل منه) . وخرجت ونسيت مصيبتى وجففت دمعتى ، وأنت ترين دمعى الآن وكيف أنى أكاد أختنق به أما فى ذلك اليوم فلم تسقط لى دمعة ، ولما فرغت أم جعفر من حديثها أقفلت الحق على ما فيه وجعلته فى جيبها وقالت : « لم يبق لى مأرب الآن فى الرجاء فان الذى كنت ألتمس رضى الرشيد عنه ارتاح من شقاء هذه الحياة فمات فى حبسه ، ومات بعده ابنى الفضل بالأمس فى سجنه بالرقعة » . وصمتت هنيهة وهى تمسح بعينيها وأطرقت ثم قالت : « ولكن موته لا بد أن يعقبه أمر عظيم لأنى كثيرا ما كنت أسمعه يقول : ان امرى قريب من أمر الرشيد . ولكننى أطلب من الله أن يطيل عمر أمير المؤمنين »

فخفق قلب زينب خوفا على جدها ، ولكنها استحسننت استدراك أم جعفر بالدعاء له بطول البقاء ، وعادت الى التفكير فى غرابة حديثها



كانت عبادة أم جعفر تقص حكايتها بلهفة وفصاحة ، وأم حبيبة مقبلة عليها بكل جوارحها وعيناها شاخصتان تراعى حركات شفتيها، وغلب عليها التأثير غير مرة وأحست كأنها تجهش بالبكاء . ولما أتت أم جعفر على آخر الحديث انقلب اشفاقها الى اعجاب واكبار، لما عاينته من أنفتها وعزة نفسها . وأحست بانعطاف اليها وشاركتها تألمها بما أصابها من الشك والفشل ، وان كان مثلها لا يدرك كنه المصائب ، ولكنها كانت كبيرة العقل والقلب تفهم وتحس أكثر مما تقتضيه سننها

وكانت قد نسيت لهفتها لمعرفة رفيقة أم جعفر لاشتغالها بسماع الحديث . فلما انتهى أجالث نظرها فى الفتاة وجعلت تتفرس فيها والحشمة تمنعها من الاستفهام ، فأدركت دنائير ذلك وهى أشد لهفة منها لاستطلاع أمرها . وكانت أثناء الحديث تسترق اللحظ الى الفتاة لعلها تستطلع شيئا من أمرها فلم تستطع فصبرت نفسها الى آخر الحديث . وكانت الشمس قد مالت الى المغرب فأمرت الخدم أن يضيئوا الشموع القائمة على المنائر فى جوانب القاعة، وهى شموع ضخمة كانوا يتأنقون فى اصطناعها ويمزجونها بالعود، فاذا أضيئت فاحت رائحة العود وتضوع المكان بها . وعادت دنائير الى التفكير فى الغرض الذى جاءت أم جعفر لأجله ذلك اليوم بعد طول احتجاجها فأرادت أن تسوقها الى التصريح بذلك عفوا فقالت لها : « ان حكايتك يا مولاتى غريبة ، وأغرب منها احتجاجك عناكل هذه السنين والناس لا يعرفون مقرك . فأين كنت تقيمين ؟ »

فتنهدت وقالت : « كنت محتجبة ، لأن مثلي خليفة أن تدفن نفسها حية ،
ويا ليتني مت منذ عشر سنوات ولم أكابد ما كابدته من مرارة القهر والذل .
أنت تعلمين يا دنانير حالي في بيت جعفر » . وغصت بريقها وأطرقت ،
فتناولت دنانير الحديث نيابة عنها وقالت لزوينب : « نعم يا سيدتي اني أعلم
الناس بما كانت عليه في أيام عزها ، وأذكر في عيد النحر من بعض السنين
أن مولاتي عبادة هذه كانت في بيت ابنها الوزير وعلى رأسها ٤٠٠ جارية ! »
فقطعت عبادة كلامها قائلة : « وكنت مع ذلك أعد ولدي عاقا . وقد مرت
على في محنتي هذه أيام لا أجد جلدي شاتين أفترش واحدا وألتحف الآخر .
على أني لم أكثر لهذا كله أكثرائي للأمر الذي جئتم لأجله الليلة ، وأظنني
ثقلت على مولاتي أم حبيبة »

وكانت زينب قد أحبت عبادة واحترمتها ، ونسيت ما يكسوها من
الأثواب البالية - على عادة الناس في الحكم على جلسائهم لأول وهلة فانهم
يقدرونهم أولا بما يظهر من لباسهم وحلاهم فاذا اختبروهم قدروهم بمواهبهم
وقواهم - فخاطبتها باحترام وقالت لها : « معاذ الله يا سيدتي فانك تنزلين
عندنا على الرحب والسعة ولك كل ما تحتاجين اليه » . ثم التفتت الى دنانير
وقالت : « اعطيها كل ما تحتاج اليه ! »

فوقفت عبادة وقبلت رأس زينب وقالت : « شكرا لك على احسانك
يا سيدتي ولكن الأمر الذي جئت به اليك أهم عندي مما تفضلت به وان
كنت لا أستحق هذا ولا ذاك » . فبادرت اليها دنانير قائلة : « قولي فان لك
كل ما تريدين ، هذا ما أمرت به مولاتنا حفظها الله »

قالت : « سألتني يا دنانير عن احتجاجي كل هذه السنين عن بغداد ؟
كيف أقيم في مدينة أرى فيها حثة ولدي معلقة على جسورها وقد شطروا
الجثة شطرين صلبوا شطرا على أحد الجسور والشطرا الآخر على الجسر الثاني
وعلقوا الرأس على الجسر الثالث ليراها المارة صباح مساء . ألم تبق جثة
جعفر معلقة على هذه الجسور سنتين وبعض السنة حتى عاد الرشيد من الري
سنة ١٨٩ هـ فأمر باحراقها ؟ وكأنه شعر بفضاعة الأمر فهجر بغداد من
يومه وبسكن الرقة وما زال فيها حتى خرج هذا العام الى خراسان ، وهبي
اني رضيت المقام فعيون الرقباء ساهرة وأمر الخليفة مشدد بالنقمة على كل
من يذكر البرامكة بخير فكيف لو عرفوا بوجودي ألا يسرعون الى تقطيعي
اربعا اربا . وما أنا بخائفة من الموت فانه أيسر ما أقاسيه ولكنني رغبت في
الحياة من أجل هذه الفتاة » . وأشارت الى رفيقتها فتجولت الأنظار اليها

فخجلت الفتاة وتوردت وجنتاها وتلايلات عيناها الدعجاوان وظهر فيهما
الدمع ، وأطرقت . فاغتنمت دنانير هذه الفرصة وقالت : « كنت منذ دخولك
علينا أفكر في هذه الفتاة الجميلة وأتفرس فيها فلم أعرفها »

قالت : « انها بنت الشقاء ونتاج المصائب ، وليس في بغداد من يعرف حقيقتها غيري ، وقد كتمت أمرها عن كل انسان خوفا على حياتها . وانما أردت البقاء على قيد الحياة لأجلها . وهذه أول مرة أبوح باسمها فهل أقول ذلك وعلى الأمان ؟ »

فقالت دنانير : « لم يبق داع للخطر بعد ما شاهدته من انعطاف سيدتي الحبيبة اليك ، ومن ذا يسمع حديثك ولا يشعر بشعورك ؟ . قولي لا تخافي واطلبي ما تحتاجين اليه فانك نائلة ما تريدين »

فتنهدت وهي تصلح نقابها على رأسها وقالت : « ان هذه الفتاة ربيبة التعاسة ، انها بنت الوزير المقتول . . ابني جعفر »

فبغت دنانير وأعادت نظرها الى الفتاة لعلها تتذكرها ، ثم قالت : « لا أذكر أني أعرفها »

فقالت : « نعم انك لا تعرفينها لأنها ولدت بعد خروجك من بيتنا الى بيت مولانا المأمون . وكان هذا من حسن حظك ، لأن البيت الذي كان مقصد السائلين ومقر الوافدين وملاذ الخائفين أصبح بلاء على أهله فغدا ذكرهم تعبسا على الأقرباء والمريدين » . وغلب عليها البكاء فسكتت ريثما تسترجع رشدها ثم قالت : « ان حفيدتي هذه ولدت بعد خروجك ولما نكب أبوها كانت لا تزال صغيرة واتفق أنها كانت قد خرجت ذلك اليوم مع إحدى الجوارى الى بعض ضياعنا في ضواحي بغداد ، فلما صادر الرشيد ضياعنا فرت بها جاريتها الى قرية بعيدة عن أعين الرقباء وظلت هناك حتى علمت بأمرها فاحتضنتها وخرجت بها هائمة على وجهي بعيدا عن بغداد ، وأقمنا بالمداخن عند جماعة لا يعرفوننا وانما آوونا اكراما لوجه الله فقضيت هناك عدة أعوام في مأمن من وشاية الواشين . وسخر لنا الله رجلا لا نعرفه فكان أحسن علينا من الوالد وأشفق من الأخ ، وكان يقيم ببيت مجاور لمنزلنا في المداخن . وهو غريب لا نعرف أصله ولا فصله ولكن العناية ساقته الينا من حيث لا ندرى فكان يتردد علينا بنظر حوائجنا ويأتينا بما نحتاج اليه عفوا لا يلتبس على ذلك أجرا ولا شكورا . وقضى هذه الأعوام في أعالتنا ونحن لا نعرف من هو فخیل اليانا انه رسول من السماء بعثه الله رحمة منه بنا »

وكانت دنانير في أثناء الحديث ترمي ببصرها الى الفتاة اعجابا بجمالها ، فلما بلغت جدتها الى ذكر ذلك للرجل تشاغلته الفتاة باصلاح خمارها لتخفي ما كاد يبدو في محياها من الاحمرار . ولو انتبهت دنانير الى تورد وجنتيها لأدركت ما تكنه جوارحها وتحاول اخفائه ، ولكنها كانت في شغل عنها بغرابة الحديث

فلما بلغت في حديثها الى ذكر ذلك الغريب غلب الاعجاب به على دنانير فقالت : « ان الدنيا لا تخلو من المحسنين ، وقد سمعنا عن مثل هذه الشبائل

في البرامكة ولم نعهد مثلها في سواهم . ألم تعرفي من هو ذلك المحسن ؟
قالت : « لم نعرف من هو ، ولكن يظهر أنه فارسي الأصل وقد جاء المدائن
منذ بضعة أعوام . وهو يتكتم أمره فاذا دخل أغلق بابه وقضى يوماً أو بضعة
أيام لا يراه أحد ، حتى كثرت أحاديث الناس بشأنه . فمن قائل انه يشتغل
بالكيمياء ، وقائل انه ساحر ، وزعم آخرون انه من كبار أهل الثروة وقد
جمع ثروته من كنز عشر عليه في منزله لأنه يقيم ببيت مبني على أنقاض ايوان
سابور الذي كان الخليفة المنصور يقيم به قبل بناء بغداد »

فقالت دنانير : « وما اسمه ؟ »

قالت : « يسمونه بهزاد الجند يسابوري »

فتذكرت زينب طبيبهم الخراساني لأنها تظنه يقيم بالمدائن فقالت : « لعل
طبيبنا يعرفه لأنه يتردد على المدائن فاذا أتى الليلة سألناه عنه »

فقالت : « ما أظن أحداً يعرفه ، ومهما يكن من أمره فانه جدير بكل ثناء ،
فعسى الله أن يقدرننا على مكافأته . ولكن الأقدار لا تصفو لأحد ، أو لعلها
عملت على مطاردتنا منذ أفل نجمنا ، فهي لا تدعنا نتنسم الراحة حتى تخلق
لنا بلاء جديداً »

فقالت دنانير : « وكيف ذلك ؟ »

قالت : « ما كدنا نظن الناس نسونا وأغفلوا أمرنا حتى رأيناهم عادوا
إلى النكاية بنا »

قالت دنانير : « ومن هؤلاء الذين أرادوا النكاية بكم ؟ »



فالتفتت عبادة إلى حفيدتها ثم حولت وجهها عنها ، فاحمر وجه الفتاة .
وأدركت دنانير أن الحديث يتعلق بها ، وظننت أن أم جعفر تتحاشى التصريح
بذلك أمامها ، فأحبت أن تشغل الفتاة بشيء يصرف انتباهها عن الحديث
فقالت لها : « اظننا أبطاناً عليكما بالعشاء فهل تأمر مولاتي بأن تتناول
الطعام ؟ »

فهمت عبادة غرضها من هذه الدعوة فقالت : « اني لا أشعر بالجوع الآن
ولكن أظن أن ميمونة في حاجة إلى الطعام الآن »

فلم يفت الفتاة الغرض من ذلك وسكتت . فنهضت دنانير وهي تقول
لمولاتها أم حبيبة : « هلمي يا مولاتي إلى المائدة مع هذه الضيفة الكريمة »
فأطاعتها كعادتها وخرجت الفتاتان للطعام وقد استأنست ميمونة ببنت
المامون وأحبتها لجمالها وذكائها . وكفى بالاحسان باعثاً على المحبة فقد قيل :
« أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم »

أما دنانير فرافقت الفتاتين الى حيث أمرت الخدم بأعداد الطعام وعادت الى عبادة وقد اشتد شوقها لسماع الحديث

وكانت عبادة جالسة مطرقة ، فدخلت دنانير وأغلقت باب القاعة وراها وجلست الى أم جعفر تهش لها وترحب بها وقد سرها أن تواسيها وتخدمها قياما بما تشعر به من فضلها عليها . فضلا عما تبعث عليه حالها من الشفقة لما أصابها من الذل بعد ذلك العز . والاقرار بالاحسان فرض يسر أهل الفضل أن يأتوه وأن يكرموا صاحبها الا طائفة من الناس ساءت سريرتهم وسفلت طباعهم وصغرت نفوسهم ، فهؤلاء ينكرون فضل الفضلاء وقد تحملهم الكبرياء على ايقاع الأذى بالمحسنين اليهم ، ولاسيما الذين ولدوا في الفاقة وخفض العيش ثم ساعدتهم الأقدار على الارتقاء فان أنفسهم الامارة بالسوء ربما سئولت لهم قتل من يحسن اليهم . أما دنانير فكانت كبيرة النفس صافية السريرة ، فسرها أن تخدم مولاتها اعترافا بفضلها . فلما خلت اليها تنهدت عبادة تنهدا عميقا ، ونظرت الى دنانير والدمع يتلأل في عينيها وقالت : « آه يا دنانير ! ان النظر اليك يذكرني أيام عزى ، واني لا شكرك على ما لقيته من مواساتك وتلطفك في حين أن أقرب الناس الينا نسونا أو تناسونا . ولكن مالنا وذاك . ان الأمر الذي جاء بى اليكم الليلة لجد خطير . . »

فقطعت دنانير كلامها ووضعت يدها على كتفيها وهي تنظر اليها مبتسمة وتقول : « قولى ما عندك يا سيدتى ، انك صاحبة الأمر وعلينا الطاعة »

فتنهدت وقالت : « أنت طبعا تعرفين الفضل بن الربيع »

فلما سمعت دنانير الاسم أدركت عظم الأمر لعلمها أن هذا الوزير هو الذى عظم ذنب جعفر لدى الرشيد حتى قتله وتولى هو الوزارة مكانه فقالت : « نعم يا سيدتى أعرفه فما خطبه بعد الذى أتاه ؟ »

قالت : « ليس الخطب خطبه الآن وانما نشكو من ابنه ! »

قالت : « وماذا صنع ابنه ؟ »

قالت : « لا أدري كيف بلغه خبر ميمونة ولا أعلم أين رآها حتى فتن بجمالها أو لعله لم يفتن بها وانما أراد النكاية بنا ، فبعث الى منذ بضعة أسابيع قهرمانة دار أبيه يوسطها فى خطبة ميمونة لنفسه ، وقد تلطفت القهرمانة فى الطلب ووعدتنا خيرا . فمأطلته لاني أخاف اذا رفضت طلبه بتاتا أن يؤذينا ، فلم يرجع عن طلبه وبالحق فى المحاسنة وكرر الوعد بما ينويه لنا من الخير اكراما لميمونة لانه مفتون بها . وقد أكدت لنا القهرمانة انه يحب الفتاة حبا مبرحا ، وأنه لا يريد لنا الا السعادة اذا أجبتة الى بغيته . فاعتذرت من الاجابة أعذارا مختلفة ، وتقدمت اليها أن تساعدنى فى دفعه فوعدتنى وظلت أياما لم ترجع اليها . فظننتها أفلحت واطمان قلبى ، فلما

كان مساء الـأمس جاءتنى بنبا ذهب بصوابى وقطع حبل رجائى ! ، قالت ذلك وشرقت بدموعها فسكتت واشتغلت بمسح عينيها

وكانت دنانير تسمع حديثها وهى تتناول نحوها بعنقها فلما رأتها تبكى قالت : « خفى عنك يا سيدتى . وماذا جرى بعد ذلك ؟ »

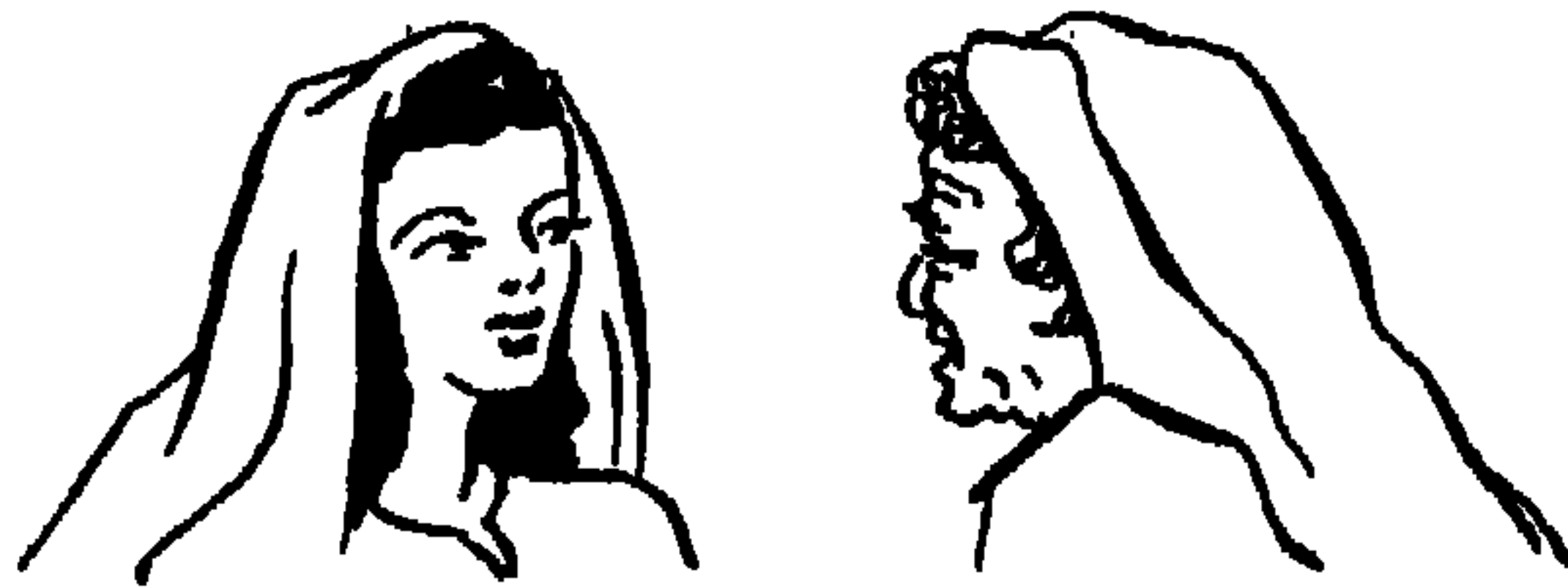
قالت : « جاءت القهرمانه هذه المرة تهددنى بالسوء اذا لم أجب طلب ابن الفضل ، وذكرت لى أنه أوصل أمرى الى على بن ماهان صاحب الشرطة ووسطه فى الخطبة ، وان عليا هذا يلح على فى اجابة الطلب على أن يضمن لى ما أريده من الخير ، فاذا لم أفعل كانت العاقبة وخيمة على وعلى ميمونة . فوعدت القهرمانه بأن أنظر فى طلبها وأجيبها . وأنت تعلمين موقفنا من هؤلاء ولاسيما الفضل بن الربيع الذى كان سبب قتل ابنى فكيف أزواج ابنة ابنى من ابنه وأنا لا أطيق سماع اسمه ؟ » قالت ذلك وأطلقت لدموعها العنان ، فتفطر لها قلب دنانير وأدركت عظم ما يتهدد أم جعفر وحفيدتها ، لعلمها ان هؤلاء القوم اذا قالوا فعلوا . فأطرقت وأعملت فكرتها حيناً ثم قالت : « لا أنكر على مولاتى ما قالت من كرهها لذلك الرجل وابنه ولكن » . ورفعت كتفيها وقلبت شفتيها وسكتت

فقلت عبادة : « لا أستطيع قبول زواج ابن الفضل بابنة جعفر . وهبى انى قبلت فهل تظنين ميمونة تقبل وهى تعرف أن الفضل بن الربيع أصل بلائنا ومصدر مصائبنا ؟ . كلا هذا لا يكون »

فقلت دنانير : « اذا كنت مصرة على الرفض فأنا طوع ارادتك ، وهذا القصر وأهله فى خدمتك ، فاذا شئت الاقامة به أقمت على الرحب والسعة . ولا أظن أحدا يجسر على اخراجك منه . وقد أفرحنى ما آنسته من ارتياح مولاتى زينب اليك ، وأنت تعلمين نفوذها عند أمير المؤمنين الرشيد فمتى عاد وسطناها لديه وهو لا يرد لها طلبا ، فانعمى بالآ »

فتنهدت عبادة وسكتت هنيهة ثم قالت : « أخشى يا دنانير أن يكون فى اقامتنا هنا بأس على أهل هذا القصر ، لأن النحاس ملازم لنا ، فلا أحب أن يلحقكم شيء منه »

فتأثرت دنانير من قولها وأخذت تخفف عنها



دنانير وام جعفر

سمعت دنانير وقع خطوات مسرعة في الدهليز فنهضت الى الباب وفتحتة فرأت أحد الغلمان واقفا بالباب يقول : « جاء الطبيب يا سيدتى »

فأبرقت أسرتها ولم تتمالك أن قالت : « الطبيب جاء ؟ لقد أبطأ ، دعه يدخل » . قالت ذلك ورجعت الى عبادة وهي تبتسم وتقول : « جاء طبيبنا الحراسانى الذى ذكرت لك أنه يتردد على المدائن ، فعسى أن ينفعنا فى معرفة صاحبكم الذى ذكرت أنه واساكم هناك »

فرحنت عبادة بالبشرى ، ولبثت تنتظر مجيء القادم بفارغ الصبر ولم تمض دقائق قليلة حتى سمعتا حركة ووقع أقدام ، فرجعت دنانير الى الباب لتستقبل القادم . فلما رآته مقبلا قالت : « لقد أبطأت علينا أيها الطبيب هذه المرة ، جعل الله المانع خيرا »

وكانت عينا عبادة على الباب وقد أصلحت خمارها ، فسمعت الطبيب يقول : « لقد أبطأت عليكم لعذر قاهر فهل أنتم فى حاجة الى ؟ » . قال ذلك وفى كلامه عجمة ، فلما سمعت عبادة صوته خفق قلبها لأنها عرفت فيه صوت جارهم بهزاد . ثم دخل الطبيب ، فلما وقعت عيناها عليه تحققت أنه هو بعينه صاحبهم فقالت : « هذا بهزاد ! » . أما هو فحالما رآها خلع نعاله وأسرع نحوها فصافحها وتلطف فى السلام عليها وقال : « أنت هنا يا خالة ؟ »

فقالت : « نعم يا سيدى ، وقد جئت لزيارة دنانير » . فبغتت دنانير لذلك الاتفاق وقالت : « اذن بهزاد صاحبكم هو طبيبنا ؟ ما أجل هذا الاتفاق . تفضل يا سيدى » . وأشارت الى كرسى فمشى بهزاد بقدم ثابت وخطى واسعة حتى جلس عليه وكان طويل القامة عريض ما بين المنكبين كبير الجمجمة واسع الجبهة أبيض الوجه أسود العينين غائرهما ، مع حدة وذكاء ، خفيف اللحية صغير الشاربين . وكان فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وقد تزمّل بعباءة سوداء ، وعلى رأسه قلنسوة قصيرة ليس حولها عمامة . وكان لطوله وعرض منكبيه اذا مشى تقلع كأنه ينحط من صبيب ، واذا أقبل عليك حسبته من الجبابة الذين يتحدثون بعظم هاماتهم ، ورأيت فى عينيه رقة ونفوذا يدلان على قوة الارادة وصدق الطوية . وكان لا يرى الا مقطبيا والاهتمام باد فى محياه ، فى غير جفاء أو خشونة . ويندر أن يضحك ، كما

أنه قليل الكلام كثير التفكير ، يستأنس به حليسه ولكنه يهابه ويشعر بقوة سلطانه عليه

فلما جلس ابتدرته دنائير قائلة : « لقد كنا نتحدث عنك ساعة الغروب ثم ذكرناك في عرض حديث جرى لي مع سيدتي أم جعفر ، وأنا أحسبك غير بهزاد الذي ذكرته لي ، لأنني لا أعرفك بهذا الاسم . فأحمد الله على أنك أنت صاحب الجميل عليها ! »

ولاحت من دنائير التفاتة الى أم جعفر فرأتها تشير اليها برفع حاجبيها والعض على شفتها ألا تفعل كأنها تنهاها عن التصريح باسمها . فأدركت دنائير غرضها . أما بهزاد فانه تجاهل مرادها وقال : « ان أهل المدائن لا يعرفونني الا بهذا الاسم ، لأنهم رأوني فارسي السحنة ، فسموني بهزاد . وأما اسمي فهو عبد الله » . ثم حول نظره الى أم جعفر بانعطاف واحترام وقال : « لا جميل لي يا خالة في شيء فعلته ، ولا أعرف أنني أتيت شيئا يستحق الثناء » . ثم التفت الى دنائير وقال : « كيف مولاتنا أم حبيبة عسى أن تكون في خير وعافية ؟ »

قالت : « هي بخير ، وتتناول العشاء مع ضيفة لها في غرفة المائدة . وقد كنت عازمة على الذهاب بها الى الفراش كالعادة »

فأظهر انه لم ينتبه لعزمها وقال وهو يخفي ما يخالج ضميره من الاهتمام ويتشاغل باصلاح بند سيفه في منطقته : « هل أتى غلامى سلمان ؟ »

قالت : « كلا يا سيدي لم أعلم أنه جاء . وهل أنت على موعد معه هنا ؟ » قال : « نعم ، كنت أتوقع أن يأتي نحو الغروب ، وشغلت عن المجيء اليكم حتى الآن وأنا أحسبه في انتظاري هنا » . قال ذلك وهم بالنهوض وهو ينظر الى الباب كأنه يريد الخروج ، فقالت دنائير : « هل تحتاج الى شيء يا مولاي ؟ »

قال : « كلا ولكنني أحب أن أتحقق بجيء سلمان الى القصر ، فقد يكون أتى ودخل بعض غرف الغلمان »

فمشت دنائير وهي تقول : « أنا أذهب للبحث عنه تفضل واجلس » ونهمت بالخروج

لكنها لم تدرك الباب حتى سمعت جلبة وقهقهة في الدهليز فعرفت أن زينب قادمة وهي تقهقه لأمر أضحكها . فضحكت دنائير سرورا بها وأطلت على الدهليز وهي تقول : « مولاتي ! أنت هنا ؟ ألم تذهبي الى فراشك بعد ؟ »

ولم تتم كلامها حتى كانت زينب قد لحقت بميمونة فأمسكت بثوبها وراحت تشدها نحو الباب تداعبها وميمونة تطاوعها ارضاها لها واستئناسا بها . فابتدرتها دنائير قائلة : « ما الذي أضحكك يا حبيبتي ؟ »

فصاحت الفتاة وهي تلتفت وراءها التفات مذعور مطمئن قائلة : « أضحكنى غلام الطبيب تعالى انظريه » . وأشارت بأصبعها الى الدهليز . فخرجت دنائير فرأت رجلا فى لباس وقيافة لا عهد لسلمان بهما ، ثم عرفت أنه هو بعينه ، ولكنه قد اتخذ لنفسه عمامة كبيرة ، ولحية طويلة قد دب فيها الشيب ، وعليه جبة مثل جبة أحبار اليهود . فلم تتمالك عن الضحك وقالت له : « ويلك ماذا أصابك ؟ »

فانزوى سلمان فى بعض منعطفات الدهليز ، حيث اختفى لحظة ثم ظهر وقد عاد الى هيئته العادية ، بقبائه وسراويله وطاقيته . وعادت لحيته صغيرة لا شيب فيها ، فزادها تغيره استغرابا وذهبت الى القاعة لتروى للطبيب ما شاهدته وتبشره بقدوم غلامه ، فرأته قد خرج ليراه لأنه سمع ما دار بشأنه . ولكنه لم يكده يدرك السبب حتى رأى زينب داخلة تجر ميمونة وراءها وتضحك ولا تعلم ان الطبيب هناك . فلما وقع نظرها عليه تهيبت واستحييت وأطرقت وأسرعت للاستتار وراء ميمونة

فلما رأى الطبيب استحياءها تبسم واقترب منها وقال : « كيف حالك يا أم حبيبة ؟ » . ومد يده ليتناول يدها فازدادت حياء وتراجعت حتى اختفت وراء ميمونة . أما هذه فلما وقع نظرها على الطبيب بغتت وصبح الحياء وجهها لسبب غير السبب الذى أخجل زينب ، وتلعثم لسانها واصطكت ركبتيها وتحيرت بين الاطراق خجلا وبين أن تحيى ولى نعمتها والمحسن اليها . أما هو فلما رأى دهشتها وارتباكها تجاهل وحيائها وتحول الى زينب يتلطف فى تشجيعها لترد عليه السلام

ولحظت أم جعفر ارتباك حفيدتها فحسبته من لقائها بهزاد على غير انتظار ، فانها لم تكن تعلم ما يضر قلبها ولم يتفق أن لحظت منها شيئا يدل على أن شعور قلبها نحو بهزاد يجاوز الشعور بفضله عليهما . فنهضت واقتربت من ميمونة وقالت : « هذا مولانا وصاحب الفضل علينا ، ما بالك لا تسلمين عليه يالمياء »

فلما سمعتها دنائير تسمى حفيدتها لمياء ، أدركت أنها تريد اخفاء حقيقة حالهما على الطبيب . أما ميمونة فلما سمعت جدتها تدعوها الى السلام على الطبيب تجلست ومدت يدها ، فتناولها وشعر بارتعاشها وبرودتها ، ولم تخف عليه حالها ولكنه ظل على تجاهله وابتسم لها كعادته ابتسام تلطف واکرام وقال : « وأنت هنا يا لمياء أيضا ؟ » . وعاد الى مداعبة زينب

فأطرقت ميمونة وقد توردت وجنتاها . ولو رفعت بصرها لرأى بريق عينيها وشعر بما ترميه من حاجبيها من السهام . ولكنه تغافل وحول نظره الى دنائير ، فرآها تراقب حركات الفتاة ولم يفتها ما كان يتجلى فى وجهها من دلائل الحياء وأدركت بفراسبتها وتمرسها بالحياة أن هناك شيئا وراء

ذلك . واستغربت ما أبداه الطبيب من الفتور كأنه خالى الذهن مما يجول
فى خاطرها . فتحيرت وتمنت لو تمكنها الفرصة من تحقيق ظنها . فما لبثت
أن سمعت الطبيب يقول : « أين سلمان ؟ سمعتم تتحدثون عنه »

فأشارت دنانير الى الدهليز وقالت : « انه هنا . هل أدعوه اليك ؟ »
قال : « بل أنا ذاهب اليه » . وصاح : « سلمان ! » . وخرج من القاعة
وترك أهلها على ما ذكرناه من الاضطراب والارتباك . فأجابه الغلام : « لبيك
يا مولاي ، أنت هنا ؟ »

فقال وهو يحتذى نعاله ويهم بالمسير نحوه : « قد استبطأتك وقلقت
لغيابك » . ومشى نحوه وقال لدنانير : « سأعود اليكم بعد قليل » . فعلمت
أنه ذاهب الى المنزل الذى اعتاد الإقامة به أو المبيت فيه اذا جاء القصر
المأمونى ، وهو من جملة أبنية ذلك القصر الكبير . فظل ماشيا وسلمان يتقدم
نحوه حتى التقيا وخرجا من الدهليز الى البستان ومنه الى ذلك المنزل



كان الطبيب يمشى مطرقا ويسلمان يسير فى أثره مهرولا ولكنه رغم
هرولته وطوله لا يستطيع اللحاق به وهو يمشى الهوينى لسعة خطواته .
فلما وصلا الى المنزل تقدم سلمان وفتح له ، ثم خلعا حذاءيهما ودخلا ، وهم
سلمان بسراج على مسرجة فأشعله وأغلق الباب وراءه ، ووقف حتى جلس
الطبيب على وسادة فى صدر الغرفة فوق البساط وأمره بالجلوس بين يديه
فجلس منتظرا أمره ، فلما استتب بهما الجلوس قال الطبيب : « ما وراءك
يا ملفان سعدون ؟ »

فقال : « وأنت أيضا تدعونى ملفانا ؟ » . وضحك

فقال : « انك تبقى ملفانا حتى تنتهى مهمتنا من هذه الديار ونبلى غايتنا .
قل ما وراءك ؟ »

قال : « جئت بك خبر مهم لم يطلع عليه أحد فى هذه المدينة ، ولو عرفه
أهلها لقاموا وقعدوا وتغيرت أحوالهم ، فضحك قوم وبكى آخرون »
فتنحج الطبيب ونظر الى سلمان بعينين حادتين كأنه يخترق أحشاءه
ويستطلع خفايا قلبه وقال : « هل عندك غير خبر موت الرشيد ؟ »

فأجفل وقال : « وهل عرفت ذلك ؟ يا لله ! كيف عرفته وقد جاء الساعة
ولم يعلم به أحد الا صاحب البريد . ولو لم أشاهد اللوح النحاسى الذى
يحملة سعاة البريد معلقا بالشرابة على صدره لما صدقته . فكيف عرفته ؟ »

قال : « عرفته ولم أر اللوح النحاسى ولا تحققت صدق الساعى . ان الرشيد
مات يا سلمان فهل عرفت خبرا غير هذا ؟ »

قال : « وهل هناك ما هو أهم من هذا الخبر ؟ » لقد أذهبت سعيي عبثا
وكنت أحسبني جثتك بخبر تغبطني عليه وأنا انما عرفتة اتفاقا وقد كلفني
سبيكة من الذهب ! . انى لا أزال قليل النفع لك »

قال الطبيب : « بل أنت كثير النفع لا يستغنى عن ذكائك ونشاطك
ويكفيانا أنك تكشف لنا عن أغراض العامة وأقوالهم والعيارين ومقارفتهم »
فقال : « ليس هذا مما يؤبه له . وأظنك عالما بالغيب فقل ما عندك مما
يفوق موت الرشيد خطرا »

قال : « أخطر منه ما أتاه أصحابه ، فقد خلعوا المأمون ونكثوا البيعة له
بعد أخيه . وسترى عاقبة ذلك عليهم »

فدهش سلمان وقال : « نكثوا ببيعة المأمون ؟ يا لهم من قوم خائنين ! .
لكن من فعل هذا ؟ أو أشار به »

قال : « الفضل بن الربيع »

فقال سلمان وقد ذعر : « الفضل وزير الرشيد الذى سافر معه فى حملته
الآخرة ؟ »

قال : « نعم هو بعينه . ان هذا الرجل أقدم على أمر سيودى بهذه الدولة
كما فعل بقتسل الوزير المظلوم ، وكل من الفعلين يسقط دولة فكيف اذا
اجتمعا ؟ » قال ذلك وقد بدا الغضب فى عينيه

فتهيب سلمان من غضبه وقال : « وكيف كان ذلك يا سيدى ؟ »

قال الطبيب : « لما سافر الرشيد فى هذه الحملة اصطحب ابنه المأمون
وأخذ له البيعة من جميع من فى معسكره من القواد والأمرأ ومن اليهم ،
وأقر له بجميع ما معه من الأموال وغيرها . وكان ذلك بسعى الفضل بن
سهل صاحب الهمة الشفاء »

قال : « نعم يا مولاي ان الفضل بن سهل لجدير بهذا الوصف . ثم ماذا ؟ »

فقال : « وسار المأمون مع أبيه ليقيم بخراسان . ولا يخفى عليك ان
الرشيد بايع بالخلافة بعده لولده الأمين المقيم فى بغداد الآن ، ثم للمأمون
الذى رافقه فى هذا السفر . على أن يتولى خراسان أثناء خلافة الأمين . وكان
الرشيد مريضا يوم سفره ولكنه أخفى مرضه . وقد روى لى الصباح الطبرى
ومكانته من الرشيد ما تعلم — انه ذهب لوداعه يوم خروجه من بغداد ، فقال

الرشيد له : (ما أظنك ترانى يا صباح أبدا) . فلما أعظم قوله وأنكر عليه
ما يخافه ، قال : (ما أظنك تدرى ما أجد فى صحتى) . قال الصباح :

(لا والله) . فعند ذلك مال الرشيد الى ظل شجرة فى الطريق وأمر خواصه
بالابتعاد . فلما خلا الى الصباح كشف عن بطنه فاذا عليه عصا حديد
وقال : (هذه علة أكتمها عن الناس كلهم ، ولكل واحد من ولدى على رقيب ،
فمسرور رقيب المأمون ، وجبرائيل بن بختيشوع رقيب الأمين ، وما منهم

أحمد الا وهو يحصى أنفاسي ويستطيل دهرى . وان أردت أن تعلم ذلك فالساعة أدعو بدابة فيأتوني بدابة عجفاء قطوف لتزيد علتي ، فاكتم على ذلك) . فدعا له الصباح . ثم طلب الرشيد دابة فجاءوا بها كما وصف فنظر الى الصباح وركبها وعاد الصباح من وداعه ولم يكتم ذلك عنى «
فاستغرب سلمان اطلاع مولاة على كل هذا وكيف كتبه عنه الى تلك الساعة ، وأحب أن يعرف خبر الفضل بن الربيع فقال : « وماذا فعل ابن الربيع ؟ »

قال : « سافر الرشيد ومعه الفضل ، فأخذ هذا يرأسل الأمين مخبرا اياه بكل ما يحدث . فلما كتب اليه بأن الرشيد اشتد مرضه ، أعد الأمين كتبا وأمر أن يجعلوها فى قوائم صناديق المطبخ المنقورة بعد تغطيتها بجلود البقر ، ثم عهد الى رجل من خاصته اسمه بكر بن معمر فى ايصالها الى أصحابها ، وقال له : (احذر أن تطلع أمير المؤمنين أو غيره عليها ، بل انتظر حتى تعلم نبأ موته ، ثم ادفع الى كل أنسان كتابه)

« فلما وصل بكر هذا الى مدينة طوس حيث كان الرشيد مريضا ، بلغ الرشيد قدومه فدعا به اليه وسأله : (ما جاء بك ؟) فقال : (بعثنى مولاى الأمين) . فسأله : (هل معك كتاب ؟) فقال : (لا) . فلم يصدقه لعله بتكتمهم وأنهم شسديدو الرغبة فى موته ، فأمر أن يفتشوا ما معه فلم يصيبوا شيئا فلم يقتنع فأمر بضربه لعله يعترف ، فضربوه ضربا مبرحا حتى خاف الموت ، فقال للفضل : (عندي أنباء مهمة فاتركونى لأفضى بها اليكم) . ولكن الرشيد أمر بقتله ، ثم اتفق لحسن حظ بكر أن أغمى على الرشيد فاشتغل الناس به ، وما لبث أن مات فبعث الفضل الى بكر بمن أخبره بموت الرشيد وسأله عن الكتب التى معه من الأمين فدفعها اليه ، وهى كتاب الى أخيه المأمون يأمره بترك الجزع وأخذ البيعة على الناس لهما ، وكان المأمون يومئذ بمرور . وكتاب الى أخيه صالح يأمره بتسيير العسكر . وأن يعمل هو ومن معه برأى الفضل . وكتاب الى الفضل يأمره بالمحافظة على ما معه من الحرم والأموال وغير ذلك . وأقر كل من كان هناك على عمله . فلما قرأوا الكتب تشاوروا مع القواد فيما يفعلون بالعهود التى عليهم للمأمون فى بغداد . فكان من رأى الفضل أن يلحقوا بالأمين وقال : (لا أترك ملكا حاضرا لا آخر ما أدرى ما يكون من أمره) . وأمر الناس بالرحيل الى بغداد . ولن يلبثوا غير أيام حتى يصلوا اليها وقد خلعوا المأمون . وما خلعوه الا لأن أمه فارسية وهم عصبية يزعمون أنهم ينصرون العرب ، وما ينصرون الا مطامعهم ، وسيعلمون ما ينالهم من أخواله . « قال ذلك وقد تعاظم غضبه فازداد سلمان تهيبا من منظره رغم طول صحبته وما ألفه من أحواله ، وظل مطرقا لا يجرؤ على النظر اليه مخافة غضبه . ثم أحب أن يكلمه فرآه يتحفظ

للنهوض ويقول : « لا بأس على ابن أختنا ، فهو فى خراسان بين أخواله ،
وفيهما الفضل بنز سهل »

ونفض بهزاد فنفض سلمان معه وقال : « ما الذى نفعله الآن يا مولاي؟ »
فأطرق وهو يحك جبينه بسبابته وابهامه ثم قال : « لابد من ذهابى لأمر
خطر لى لا يحسن تأجيله »

فقال سلمان : « وهل أذهب معك ؟ »

قال : « كلا ، بل أرى الذهاب وحدى لسبب ستعلمه ! »

فقال وهو يهز رأسه إعجابا واستغرابا : « لقد أدهشتنى بما تكتمه وما
تظهره كأنك تستخدم الجان ! »

قال : « لم أفعل شيئا غريبا » . وأخذ يصلح قلنسوته ويعدل بند سيفه
استعدادا للمسير ، فابتدعه سلمان قائلا : « اذا كنت لا ترى حاجة الى فانى
أذهب لاتمام مهمتى التى بدأتها فى غروب اليوم ، ولولا تعجلى لاطلاء . على
خبر الرشيد لاتممتها قبل مجيئى ولو علمت أنك تعلم الغيب . و . . »

فقطع بهزاد كلامه قائلا : « لا دخل للغيب فيما تراه ، وستعلم انه طبيعى .
ولكننى تعودت ألا أقول شيئا قبل التثبت منه . وانما يقدم على كثرة الكلام
أهل الطيش فيجمعون ويطنطنون ثم لا يأتون غير الكلام ، وعندى ان اذاعة
ما ينويه المرء من الأعمال يذهب بالعزم على اتمامه . وما أجمل ما قيل :
(استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان) . . »

وكان سلمان يصفى الى كلامه فلما فرغ قال : « انها عظة بالغة ، ولذلك
فانى ذاهب الآن لقضاء المهمة التى بدأتها ، ومتى انتهت أطلعك عليها .
وأرجو أن تحسن فى عينيك وألا تكون قد سبقتنى اليها ! »

فقال الطبيب : « اذهب فى حراسة الله ، وسنلتقى هنا غدا . واذا لم آت
فلا تستبطئنى » . قال ذلك وترك سلمان ومشى نحو القاعة التى ترك
القوم فيها



كانت دنائير بعد ذهاب الطبيب قد أدخلت زينب الى الفراش وسألت
ميمونة اذا كانت تريد الرقاد أيضا فأجابت بأنها تؤثر البقاء للاستئناس
بها وبجدهتها ، فأمرت الخدم بأن يعدوا لها ولعبادة طعاما فأكلتا ولا حديث
لهما غير بهزاد وكل منهما تقص على رفيقتها ما تعرفه من غريب أطواره
وأحواله ، ولأسيما عبادة فانها أخذت تطرى شهامته وأنفته وكرم أخلاقه ،
وكيف أن أهل المدائن يعدونه من الأولياء ويستغربون تكتمه . على أن
التكتم زاده رفعة فى أعينهم وزادهم تهيبا منه . لأنك لا تزال تخاف المجهول

حتى تعلمه . وعلى هذا القياس ترى الصمت يرفع منزلة صاحبه وكثرة الكلام تقلل من هيئته ، فاذا جهلت ما في خاطر المرء حسبت ما يكتمه شيئا عظيما فاذا تكلم انكشف لك عن شيء تافه . والعقلاء يزين أقوالهم احتفاظهم بالكلام الى حين الحاجة ، مع تدبير ما يقولون فلا يلقون الكلام على عواهنه

وكانت ميمونة تسمع حديثهما عن بهزاد وقلبها يرقص طربا تشعر به ولا تستطيع التعبير عنه . فقد عرفت هذا الشاب منذ عام وبعض العام ، ورأت منه انعطاف المحسنين وغيره الاقربين فاحترمته وأعجبت به . ثم ألقت رؤيته حيناً بعد آخر فأصبح اذا غاب استبطاته وشعرت بحاجة الى رؤيته ، ولا يطمئن قلبها الا اذا رآته ولو مارا في الطريق . وقد زاد في ارتياحها اليه ما كانت تسمعه من اطراء جدتها له وامتداحها خصاله ، فأصبحت اذا شاهدته أو سمعت صوته يخفق قلبها ، واذا كلمها صعد الدم الى محياها واستولى الحجل عليها . ثم أصبح قلبها يخفق لسماع اسمه ، وصارت تلتذ الحديث عنه ، واذا سمعت أحدا ينتقده أو يقبح أعماله شق عليها قوله وأخذت تدفع عنه بحماسة وغيره

كانت تفعل ذلك وهي لا تعلم أنها تحبه ، ولو سئلت في ذلك لاستغربت السؤال وأنكرته . لا تفعل ذلك نفاقا أو رياء لكنها لم تكن تعلم انها تحبه ، خصوصا أنها لم تكن تسمع منه كلمة تدل على حبه لها . وكان اذا جاء المنزل كلم جدتها ، فاذا عرضت له حياها وهو ينظر الى شيء آخر ، وربما سألها عن حالها سؤالا لا مبالاة فيه أو اكتراث ، فلم يمنعها ذلك من الاسترسال في حبه لأنها لم تفكر في هل تحبه أم لا . ولو فعلت ذلك لاحترست من التورط لأنها لم تكن ترى منه ميلا ولكنها أحبته عفوا ، وهي لا تعرف دلائل الحب

وما زالت على ذلك حتى التقت به تلك الليلة فجأة ثم رآته يلاطف زينب ويداعبها فتحركت الغيرة في قلبها مع علمها أنه فعل ذلك تلطفا ومجاملة ، وأحست كأن سهما أصابها في قلبها . على أنها تراجعت وحاولت أن تقنع نفسها بأن ليس ثمة داع للغيرة فاقتنع عقلها ، وأما قلبها فما زال في اضطراب، وأخذت من تلك الساعة تتساءل عن سبب هذا الشعور فاغتنمت اشغال جدتها ودنانير بالطعام والحديث ، وطفقت تفكر في سبب هذا الشعور وكلما همت بأن تسأل نفسها هل تحبه غلب عليها الحياء وأنكرت ذلك لأنها لا ترى من أعماله ما يجرئها عليه . فتعللت بأنها انما تحبه اقرارا بفضله واحسانه

ثم رأت ذلك لا يغني فتिला لأنها تحس بانعطاف اليه غير انعطافها الى جدتها مثلا وهي أكثر الناس احسانا اليها، فتحققت أنها تحبه لغير الاحسان . ولما تصورت ذلك ولم تر مندوحة عنه انقبضت نفسها لأنها لم تلاحظ منه شيئا من غير هذا القبيل نحوها . وعادت الى ذكرى الماضي فراجعت تاريخ

معرفتها به وما كان يبدو من حركاته وأقواله فلم تر دليلا على ان عنده مثل ما عندها . على انها حملت ذلك منه على رغبته فى التكتم

وهكذا كانت عبادة ودنانير تتناولان الطعام وتتحدثان ، وميمونة غارقة فى هذه الأفكار . وبعد الفراغ من الطعام قالت دنانير : « هل تريدان الذهاب الى الفراش فائنا فى أواسط الليل ؟ »

فكانت عبادة : « أما أنا فلا أشعر بالنعاس ، ولكن ميمونة تنام »

فلما سمعت ميمونة قولها تذكرت أن بهزاد وعد بالأى يبطىء فى العودة ، وشعرت بحيل الى أن تراه قبل الرقاد ، ولاسيما بعد ما ناجت به نفسها من حبه لعلها تؤانس منه اشارة أو تسمع كلمة تستدل منها على ميله اليها . فلما سمعت قول جدتها حدثتها نفسها أن تعصاها ولكنها لم تجرؤ اذ لم تألف مخالفتها فوقعت فى حيرة وارتبكت فى أمرها . ولحظت دنانير ارتباكها وأدركت سببه دون عبادة اذ كانت لا تعلم شيئا عن عواطف حفيدتها فلم تكن تتوقع منها غير النهوض ، ثم سمعت دنانير تقول : « مالنا وللرقاد الآن ؟ » دعى ميمونة معنا فان هذه الليلة عندى من ليالى العمر لشدة فرحى بكما . ثم مدت ذراعيها الى ميمونة وضمتها الى صدرها وقالت : « ولاسيما حبيبتي ميمونة فانها كنز لقيته . فدعيني أتمتع برؤيتها »

فاشرق وجه ميمونة ، ولما ضمتها دنانير وقبلتها أجابتها بقبلات حارة وضحكت من شدة الفرح

فأثنت عبادة على عطف دنانير ومجاملتها . ولم يستتب بهن المقام حتى سمعن وقع أقدام الطبيب ، فخفق قلب ميمونة ولكنها تجلدت . ونهضت دنانير لاستقباله فاذا به لا يزال بلباسه وزاد عليه كوفية اعتم بها وأرخصى أطرافها حول رأسه كأنه على سفر ، فابتدرته دنانير قائلة : « مالى أرى الطبيب يهم بالسفر ؟ »

قال : « لابد من ذهابى الآن لأمر ذى بال ، وكنت أود البقاء عندكم لولا الضرورة ولكننى سأعود فى الغد ان شاء الله »

وكانت عبادة قد وقفت لاستقباله وميمونة بجانبها ، فلما سمعتا قوله تقدمت عبادة حتى التقت به وهو داخل من الباب فقالت : « سر فى حراسة الله يا ولدى ، وأرجو أن تعود سريعا ولا تنسانا »

فتقدم نحو عبادة ومد يده فصافحها باحترام وقال : « حاشى لله أن أنساك » . والتفت الى دنانير وقال : « انى أوصيك بهذه الحالة يا دنانير ، وان كنت لا أرى حاجة الى ذلك لما آنسته من حبك لها »

وكانت ميمونة أثناء ذلك واقفة وركبتاها ترتعدان وقد تولاهما الحجل . وقد أعدت عبارة تقولها فى وداعه فلما رآته نسيته وتلعثم لسانها

أما هو فلما فرغ من وداع عبادة تحول نحو ميمونة ومد يده فقبض على

يدها وأحس برعشتها وبرودتها فضغط عليها ووجه كلامه الى دنانير وقال :
« وهل أوصيك بلمياء ؟ » كان يجب أن أوصي أم حبيبة بها ، على أننى لا أرى
حاجة الى ذلك وقد رأيت من تحابهما مالا حاجة معه الى توصية ، بل يجدر
بى الآن أن أوسط لمياء لدى مولاتنا من أجلى » . ثم وجه خطابه الى ميمونة
وهو يضغط على يدها ضغطا ترافقه رعدة متبادلة وقال : « هل تتوسطين
لى عندها ؟ » ما أسرع تسلطك على قلب مولاتنا حتى استأنست بك كأنها
تعرفك منذ أعوام » . قال ذلك وابتنسم وأبرقت عيناه وكادت تبوحان بما فى
قلبه

وأما هى فلا تسل عن حالها وما كان يتجاذبها من الحجل والامتنان والفرح ،
لما آنست من تلافه وما توسمته فى خلال حديثه من الدلائل على حبه ،
فسكتت وأطرقت ، وهذا أبلغ جواب من فتاة فى مثل هذه الحال ، لكنها لم
تمالك عن الابتسام وبان السرور فى وجهها

أما هو فكانه انتبه الى نفسه وندم على ما فرط منه فأفلت يدها وعاد الى
كتم عواطفه ، فتحول عن ميمونة الى دنانير فحياها وقال : « أستودعكم الله
الى الغد » . وخرج مسرعا

وكانت دنانير قد لحظت ما بدا من اهتمام الطبيب بميمونة ، وسرها ذلك بعد
أن استأمت من فتوره ، للمرة الأولى ، فودعته وعادت الى ضيقتها فقالت :
« ما أكثر ما يهتم له هذا الطبيب ، وما أكثر شواغله فانه لا يلبث أن يكون
جالسا حتى ينهض » . انى لم أفهم سره »

فقطعت عبادة حديثها قائلة : « هذا هو حاله معنا منذ عرفناه ، فمع توالى
احسانه لا أذكر انه جالسنا ساعة أو بعض ساعة ، فلا أراه الا مهتما مقطبا ،
وهذه أول مرة رأيته يبتسم ولم يطل ابتسامه فعاد الى حاله »

أما ميمونة فبعد أن اطمأن قلبها وفرحت بما لمحتته من بهزاد عادت الى
هواجسها عندما أفلت يدها بسرعة وتغير وجهه فجأة ، ثم اشتغلن بالحديث
حتى حان موعد الرقاد فذهبت كل واحدة الى فراشها



كان سسلمان هو الذى تنكر باسم الملفان سعدون واختلط بالعمامة
وصاحب رئيس العيارين خدمة لمولاه بهزاد . وقد ترك الهرش على أن يعود
اليه فى تلك الليلة مهما يطل غيابه ليلقاه فى قاعة العيارين . وكان قد
أسرع الى القصر ليخبر الطبيب بموت الرشيد فلما رآه يعلم ما لم يعلمه هو
من أمر البيعة وما تبعها رأى أن يعود بهذه الأخبار الى الهرش لعله يدهشه
فيفزاد اعتقادا بصدق مندله

فلما ودع مولاه الحكيم أبدل ثيابه وعاد الى العمامة والجببة والسالفين

واللحية ، وأسرع الى بغلته فركبها وسار قاصدا قاعة العيارين . وكان الليل قد انتصف وأغلقت المنازل وطاف الحراس يتنادون فاذا رأوا غريبا أوقفوه . أما سعدون فكان له من لباسه وقيافته شافع حتى بلغ جسر بغداد ولم يكن له بد من المرور عليه الى البر الغربي والحراس قائمون على طرفيه وقاعة العيارين بالحربية وراءه ، فمر على الجسر ولم يعترضه أحد حتى دخل البر الغربي وهو بغداد الأصلية مدينة المنصور وحولها الأرباض القديمة وفيها الطرق الضيقة علقبت المصابيخ في مداخلها ، ووقف الحراس فيها بأسلحتهم ، فأوجس خيفة منهم ، ونادى أحدهم فأسرع اليه فقال له : « سر أمامي الى قاعة العيارين »

فلما سمعه الحارس يتكلم كمن له سلطان ، ورأى لباسه ظنه أحد رجال أهل الذمة المقربين من الخليفة للطبابة أو النجامة أو نحوهما . فمشى بين يديه حتى أقبل على بناء فخم من ناحية الحربية ببابه عياران عليهما المنزر وعمامة من الخوص ، فلما رآيا الملفان على بغلته عرفاه فتقدما اليه وأعاناه على النزول وقالوا له : « ان مولانا الهرش ذهب الى مكان قريب ولا يلبث أن يعود ، وقد أوصانا بأن نرحب بك وندخلك القاعة تنتظره فيها »

فترجل ومشى العياران بين يديه وسلمان يخطو وراءهما بعكازه ، حتى استطرق من الدهليز الى ميدان تطرق منه الى قاعة كبيرة فيها عدة مصابيخ مدلاة من سقفها كالثريا ، وفي أرضها بساط عليه نقوش ووسائد ومقاعد . فدعاه العياران الى الجلوس على مقعد الى اليمين فجلس . وكانت هذه أول مرة دخل فيها قاعة العيارين ، لكنه لم يدهش لما هناك من الأثاث الثمين بل دهش لما رآه معلقا في جدرانها من ضروب الأسلحة وأدوات الحرب من مختلف أنواع السيوف والأقواس والرماح ، ومن المقاليع بين مصنوع من الجلد أو مجدول من الشعر أو من الحرير ، وإلى جانب كل مقلاع مخلاته والمخالي على أنواع . ورأى في بعض جوانب القاعة عصيا طويلة من خشب الشوم وغيره يشب عليها العيارون لقطع الأنهر ، وبجانبها سلالم مصنوعة من الحبال تنتهي من أطرافها بكلايب يرمونها على السطوح اذا أرادوا الوثوب عليها . ويقال لها سلالم التسليك . غير ما رآه من أدوات النفط التي يشعلون بها الحرق المبتلة بالنفط ويرمونها بالمجانيق . ولم ير هناك الا منجنيقا واحدا صغير الحجم لرمى النبال أو النفط وليس مما ترمى به الحجارة الضخمة . هذا الى ما رآه معلقا في صدر القاعة من الدبابيس وهي العصي وفيها المسامير من الحديد، وبعضها مسامير من الفضة أو الذهب . وهذا الدبوس لا يحمله الا الرؤساء ، وبينها دبابيس مصنوعة من الحديد . ورأى على رف هناك أرغفة من الرصاص يرميها العيارون على أعدائهم فتذهب بقوة عظيمة وقد تقتل عدة أشخاص في رمية واحدة . ورأى كثيرا من أدوات القتل والكسر والنقب وضروبا من الحبال وغيرها مما يحتاج اليه العيارون

ابن ماهان صاحب الشرطة

قضى سلمان نصف ساعة ظنّها عدة ساعات لفرط قلقه وهو يراجع ما مر به تلك الليلة من الغرائب . ثم سمع ضوضاء بباب القاعة فعلم أن الهرش قد قدم فتحفز للقائه . وإذا بالهرش قد دخل مسرعا وفي أثره شاب جميل الصورة عليه قباء وسراويل وقلنسوة ، وتد نبت عارضاه وبان عذاره ، يلوح أنه من الرقيق الأبيض ، فوقف الغلام بالباب وأسرع الهرش الى سلمان وكان قد وقف له فحياه وابتدره قائلا : « أبطأت عليك مرغما فان حامد (وأشار الى الغلام) له حاجة عند صاحب الشرطة وأبى الا أن اصطحبه الليلة اليه ، فهل تأتى معنا ؟ »

قال : « انما جئت عملا بإشارتك فقد الححت على بالرجوع . فاذا كنت لا ترى أن اذهب معك رجعت »

فقطع الهرش كلامه قائلا : « بل انا شديد الرغبة في الذهاب برغم اننا في آخر الليل . هيا بنا فان الركائب معدة » . ثم التفت الى الغلام وقال : « نحن ذاهبون مع الملفان سعدون الى صاحب الشرطة ، وسأوصيه بأن يخرطك في سلك الشاكرية فذلك خير لك من أن تكون عيارا »

ففهم سلمان ان الهرش وعد الغلام بادخاله في ذلك السلك ، وتبينه عن قرب فرأى فيه ذكاء وأنفة ، فضلا عن الجمال ولم يستغرب ذلك فقد كان بين الرقيق المجلوب الى بغداد أو المولودين فيها جماعة من أجل خلق الله وأذكاهم ينخرطون في الجندية أو الحراسة أو ينتظمون مع الشاكرية الذين يتولون نقل المراسلات في قصر الخليفة . فخرج الهرش وقد أمسك بيد سلمان احتفاء به ، وفي خاطره أن يسأله عما لديه من الأخبار ولكنه استنكف من التعجيل

فلما خرجا من القاعة ركب سلمان بغلته وامتنطى الهرش فرسه ومشى في ركابيهما عياران . وركب الغلام حمارا وسار في أثرهما وهو يستغرب ما يراه من احتفاء الهرش بذلك الملفان . وكان كل همه أن يوفق الى الالتحاق بالشاكرية عملا بإشارة مولاه فقد ربي في كنفه ولم يكن يعرف وليا سواه . وكان يخلص في طاعته لما كان يلقاه من عطفه عليه وكان الهرش يعامله معاملة الأب لابنه وقد عنى بتعليمه وتشقيقه على غير ما تعود العيارون

ولم يكن منزل صاحب الشرطة بعيدا عن قاعة العيارين ، فما عتصموا ان وصلوا اليه ، فترجلوا بجانب باب كبير غلب النعاس على حارسه فلما سمعا قرقرة اللجم نهضا فرايا الهرش فوسعا ، فدخل الهرش والملفان سعدون الى جانبه يتوكأ على عكازه ، ومشى احد الحراس بين يديهما بالمصباح في رواق مستطيل الى قاعة عليها ستر مسدول . وعلى بابها حاجب خف الى استقبال الهرش مرحبا ، فابتدره قائلا : « هل مولاك هنا ؟ »
قال : « اظنكم على موعد من لقائه لانى لا اعلم انه يسهر الى مثل هذه الساعة »

فلم يجبه الهرش وظل سائرا حتى رفع الستر وأشار الى الملفان سعدون ان يدخل ، واوما الى حامد ان يمكث في الرواق ريثما يستقدمه . اما الحاجب فاعلن قدوم الزائرين بقوله : « ان الهرش داخل يا مولاي »

فدخل سلمان وهو فيما وصفناه من قيافته الملفانية بعد ان نزع حذاءه وترك عكازه بجانب الباب . فرأى ابن ماهان في صدر القاعة على وسادة وبجانبه رجلان مال أحدهما عليه كأنه يقص عليه حديثا مهما . فعرفه سلمان انه سلام صاحب البريد جاء ليسر اليه خبر موت الرشيد ، وكان ابن ماهان يتناول بعنقه لسماعه وقد بدت الدهشة في عينيه

وكان الرجل الآخر شابا في نحو الخامسة والعشرين من عمره ، جميل الطلعة حسن البزة ، وجهه مشرب حمرة ، ويتلأأ في عينيه ماء الشبيبة ، وعليه ثوب ثمين وحول قلنسوته عمامة مزركشة ، وقد تربع وأخفى قدميه تحت سراويل من الخز الثمين . وقد تضرعت القاعة من طيبه . ولم يكن هذا الشاب أقل اصغاء لحديث صاحب البريد من ابن ماهان . فعرف سلمان انه ابن الفضل بن الربيع ولم يكن احد من هؤلاء يعرف الملفان سعدون الا بما سمعوه عنه من الهرش

وكان ابن ماهان شيخا تقدمت به السنون ولكن مطامعه ما زالت في ابائها . وله حلية واسعة يخضبها بالحناء وقد تغضن جبينه واتضحت الشيوخوخة في وجهه . ولكن الكبرياء والغرور ما زالا ظاهرين في جلسته ولفته واسلوب خطابه . وقد زاده كبرا ما اختص به من الدالة على رجال الدولة لسبقه في خدمتها منذ ايام المنصور . فانه لما توفي هذا الخليفة سنة ١٥٨ هـ وأبى عيسى بن موسى ان يبايع لابنه المهدي ، كان ابن ماهان حاضرا فوضع يده على قبضة حسامه وقال له : « والله لتبايعن او لأضربن عنقك » . فبايع فارتفعت منزلة ابن ماهان لدى الخلفاء العباسيين من ذلك الحين . وتولى عرش الخلافة في ايامه أربعة خلفاء آخرهم الرشيد . وكان قد حسد البرامكة ووالى الفضل بن الربيع واتفقا على معاداة الفرس ومن قال بقولهم . ولذا قربه الامين وجعله صاحب شرطته فأصبح همه تأييد سلطانه

وكان شديد القلق على مستقبل الخلافة بعد سفر الرشيد ، وكاشف
الهرش بذلك فأخبره بمقدرة الملفان سعدون على استطلاع الغيب ووعده
بأن يأتيه به في تلك الليلة ، فلبث ابن ماهان في انتظاره على مثل الجمر فجاءه
صاحب البريد اثناء ذلك وأسر اليه نعي الرشيد وجلسا يتباحثان فيما
عساه أن يحدث من التغيير . أما ابن الفضل فكان يتردد على ابن ماهان
ويجالسه بلا كلفة ، فاشترك في سماع الخبر . فلما سمع ابن ماهان الحاجب
ينبئه بقدم الهرش التفت نحو الباب فرآه داخلا وسلمان الى جانبه فرحب
بهما واصطنع ضحكة يتلطف بها كما يفعل بعض المتفطرسين اذا أحب
التظاهر بالتواضع



لم يحفل سلمان (أو الملفان سعدون) بما بدا فظل داخلا وسلم ، ثم
قال الهرش : « هذا الملفان سعدون قد جاء معي »

فابتسم ابن ماهان وهو يمشط لحيته بأنامله ولم يتزحزح من مكانه وقال :
« مرحبا بالملفان العالم المنجم » . وأوما اليهما أن يجلسا ، ثم التفت الى
صاحب البريد وقال : « قد كنت في قلق لاستطلاع الخبر الذي قصصته
على فأحببت أن أستعين على كشفه بعلم هذا المنجم ولم يعد بنا حاجة الى
ذلك الآن » . ثم اعتدل في جلسته وقال : « ولكنى سررت بلاقائه ، لعل
احتاج اليه في فرصة أخرى »

فأدرك الهرش أن صاحب الشرطة يحسب خبر صاحب البريد سرا
عليهما ، فنظر الى الملفان سعدون نظرة فهم مراده منها ، فالتفت الى ابن
ماهان وقال : « أرى صاحب الشرطة في شاغل مع صاحب البريد ومع مولانا
ابن الفضل وأخشى أن تكون قد ثقلنا بمجيئنا »

فضحك والاهتمام باد في عينيه وقال : « لا يستغنى عن المنجمين في مثل
هذه الحال ، لا سيما اذا صدقوا في تنبئهم » . ثم وجه خطابه الى سلمان
وقال : « هل كشف لك شيء يهمني أمره يا ملفان ؟ »
فقال مستخفا : « ربما كان ذلك »

فتدخل الهرش وقال : « ان الخبر الذي تتسارون به كشف لنا منذ
ساعات ! »

فتجاهل ابن ماهان وقال : « أي خبر تعنى ؟ »

فأشار الهرش الى سلمان ففهم مراده فقال : « ليس موت الرشيد جديدا
عندي ، ولا أقنع به وحده ، فلو أنى عملت المنديل هذه الليلة لرأيت . . »
فبغت ابن ماهان ونظر الى صاحب البريد كأنه يستعينه ، فتصدى ابن

الفضل للسؤال وقال : « وهل من خبر غير موت الرشيد ؟ »
قال : « ان الرشيد رحمه الله كان مريضا قبل سفره وكنا كلنا نتوقع موته ، لكن المندل كشف لى امورا اذا وعدتمونى بكتمانها عن مولانا الامين حتى يعرفها من غيرى قلتها لكم » . قال ذلك وهو يرمى الى ان يجعلهم يفشونها . وكذلك يفعل اهل الدهاء اذا احبوا نشر ماثرة لهم فانهم يتظاهرون بكتمانها ويبالغون فى الحذر من نشرها بغية اذاعتها

فلما احس ابن الفضل تكتمه ازداد رغبة فى الاطلاع على ما عنده وقال : « اذا كنت تعرف شيئا جديرا بالاهتمام فان اطلع مولانا الامين عليه يدعو الى رفع مقامك . وماذا عسى ان يكون لديك ؟ »

فقال : « اطلعت على سر يهم ابن الفضل اكثر من غيره » . فزحف ابن الفضل نحوه وقال : « وما ذلك ؟ وكيف يهم ابن الفضل خاصة ؟ » . قال ذلك وهو يظن ان الملفان لا يعرفه

فقال سلمان : « ان الخبر يهم ابن الفضل لانه يمس اباه الوزير ، اى اباك »
فعجب ابن الفضل لمعرفة اياه ، ولكنه شغل عن ذلك برغبته فى الاطلاع على الخبر ، ونظر الى ابن ماهان فالتفت هذا الى الملفان وقال : « ارى دعواك عريضة فقل ما عندك لئرى . فاذا صدقت ضمنا لك التقرب من مولانا »

فقال : « ان التقرب من امير المؤمنين نعمة وما نحن الا عبيده »
فاستغرب قوله : « امير المؤمنين » . فقال : « كيف تدعوه امير المؤمنين وغاية علمنا انه ولى العهد ، فهب ان الرشيد مات فهل تصير الخلافة اليه ؟ »
قال : « بل قد صارت له وحده وقضى الامر ! »

فعلم اذ ذاك انه يعرف شيئا جديدا فقال : « له وحده ؟ وكيف ذلك ؟ »
فاشار باصبعه الى ابن الفضل وقال : « بسعى مولانا الفضل الوزير »
فتطاولت اعناقهم لسماع الخبر ، والهرش على راسهم وابتدره قائلا : « ذلك شيء جديد على فاقصص علينا ما علمت »

فاعتدل فى مجلسه واخذ يقص عليهم ما سمعه من بهزاد وكأنه يقرأ فى صحيفة بين يديه ، والكل صامتون وقلوبهم تخفق دهشة واستغرابا ولاسيما ابن الفضل فانه ازداد افتخارا بما اتاه ابوه للامين ، وكان قد اطلع على مقدمات من قبل فلما سمع النتائج التى رواها سلمان تحقق صدقها . ودهش ولم يتمالك ان دنا منه وربت على كتفه استحسانا واعجابا وقال : « بورك فيك ، انك منجم عجيب ! »

اما ابن ماهان فأمسك عن الاعجاب ، وقال : « هل انت واثق مما تقول ؟ »
فقال : « هذا ما كشفه لى المندل ولم اعهدده يخدعنى من قبل »

فصغر صاحب البريد فى عينى نفسه واحتقر الخبر الذى جاء به فسكت

اما ابن ماهان فالتفت الى الهرش وقال : « اذا صح ما جاءنا به الملفان فان الامر جد خطير ، واني ابشره برياسة المنجمين في دار الخلافة ، فاكنتموا الآن ما سمعتم لنرى ما يكون » . وتناول من تحت وسادته صرة من النقود دفعها الى المنجم وقال : « هذا اجر طريقك وثمان البخور »

فتباعد سلمان ويدها وراء ظهره مستنكرا ، ويد ابن ماهان ممدودة بالصرة ، فالتفت الى الهرش مسنغريا ، فضحك هذا وتناول الصرة واعادها الى مكانها وقال : « ان منجمنا لا يتعاطى هذه الصناعة رغبة في اجر ، وانما يبدل علمه في سبيل صداقتنا »

. فازداد الجميع اعجابا به وقال صاحب الشرطة : « لابأس ، سينال اضعاف هذا بما ارجوه له من التقرب الى الخليفة »

وعند ذلك تحفز سلمان للوقوف وقال : « اعذرونا فقد اطلنا سهركم »

فلم يتمالك ابن ماهان عن النهوض احتراما له ، وقد ذهبت كبرياؤه واحس بافتقاره الى علم الرجل . وذلك شأن الناس مع اهل المعرفة فانهم يبدؤون باحترام الظواهر حتى تظهر المعرفة فتكون العاقبة لها . وقد تجالس رجلا لا تعجبك بزمته فتحتقره ، ثم يتكلم فاذا رايت منه علما انقلب احتقارك احتراما . وربما دخل عليك فلا تأبه له فاذا عرفت فضله خرجت لوداعه وزودته بالثناء والاعجاب . كذلك فعل ابن ماهان بالملفان سعدون فقد استقبله استقبالا فاترا ظنا منه انه جاء يتزلف اليه ، فلما راي علمه وترفعه عن الانعام احترامه ووقف لوداعه وشيعة الى باب المجلس راجيا اليه ان ياتيه في الغد

ولما ودع ابن ماهان الهرش بالغ في الثناء عليه لانه كان وسيط معرفته بالمنجم ، فتذكر الهرش غلامه حامدا وكان لا يزال في انتظاره بالباب فقال : « اني لم افعل ما يستحق الثناء وان نعمتك متوالية علينا ، ثم نادى حامدا وقدمه الى ابن ماهان وقال له : « هذا غلام اُضن به ، واحب ان يكون في رجال الشاكرية في قصر الخليفة ، فرجائي منك ان تدخله في جملتهم »

فتقدم الغلام واكب على يد ابن ماهان فقبلها ووقف متأدبا ، فقال له : « ادخل الآن الى دار الغلمان وفي الغد تكون في جملة الشاكرية » . والتفت الى الهرش وقال : « كن مطمئنا فسيكون على ما تحب » . فأثنى وخرج

اما ابن الفضل فكان اكثرهم اعجابا وارتياحا ، وتوسم في الرجل نفعا فرافقه حتى خرجا من الباب ولم يبق معهما غير الهرش فأسر اليه بأنه يود ان يكلفه امرا لا شأن للخلافة فيه ، والح عليه ان يجيئه في فرصة اخرى

فأشار مطيعا وخرج مع الهرش ، ثم ودعه وركب بغلته وسار ولم يبق من الليل الا القليل

خلافة الأمين

كان أهل بغداد غافلين عما جرى، فأصبحوا في اليوم التالي وإذا بالمنادين يطوفون بالأسواق ينعون الرشيد ويترحمون عليه ويعلنون خلافة الأمين .
واهتم الهاشميون ورجال الدولة بأخذ البيعة على عاداتهم

وبكر سعدون في الصباح التالي (١٩ جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ) إلى دار الشرطة ، فرحب به ابن ماهان وأركبه في حاشيته ليشهد الاحتفال بالبيعة . حتى إذا وصلوا إلى قصر الخلد ترجلوا ودخلوا في جملة الداخلين بين تراحم الأجناد والأعيان . ولما أتوا دار العامة أذن لهم وسعدون فدخلوا وسلمان بجانب ابن ماهان

وحضر البيعة شيوخ بني هاشم الذين كانوا في بغداد ، والقواد وأكابر رجال الدولة ، حتى غصت بهم الدار . وجلس الأمين على سرير الخلافة وكان قد بلغ الثالثة والعشرين من عمره وتخشن عضله واسترسلت لحيته واستطال عارضاه وبانت رجولته . وكان طويل القامة قوى العضل يلقي الأسد فلا يبالي، وكان مع ذلك جميل الصورة أبيض اللون صغير العينين أقنى الأنف سبط الشعر ، وفي وجهه أثر الجدري . وكانوا قد ألبسوه حلة الخلافة فجعلوا العمامة المرصعة على رأسه والبردة على كتفه ، وقد جاء بها رجاء الخادم من عند أخيه صالح من طوس . وجاءه أيضا بقضيب الخلافة والخاتم فتختم بالخاتم ، وحمل القضيب بيده فازداد جلالا وجمالا والناس جلوس بين يديه : بنو هاشم على الكراسي ، وسائر الناس على الوسائد أو على البساط وبعضهم وقوف . والكل منصتون مطرقون حزنا على الرشيد واجلالا للأمين

وكان أول من تقدم للأمين سلام صاحب البريد ، فانه أقبل فعزاه في أبيه وهناه بالخلافة ، ثم تقدم بنو هاشم فعزوه وبأيعوه ، ووكل سليمان ابن المنصور شيخ بني هاشم بأخذ البيعة من القواد وكبار رجال الدولة وفي جملتهم ابن ماهان وابن الفضل

وكان الملفان واقفا في الجمع لم ينتبه له أحد ، فلما فرغ الناس من المبايعة وقف الأمين فيهم خطيبا فأصفوا وتطاولوا بأعناقهم ، فحمد الله ثم قال : « يا أيها الناس ، يا بني العباس ، ان المنون بمرصد لذوى الأنفاس . حتم من الله لا يدفع حلوله ، ولا ينكر نزوله . فارتجعوا قلوبكم من الحزن على

الماضي ، الى السرور بالساقى ، تحوزوا ثواب الصابرين ، وتعطوا اجر الشاكرين »

ولم يكن الناس يتوقعون هذه الجرأة منه فاستغربوا ذلك، ثم أمر أن يفرق في الجند رزق أربعة وعشرين شهرا ، وكانت قد جرت العادة اذا تولى الخليفة أن ينعم على الجند بأرزاقهم ليكتسب ثقتهم

ولما فرغ من مبايعة الناس تقدم الحسن بن هانىء (أبو نواس) شاعره فهناه بالخلافة وعزاه فى أبيه فقال :

جرت جوار بالسعد والنحس	فنحن فى وحشة وفى أنس
العين تبكى والسن ضاحكة	فنحن فى مأثم وفى عرس
يضحكها القائم الأمين ويبد	سكيا وفاة الرشيد بالأمس
بدران بدر أضحى ببغداد فى ال	خلد وبدر بطوس فى الرمس

وكان ابن الفضل أثناء ذلك لا يشغله شاغل عن الأمر الذى يريد أن يسره الى الملفان سعدون ، فما كاد يفرغ من مشاهدة المبايعة حتى تلفت فرأى الملفان يتأهب للخروج فاعترضه وسأله القدوم معه ، فاعتذر اليه ووعد به بأن يعود اليه فى المساء . وكان عازما على البحث عن مولا بهزاد ليرى ما يكون

فقال له ابن الفضل : « عد إلينا هذا المساء الى منزلنا بالرصافة » فودعه ومضى يلتمس القصر المأمونى



كان أهل القصر قد علموا بموت الرشيد ، فشق نعيه عليهم ولا سيما زينب بنت المأمون ، فلما سمعت الخبر بكث كثيرا . وتوقعت دنائير الانقلاب الذى يخشى حدوثه بعد موت الرشيد لاطلاعها على كثير من دسائس أهل البلاط وان كانت لم تعرف بعد ما عرفه بهزاد من نكت بيعة المأمون . وأصبحت تنتظر خبرا من مولاها لأنه ان كان سيتولى خراسان تنفيذاً للعهد فقد يبعث الى ابنته وسائر أهله بالشخص الى . وشعرت وهى فى اضطرابها بحاجتها الى الطبيب بهزاد تستشيريه أو يساعدها فى التخفيف عن زينب ، فانها على صغر سنها اشتد حزنها على موت جدها وانقبض صدرها ولم تعد تفرح لشيء بعد أن كانت تضحك لأى شيء، فلازمت عرفنها ودناير لا تفارقها . وأمسكت زينب عن الطعام حتى أثر الحزن فى صحتها وأصابها دوار وامتنع لونها وعجزت دنائير عن تعزيتها . ولما شغل بالها على صحتها استأذنتها فى استشارة بعض أطباء القصر فأبت ، ولما أحت عليها قالت : « واين طبيبنا الخراسانى ؟ » . فمكثت تنتظر مجيئه بفارغ الصبر



« فلما فرغ الناس من المبايعه ، وقف الأمين فيهم خطيباً .. »

أما عبادة أم جعفر فسأها موت الرشيد لأنه بمنزلة ولدها ، فضلا عن ذهاب آمالها في وساطة زينب لديه في شأنها . ولكنها فكرت من الجهة الأخرى فيما عساه أن يكون من الانقلاب في أمر الخلافة مما قد يعود عليها بالخير ، على أنها كانت ضعيفة الأمل لعلمها بما يسعى فيه أعداء المأمون وهم أعداء الفرس وأعداؤها طبعاً . ورأت حتماً عليها أن تساعد دنانير في التخفيف عن زينب فإذا خلت بها تباحثتا فيما سيكون

وأما ميمونة فقد شغلت عن ذلك كله بما هاج في قلبها من الشوق إلى حبيبها . والحب يشغل صاحبه عما حوله من الشؤون ، فإذا غاب حبيبها طارت نفسه شعاعاً وأصبح همه في أن يعود إليه ، لا شيء ينسيه شوقه أو يعزيه على وجده . وإذا اشتغل بشيء فإلى أجل ، وإذا اجتمع بالحبيب قام بينه وبين الحوادث سد منيع فيصبح أصم إلا عن سماع حديثه ، وأبكم إلا في جوابه ، وأعمى إلا عن رؤيته . وقد يسمع أو يرى ولكن كالسامع من وراء جدار أو الناظر في ديجور الظلام ، وإذا وقعت حوله الطوارئ فأنما يهمه منها ما يقربه من الحبيب أو يبعده عنه . فلم يكن موت الرشيد ليهم ميمونة إلا من هذا القبيل ولأنها كانت لا تزال في ريب مما في نفس بهزاد بعد أن ودعها بالأمس وخرج مسرعاً على تلك الصورة ومضى معظم ذلك النهار ولم يرجع ولا جاء خادمه

قضت النهار كله في قلق لا تبالي انهماك أهل القصر في الحزن ، ولا ما أقام بغسداد وأقعدها احتفالاً بالبيعة ، على أنها كانت تلهو بالجلوس إلى زينب وتخفف عنها بما يحضرها من عبارات التعزية وعيناها إلى باب الدار تترقبان بشرى بقدوم بهزاد ، وأذناها مصغيتان لعلها تسمع وقع قدميه . ثم سمعت دنانير تكلم جدتها عنه وتستبطئه وتتمنى قدومه ، فخفق قلبها ولكنها ظلت ساكنة

ومالت الشمس عن خط الهاجرة وهي لم تذق طعاماً وأهل القصر في شاغل عنها بشؤونهم وأحزانهم . وفيما هي في ذلك رأت غلاماً قادماً وفي وجهه خبر فتحفت لملاقاته ثم أمسكت نفسها حياءً لئلا يكون الغلام قادماً إلى دنانير ، فتظاهرت بأنها نهضت لبعض شؤونها وتمشيت على مهل حتى صارت بالباب فرأت الغلام وقف وحيى دنانير وقال لها : « ان سلمان غلام الطبيب بالباب »

فخفق قلب ميمونة وكادت الدهشة تظهر في محياها لسماع اسمه . أما دنانير فقالت للغلام : « يدخل سلمان . وعساه أن يكون مبشراً بقدوم مولاه . فأننا في حاجة إليه اليوم »

وبعد هنيهة أقبل سلمان بلباسه العادي يمشى متثاقلاً متظاهراً بالحزن والانقباض ، وميمونة تراعى حركاته . فلما أطل على القاعة حيى ووقف حتى

يؤذن له . فابتدرته دنانير قائلة : « ما وراءك يا سلمان ؟ » أرأيت ما أصابنا ؟ »
وخنقنها العبرات

فأطرق ودخل حتى دنا من مجلس زينب وانحنى كأنه يريد تقبيل يدها
وأجهش بالبكاء ، ثم التفت الى دنانير مظهرا الكآبة وقال : « ان المصائب
جلل يا مولاتي . ان وفاة أمير المؤمنين ضربة كبيرة . أطال الله بقاء مولاي
الأمون وأنجاله وجعله خير خلف لخير سلف » . وغص بريقه وتراجع حتى
وقف في بعض جوانب الغرفة

فأشارت اليه دنانير أن يقعد وقالت له : « أرأيت طيبينا اليوم ؟ »
قال : « كلا يا سيدتي لم أره منذ افترقنا بالأمس ، وكنت أحسبه رجع
الى هنا »

قالت : « لم يجيء يا سلمان . وكنا نتوقع مجيئه ، وقد مرضت مولاتنا
ولا ترضى طبيبا سواه » . قالت ذلك وفي كلامها غنة العتاب
فقال سلمان : « عذر الغائب معه حتى يحضر ، واعتقد أنه لا يلبث أن
يأتى ولا يغيب الى الغد . . . أو . . . »

فقطعت عبادة كلامه قائلة : « ألا تعلم أين ذهب ؟ »
قال : « كلا ، وهل يعلم أحد بذهابه أو مجيئه ؟ »
فقالت دنانير : « لقد عودنا التخلف عنا يوما أو بضعة أيام ثم يعود إلينا
على غير موعد ولكن »

فقالت عبادة : « أترأه ذهب الى بيته في المدائن ؟ »
فرفع حاجبيه وكتفيه وشخص بعينه كأنه يتنصل من تبعة علمه بمكانه
وكانت ميمونة تسمع ما يدور من الحديث والحياء يمنعها من الدخول فيه ،
ثم غلب عليها حب الاطلاع فقالت وهي تتظاهر بالسذاجة وقلة الاكتراث :
« أظنه الآن في بيته بالمدائن وقد أغلق بابَه ليشغل بالكيمياء أو اخراج
الكنوز كما يقولون » . ومع ما حاولته من التجلد ما لبثت أن توردت
وجنتاها ، ولما وقع نظرها على دنانير رأتها تتفرس في وجهها وتبتسم ،
فازدادت خجلا وأطرقت وتحولت الى وسادة في بعض جوانب الغرفة فقعدت
عليها وتشاغلت باصلاح خمارها

فتجاهل سلمان ذلك كله وقال وهو يوجه كلامه الى عبادة : « ان الناس
يتهمون مولاي بأمور كثيرة هو برى منها ، وما انزواؤه في بيته أحيانا الا
للمطالعة في بعض كتب الطب أو الفلسفة . ولو وثقت بأنه هناك الآن
لذهبت اليه واستقدمته . على أنى ما أظنه يبطن كثيرا . فاذا لم يأت هذه
الليلة أو في صباح الغد عمدنا الى البحث عنه في المدائن أو غيرها »

وكانت دنانير تبالغ في اظهار القلق لغياب بهزاد ارضاء لزينب ومراعاة

لاحساس ميمونة ، لعلمها أن الحياء يمنعها من اظهار ملفها فبات عى عنها
وتكلمت بلسانها ، فلما سمعت قول سلمان قالت « لابد من البحث عنه
الليلة »

فتراجع وأطرق وقال : « ان أمرك مطاع يا سيدنى ، وسأفعل ما نسائين
وربما آتيكم به الليلة أو صباح الغد »

فأثنت دنانير عليه وسكتت وهى تنظر الى ميمونة فرأتها تربو اليها
ودلائل الشكر بادية فى محياها ، فابتسمت وحولت وجهها الى عبادة وقالت :
« ألا ترين ذلك ؟ »

فأجابت على الفور : « بلى . . واذا كان هناك ما يمنع سلمان من البحث
فأنا أذهب للتفتيش عليه فى المدائن ، فاننا نعرف منزله حق المعرفة ومسيرنا
الى هناك سهل . واذا رأيت أن يبحث سلمان فى مكان آخر ونحن نذهب
للبحث عنه فى المدائن فعلنا »

فلما سمعت ميمونة اقتراح جدتها أشرق وجهها ارتياحا لهذا الرأى ،
لأنه عبر عن احساسها ، كأنها نابت عنها فى قول ما لا نستطيع هى
التصريح به

أما سلمان فانما وعد بالبحث عن بهزاد حياء من دنانير ، لأنه كان يرغب
فى الرجوع الى ابن الفضل قياما بوعدة ليغتتم فرصة ذلك الانقلاب عسى أن
ينفعه فيما هو فيه . على أنه كان لا يرى موجبا للقلق لغياب مولاه لعلمه
بكثرة شواغله . فاستأنف الكلام وقال : « ها أنذا ذاهب للبحث عن الطبيب
والاتكال على الله » . وخرج



ميمونة وابن الفضل

خرج سلمان من القصر المأموني بعد أن بدل ثيابه ، وركب بغلته وسار الى قصر الفضل بن الربيع . والقصر يومئذ في الرصافة بالجانب الشرقي من بغداد يشرف على سوق الميدان وكان في الأصل اقطاعا لقطعه الرشيد لعباد ابن الخصيب فصار كله للفضل بن الربيع يقيم به مع أهله ، وهو على مسافة بعيدة من القصر المأموني وان كان كلاهما على الجانب الشرقي من بغداد . فقطع سلمان المخرم حتى دخل طريق الميدان ، وهو يتدبىء من سوق الثلاثاء وينتهى بالشماسية ويعرف هناك بطريق الخضير . وكانت تحمل اليه المصنوعات الصينية وغيرها من الأواني الثمينة وتباع فيه

فلما وصل الى باب القصر عند الغروب ، وجد ابن الفضل في انتظاره وقد أوصى الحرس بأن يدخلوه اليه فلم يمهل الحارس حتى يترجل بل سارع اليه فابتدره قائلا : « الملقان سعدون ؟ » ، فقال : « نعم »

قال : « ان مولانا في انتظارك . . اتبعني »

فترجل سلمان ومشى في طريق الحديقة يضرب الارض بعكازه ويتباطأ في مشيته مطرقا متمتما كأنه يتلو آية او يقرأ تعويذة ، واسرع حارس آخر فسبقهما وأنبأ ابن الفضل بقدومه . فقطعا البستان حتى وصلا الى باب القصر الداخلى فاذا بابن الفضل قد خرج للملاقاة والترحيب به ، وصافحه ومشى بجانبه حتى اتصلا من الدهليز الى قاعة استطرقا منها الى غرفة لا يدخلها غير ابن الفضل وبعض خاصته ، وفيها سرير بجانبه كرسيان ، وفي أرضها بساط ثمين ، وفي إحدى زواياها منارة عليها عدة شموع أناروها فجلس ابن الفضل على السرير ودعا سلمان الى الجلوس على كرسي بجانبه قائلا : « مرحبا بالملقان سعدون »

فجلس سلمان وما زال يتمتم وقد الصق ذراعه بجانبه كأنه يتأبط شيئا يحرس عليه . فلما استقر به الجلوس اخرج من تحت أبطه منديلا من الحرير فيه كتاب هو درج من الرق قديم العهد تخرق من بعض جوانبه وتمهل في حل الصرة واخرج الدرج مبالغة في الحرص عليه ووضعها في حجره فبانت من خلال الخروق كتابة بحرف لا يقرؤه الانس ولا الجان . ثم رفع رأسه كأنه فرغ من القراءة او التعزيم ، ومسح وجهه من جبهته الى الخيثة ، والتفت

الى ابن الفضل واخذ يننى عليه لحسن وفادته فأجابه : « لقد اتيت اهلا ونزلت سهلا » . وبش له يسئأس به استعدادا لما ينوى كشفه له من اسرار فابنسم الملفان وقال : « لقد بالغت في اكرامى ايها الوزير »

فغلب على وهمه ان الملفان انما يدعو وزيراً لما تبين له من علم الغيب في مسنقبله . لكنه تجاهل واحب ان يحقق ظنه فقال : « انك تدعونى وزيراً والوزير ابى »

فقال : « ان ابن الوزير ورير يا سيدى . مر بما تشاء »

قال : « دعوتنى وزيراً وانا ادعوك رئيس المنجمين فى دار امير المؤمنين . فأدرك سلمان انه يعده بهذا المنصب وهو يستطيعه لعظم نفوذ ابيه ورضى الامين عنهما . فأحب ان يشبهه فى وعدد فقال : « بورك فى ابن الفضل فانه يقول ويفعل وانا سامع مطيع »

فأطرق ابن الفضل وأعمل فكرته ثم قال : « دعوتك لأسر اليك امرا انا شديد الحرص على كتمانها وطيد الأمل فى الحصول عليه »

قال : « اما ما يشير اليه مولاي فهو سر عن كل الناس الا على ، فالملفان سعدون لا يقال له ذلك »

فاستغرب ابن الفضل دعواه واحب ان يمنحنه فقال : « وهل تعلم سرى ؟ »

وكان سلمان قد سمع بعض خدام القصر المامونى يذكرون حب ابن الفضل لميمونة . كما سمعه من عبادة عندما كانت تقصه على دنائير . وكان الخدم يومئذ من اكثر الناس اطلاعا على اسرار مواليتهم لأنهم كانوا لا يحذرون النكلم امامهم استخفافا بهم . فقال : « اظننى اعرف سرى الا اذا كنت تعنى غير حبك لتلك الفتاة التى تظن نفسها مجهولة النسب »

فدهش ابن الفضل عندما فاجأه بهذا التصريح وبنات الدهشة فى وجهه ، وسهل عليه ان يكشفه بما يكنه ضميره فقال : « اما وقد علمت سرى فلا اخفى عليك انى احب تلك الفتاة حبا مبرحا . احبها من كل قلبى ، واتعشقها بكل جوارحى ! » . قال ذلك ودلائل الحب ظاهرة فى وجهه ، فأبرقت عيناه واحمر وجهه

فضحك وهز راسه وقال : « ان الحب سلطان . انت تحبها ؟ »

فقال : « نعم احبها فهل تحببى هى ؟ »

قال : « لا ادرى لو كانت معنا الآن لعرفت مكنونات قلبها ، غير ان ذلك يحتاج الى مندل »

قال : « هب انها لا تحببى . بل يظهر لى انها لا تحببى الآن فما الحيلة ؟ . انى انما دعوتك لاستعين بك على ذلك . فما قولك ؟ »

فتناول سلمان الدرج من حجره وفتحہ واخذ يقلبه بين يديه ويتظاهر بأنه يقرأ شيئاً منه ويعيد القراءة ويطرق ثم يرفع بصره الى السقف ويعيده الى الكتاب ثم ينظر الى وجه ابن الفضل ويتفرس فيه . واخيراً اظرق ويده على لحيتہ كأنه يفكر ويأسف ثم قال : « ان حبيبك انتقلت من مكانها »

فاجفل ابن الفضل وقال : « اين كانت واين صارت ؟
قال : « ألم تكن في المدائن ؟ » . قال : « بلى »
قال : « ليست هناك الآن » . قال « واين هي ؟ . اين ذهبت ؟ »
فقال : « انى اعلم انها خرجت من المدائن ، ولا ادرى اين تقيم الآن . ان ذلك يحتاج الى بحث »

قال : « لعلها في الطريق الآن ؟ » . قال ذلك لاعتقاده انها لو كانت في مكان معين لما خفى ذلك على علم الملفان سعدون
فقال سلمان : « ربما كانت في الطريق ، ولكن هذا ليس بأمر ذى بال . هب انها في السماء او في الارض او ما بينهما فهى لا تنجو من يدي »
فأبرقت اسرة الفضل واطمان خاطره وقال : « جزاك الله خيراً . افعل ما بدا لك ولا تبخل بالانفاق على اتمام هذا العمل فانى ابذل ما املكه في سبيل الحصول عليها ، انما اريد ان آخذها بشرع الله . . لانى احبها حباً صادقاً ولا ادرى ما الذى يحملها على مجافاتي »

فابتسم سلمان وقال مستخفاً : « اظنك تدري السبب . ان عداوة الآباء تتصل بالبنين »

فازداد ابن الفضل استغراباً لكشف هذا السر وقال : « صدقت . . ذلك هو السبب ولكنها لو علمت خطر حبي لها وانى سانسيتها ما فعله أبى بأبيها لرضيت »

قال : « علمت ذلك ولم ترض ، ولكن هذا لا يهمنا فانها سترضى . ان هذا القلم يجعل الصخر ماء والماء صخوراً افلا يلين قلب فتاة ؟ » . وأشار الى دواة مغروسة في منطقته

قال : « افعل ما تراه ولا تسئل عما تبدله في هذا السبيل »
فنظر اليه شزراً وقال : « ألم تكن حاضراً بالأمس عند صاحب الشرطة ؟ . انكم لا تزالون تهينون الأصدقاء . ولكنكم تعودتم عشرة المتملقين والمتزلفين فلا لوم عليكم ! »

فابتدره ابن الفضل معتذراً وقال : « عفوا يا سيدى فانى اقبل منك هذا الجميل ، وارجو ان تقبل وساطنى مع صاحب الشرطة في أن تكون رئيس المنجمين عند أمير المؤمنين . واننا اذ نفعل ذلك فانما نؤدي خدمة

عظمى للخليفة لأن وجود مثلك في بلاطه نعمة من نعم الله . فماذا انت فاعل الآن ؟ »

قال : « دعنى ابحث عن مقرها ، وسأكتب لك كتابا اذا استطلعت توصيها على ما سأصف لك اتتك مدعنة مطيعة . »

فلم يتمالك ابن الفصل عن النهوض بغتة وقال : « انا صحيح ما تقول ؟ انى لا أعرف كيف اشكرك . ومتى تكتب هذا الكتاب ؟ »

قال أكتبه متى انتهيت من بحثى . لا تضجر . ولا تستعجل »

قال : « افعل ما يترأى لك الا أمرا واحدا أرجو منك ان تطيعنى فيه »

قال : « وما هو ؟ » . قال : « ان تبني عندي الليلة وتصبحنى غدا الى دار الخلافة فأقدمك الى امير المؤمنين ليجهلك رئيس المنجبين »

قال : « الامر لك ولكننى لا ابني عندي وانما آتيك غدا اذا شئت »

قال : « بل تبني عندي فان القصر واسع تختار منه مخدعا لا يزعجك فيه احد ، وقد أرسلت الى صاحب الشرطة ان يوافينا غدا الى قصر الخلافة في مدينة المنصور . لأن دار الخلافة انتقلت بعد مبايعة الأمين من قصر الخلد الذي نعرفه خارج باب خراسان الى داخل المدينة » . قال ذلك وصفق فدخل غلامه فقال له : « اعد لنا المائدة للعشاء ، وقل لقيم الدار ان يهد لنا مخدعا ليبيت فيه الملقان » . قال ذلك مصمما . فلما رأى تسميمه خاف ان يخالفه فيفسد عليه تدبيره فأطاع وبعد هنيهة نوض للعشاء ، ثم بات ليلته هناك



موكب ابن الفضل

في صباح اليوم التالي ركب ابن الفضل في موكبه وعليه الجبة السوداء التي يقابل بها الخلفاء العباسيين ، وامتطى سلمان بغلته وهو في قيافته المعهودة ، وخرجا من الرصافة غربا نحو الجسر حتى اذا قطعاه جاءا الطريق المؤدى الى قصر الخلد فتجاوزاه الى قصر المنصور المعروف بباب الذهب حيث اقام الامين بعد البيعة

وكانت مدينة المنصور مستديرة الشكل حولها سور ضخمة طوله عشرون الف ذراع وعرض اساسه تسعون ذراعا ، ثم ينحط حتى يصير في اعلاه خمسا وعشرين ذراعا وارتفاعه ستون ذراعا . وهو السور الاعظم ، ويحيط به من الخارج فراغ عرضه مثل عرضه ، وحول الفراغ المذكور سور آخر يقال له الفصيل له أبراج عظام وعليه الشرفات المدورة . وخارج الفصيل وحوله كما يدور مسناة بالآجر والصاروج متقنة محكمة . وخارج المسناة وحولها خندق أجرى فيه الماء ، ووراء الخندق طرق للمارة والباعة ووراءها الارباح وفي داخل السور الاعظم سور آخر اصغر منه ، وبين السورين فراغ فيه ابنية لاهل الأسواق ينتهى الى كل من السورين بطريق مرصف بالحجارة . فسور المدينة ثلاثة اسوار اعظمها اوسطها

وللسور ابواب سميت باسم المدن التي تتجه نحوها وهي : باب خراسان ، وباب الشام ، وباب الكوفة ، وباب البصرة . وكل منها مؤلف من عدة ابواب عليها الابراج ولها الشرفات والكوى . ولكل باب اربعة دهاليز عظام طول كل دهليز ثمانون ذراعا كلها معقودة بالآجر والجص . فاذا دخل احد في الدهليز الذى على الفصيل او السور الخارجى وافى رحبة مفروشة بالصخر ، ثم دهليز السور الاعظم وعليه بابان عظيمان من الحديد لا يغلق الواحد منهما الا جماعة من الرجال ، وهما عظيمتا الارتفاع يدخل الفارس فيهما بالعلم ، والرامي بالرمح الطويل من غير ان يميل العلم او يثنى الرمح ، فاذا مر الراكب من دهليز السور الاعظم سار في رحبة الى طاقات معقودة بالآجر والجص فيها كوى رومية مصنوعة صنعا خاصا بحيث تدخل منها اشعة الشمس او الضوء ولا يدخل منها المطر ، وفيها منازل الغلمان

وفوق كل باب من ابواب السور الاعظم قبة معقودة عظيمة مذهبة حولها

مجالس ومرتفعات يجلس فيها المرء فيشرف على مادونه . ويصعد الى هذه القباب على عقود مبنية بعضها بالجص والآجر وبعضها باللبن ، وقد جعل بعضها اعلى من بعض ، بشكل عجيب رهيب

فأطل ابن الفضل بموكبه على باب خراسان ، وبجانبه الملفان سعدون على بغلته ، فلما رآهما الحرس وسعوا اجلالا لابن الوزير ، فتقدما وهما راكبان والخدم في ركابهما ، فدخلوا من الدهليز الى الفصيل او السور الخارجى . ثم سمعوا قرزقة حوافر الجياد على الرحبة المفروشة بالصخر المؤدية الى دهليز السور الأعظم . وكان البوابون لما علموا بقدوم ابن الفضل قد تعاونوا على فتح احد البابين العظيمين فسمع لفتحته صرير هائل لثقل حديدته وعلوه ، فدخلوا بموكبهما فيه ، حيث بدت العتبة العليا اعلى كثيرا من رؤوس الراكبين . وكان سعدون اثناء ذلك ينظر الى ما وراء تلك الرحبة من الطاقات المعقودة والى شكل كواها الرومية وقد اطل منها الغلمان لمشاهدة الموكب . فلما خرجوا من الباب المذكور الى الرحبة التى بينه وبين الطاقات ، حول سعدون بصره الى القبة العظمى المعقودة فوق الباب وما يغشاها من الزينة المذهبة ويتعلق بها من المجالس والمرتفعات المشرفة على كل ما حولها ، واخذ يتأمل فيما عليها من المصاعد المبنية بالجص بعضها فوق بعض ، وقد امتلأت نفسه اعجابا وعجبا من عظمتها ورهبتها

تجاوز موكب ابن الفضل تلك الطاقات ودخل الى باب آخر غير ابواب السور المذكور ورقوا منه الى الرحبة الكبرى فى منتصف المدينة ، وكان قصر المنصور فى وسط الرحبة ، يسمونه قصر الذهب نسبة الى بابه المذهب ، وبجانب القصر المسجد الجامع المعروف بجامع المنصور . ومشى الموكب فى الرحبة مسافة كبيرة فى خلاء لا بناء فيه حتى اقبل على القصر والجامع وسط الرحبة ، وحولهما فناء ليس به من الابنية غير دار من جهة الشارع المؤدى الى باب الشام يقيم بها الحراس ، وسسقيفتين ممتدتين على عمد مبنية بالآجر والجص ، يجلس فى احدهما صاحب الشرطة وفى الأخرى صاحب الحرس . وكانت حول الرحبة منازل بناها لابناء العم الاصغر ولمن يقربهم من خدمه وعبيده . وابنية لبيت المال ، وخزانة السلاح ، وديوان الرسائل ، وديوان الخراج ، وديوان الخاتم ، وديوان الجند ، وغيرها . وبين الطاقات مسالك ودروب اعدها المنصور لقواده ومواليه

وكان ابن الفضل كلما اقبل على باب وقف له حراسه ، فلما دخل الرحبة الكبرى لفت انتباهه الصهيل والحمهمة والنهيق وغير ذلك من اصوات الدواب ، لأن الرحبة كانت غاصة بالخيول والبغال والحمير فضلا عما ادخل منها الى الاصطبلات ، ومعها العبيد والخدم فى انتظار من جاءوا عليها من الأمراء والقواد لتهنئة الأمين بالخلافة ، او جاءوا لغرض آخر

وكان سعدون (أو سلمان) ينظر الى ذلك ويراقبه ولا يتعد ببغته ابن الفضل ، حتى اذا دنوا من القصر تحول ابن الفضل نحو السقيفة ، يقيم بها صاحب الشرطة لمقابلة ابن ماهان قبل الدخول على الخليفة ، فأرسل بعض من في ركابه من الخدم ليتقدمه بالسؤال عنه في السقيفة فعاد يقول انه في حضرة أمير المؤمنين بعث اليه من بضع دقائق

فلم يتعجب ابن الفضل لذلك ولكنه كان يرجو ان يراه قبل دخوله على الأمين ليتفق معه على تقديم الملفان سعدون اليه . ولكنه لم يربدا من النزول عن جواده ، فنزل ونزل سعدون عن بغته ، ومتسما الى باب القصر فوقف لهما الحراس وهم ينظرون الى الملفان ويستغربون شكله وقيافته ومشيه بعكازه والدواة في منطقتيه ، وما زال يمشى بجانب ابن الفضل حتى بلغا باب القصر الداخلى ، مارين في الباحة بجماعات من القادمين على الخليفة فيهم الأمراء والقواد والشعراء وغيرهم من الوفود

وكان الأمين كريبا جوادا ، يصدق على الجند رغبة في استنصارهم لما يعلمه من حرج مركزه ، ولذلك أعطاهم رزق ٢٤ شهرا يوم مبايعته ففرحوا وفرح معهم أهل بغداد كافة لأن هذه الاموال تنفق في المدينة فيدفع الجند منها ما عليهم ويتاعون ما يحتاجون اليه من الآنية او الطعام او اللباس . فلا غرو اذا سر البغداديون بتبديل الخلفاء بعد أن جرت العادة بأن يأمرؤا بمثل هذا العطاء عند مبايعتهم

وعرف ابن الفضل كثيرون من الواقفين هناك فخف بعضهم لتحيته ، وتزلف اليه آخرون لآته ابن الوزير ، والوزير يومئذ صاحب الحل والعقد . فسأل بعضهم عن سبب وقوفهم هناك فقالوا : « ان الخليفة في شغل مع صاحب الشرطة بعد أن جاءه هذا الرسول » . وأشار الى رجل واقف في بعض جوانب الباحة . فعرف ابن الفضل انه من موالى أبيه ، وكان الرجل قد رأى ابن الفضل مارا فلم يجرؤ على مباداته بالحديث فلما رآه ينظر اليه ويتسمهرول نحوه وقبل يده فقال له : « ما وراءك . . ؟ وما الذى جاء بك ؟ »

قال : « أرسلنى مولاى الوزير برسالة الى أمير المؤمنين »

قال : « واين أبى الآن ؟ »

قال : « قريب من بغداد وقد أرسلنى لأبشر بقدومه »

قال : « وهل جئت بكتاب منه ؟ »

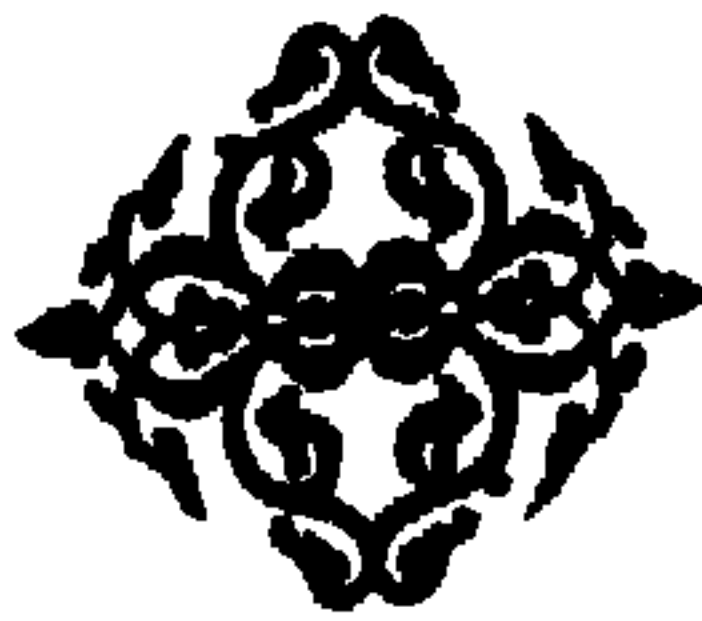
قال : « جئت بكتاب دفعته الى أمير المؤمنين ، ولعله السبب في تأخير الاذن للناس كما ترى ، وانما دخل عليه صاحب الشرطة »

فاشتد ميل ابن الفضل للدخول على الأمين وان لم يؤذن لسواه فيفاخر

أهل البلاط بدالته على صاحب الخلافة ، فظل ماشيا وابن سعدون بجانبه حتى أقبل على باب القصر والحرس الشاكرية وقوف بالأسلحة ، فتأدبوا عند مشاهدته ، ثم خرج الحاجب للملاقاته وتلطف في الترحيب به وفي غنة صوته وملامح وجهه شبه اعتذار عن عدم ادخاله . فأدرك ابن الفضل غرضه فابتدره قائلا : « استأذن أمير المؤمنين في دخولي ودخول رفيقي هذا » . وأشار الى سعدون

فتردد الحاجب حينئذ ولم يجسر على التصريح بأن أمير المؤمنين لا يأذن لأحد ، ثم غلب عليه الخوف فدخل على الأمين وظل ابن الفضل في انتظاره والناس ينظرون اليه ويتوقعون أن يرد طلبه فيفشل ما أراده من التقدم عليهم جميعا . أما هو فكان يتوقع الاذن له ، رعاية لمنزلة أبيه . وبعد هنيهة عاد الحاجب وهو يبتسم وقال : « ادخل اذا شئت »

فدخل الى مكان تخلع فيه الأحذية فخلع حذاءه ، وفعل سلمان مثل فعله ، وتقدم بعض الخدم فتناولوا الحذاءين ووضعوهما على أماكن معدة لذلك . ومشيا على الأبسطة المفروشة في الدهليز ، وتطرقا من قاعة الى قاعة والحاجب يمشي بين يديهما حتى وصلا الى مجلس الأمين ، وكان على بابهم ستر من الديباج المطرز فتقدم الحاجب وأزاح الستر وصاح : « مولاي ابن الفضل ورفيقه بالباب »



الأمين والفضل بن الربيع

كان الأمين جالسا في صدر القاعة على سرير من الأبنوس المنزل بالعاج بلا ترصيع ولا تذهيب ، لأنه السرير الذي كان يجلس عليه المنصور قبل أن يفرق العباسيون في الحضارة والترف واستخدام الذهب والجوهر في أنيتهم ومجالسهم . وكانت على أرض القاعة طنافس ثمينة قليلة الزينة عليها الوسائد والكراسي . وقد ارتدى الأمين مثل ملابسه يوم المبايعة لأنه ما زال يستقبل المهنيين والمبايعين . فدخل ابن الفضل ورفيقه فرايا بين يدي الأمين : ماهان صاحب الشرطة ، وقد قعد على وسادة تعود أهل الدولة بلا كبير تهييب ، لأن الأمين لم يكن في مثل هيبة أبيه ، ولا سيما مع من تعود مجالستهم من خاصته في مجالس الشراب أو الطرب . ومع أمثال ابن ماهان وغيره من ذوي شورا الذين يحتاج الى رأيهم أو مساعدتهم

وكان الأمين شديد الثقة بابن ماهان والفضل بن الربيع ، يستشيرهما في مهامه . فلما جاءه كتاب الفضل في ذلك الصباح ينبئه بقدومه ومعه الأحمال ومن بقي من رجال الرشيد وأنه لا يلبث أن يصل الى بغداد ليقص عليه تفصيل ما فعله . أهتم الأمين بذلك الكتاب وبعث الى ابن ماهان ليطلعه عليه ، وأمر بالا يدخلوا عليهما أحدا من الزوار . فجاء ابن ماهان فدفع اليه الأمين كتاب الفضل . ثم لم يكده يتم قراءته حتى جاء الحاجب يستأذن لابن الفضل ورفيقه ، فسأل الأمين عن ذلك الرفيق فقال الحاجب : « هو رجل من علماء حران كأنه حاخام أو ملفان » فقال : « وما شأنه ؟ »

فعلم ابن ماهان أنه الملفان سعدون فتبسم وقال : « اظنه الملفان سعدون الحراني . ان لهذا الرجل شأنا عظيما وله قوة غريبة على استطلاع الغيب » فالتفت الأمين الى ابن ماهان وقال : « هل تعرفه ؟ »

قال : « اذا كان هو الملفان سعدون فقد عرفته لأنني اجتمعت به في جلسة ورأيت منه المعجزات »

فهرز الأمين رأسه وقال : « اني قليل الثقة بهؤلاء الدجالين »

قال : « ليس الرجل دجالا يا مولاي بل هو منجم »

قال : « المنجمون كثيرون عندنا وقلما يصدقون ! »

قال : « سترى فيه ما لم تعهده في سواه اذا اذنت في دخوله ، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان »

فاشار الأمين الى الحاجب ان يدخلهما ففعل
ولما اقبل ابن الفضل على الأمين حياه بتحية الخلافة ووقف حتى اشار اليه بالجلوس ، ثم التفت الى الملفان فابتدره هذا بالسلام ايضا ، فقال له : « اجلس يا ملفان »

فجلس على البساط جاثيا وتادب في مجلسه مطرقا ساكتا فقال له الأمين : « اخبرنا صاحب شرطتنا انك من المنجمين »

فاجاب سلمان : « انى من عبيد امير المؤمنين »

قال : « وهل انت صادق في تنجيمك ؟ »

قال : « على ان اصدق في ابلاغ امير المؤمنين ما اراه واقرؤه طبقا لقواعد العلم ، وله الراى في تصديقه أو تكذيبه ! »

فحول الأمين نظره الى صاحب الشرطة كأنه يستشير فيما يمتحنه به ، فقال : « هذا كتاب الوزير يقول فيه انه سيقص على امير المؤمنين ما فعله في طوس ، فليمتحن الملفان به »

فاستحسن الأمين ذلك ، والتفت الى سعدون وقال : « جاءنا كتاب وزيرنا الساعة بأنه قادم الينا ، فهل لك ان تخبرنا بما سيتلوه علينا ؟ »

فأحنى الملفان رأسه احتراماً ، ثم مد يده الى جيبه وأخرج الدرج المعهود ، وحل المنديل وأخذ يقلبه بين يديه ، ويتمتم مظهراً أنه يقرأ ويتفهم ويتفطن . ثم رفع بصره الى الأمين وقال : « ان الوزير حفظه الله يحمل اليك خبراً مهماً خاصاً بالخلافة »

فضحك الأمين مستخفاً وقال : « طبعاً انه يعلم بمبايعتى وليس في ذلك شيء من الغيب ! »

قال الملفان : « صدق امير المؤمنين ولكن الوزير سينقل اليك شيئاً جديداً عن اخيك المأمون . ولعله أخرجه من البيعة ! »

فبغت الأمين وقال : « هل أخرجه منها ؟ »

فهر الملفان كتفيه وقال : « يظهر لى مما أقرؤه في هذه الاوراق انه فعل ذلك ، ولم يجد في سبيله مشقة . فاذا كان فيه ما يسوء امير المؤمنين فلا ذنب لى »

فتظاهر الأمين باستيائه لأخراج أخيه من البيعة وقال : « هل فعلها الفضل ؟ ما أظنه فعلها ! فأحذر مما تقول واعلم أنك تقول قولاً تقطع فيه الرقاب »

فقال بخاش رابط : « قلت لمولاي انى لا أقول شيئاً من عندى وانما انا

أقرؤه فيما بين يدي . وإذا طويت الكتاب نسيت ما قلته »
فقال الأمين وهو يظهر الغضب : « أنها وشاية تعاقب عليها ! »
قال وهو ساكن الجأش : « العفو يا مولاي ، لا ذنب لي فيما قلته فاني
أقول ما أراه ، ولم يخدعني هذا العلم من قبل »
فبالغ الأمين في اظهار التهديد ، ثم قال : « يكفي هذا » . والتفت الى ابن
الفضل وقال : « هل جاءك من أبيك شيء من هذا القبيل ؟ »
قال : « كلا يا مولاي انه لم يكتب الى بشيء » . ولم يجسر ان يخبره بما
قصه عليهم الملفان بالأمس
ثم التفت الأمين الى ابن ماهان وقال : « ألم اقل لكم ان هؤلاء المنجمين
يتقربون إلينا بكذبهم ؟ »
فابتسم ابن ماهان ابتسام المستعطف وهمس للأمين قائلا : « انني اعرف
صدق اخبار الملفان سعدون . واذا شاء مولاي أن يختبر صدقه فعل ،
ان الوزير لا يلبث أن يصل الى بغداد الليلة أو صباح غد ، وسيعلم مولاي
ما فعله ، والرأي بعد ذلك لأمير المؤمنين ! »
وكان الملفان اثناء ذلك يتشاغل بتقليب الدرج بين يديه يتمتم كأنه
لا يسمع ما يقولون حتى سمع الأمين ينادي : « يا غلام »
فدخل الحاجب وتادب فقال له : « قل لصاحب الانزال أن يأخذ هذا
الملفان الى دار الأضياف . يقيم هناك في كرامة ورعاية حتى اطلبه » . والتفت
الى الملفان وقال : « تفضل أن شئت وكن مطمئنا حتى ندعوك »
فنهض سلمان واستعاذ بالله من الانتظار مخافة ان ييطيء على اهل القصر
المأموني وهم في قلق على تأخر الطبيب بهزاد ، لكنه لم ير بدا من الطاعة .
فخرج وسار مكرما الى منزل بجانب مطبخ العامة ، جاءوه فيه بما يحتاج
من الطعام والشراب
ومكث هناك كأنه على الجمر بقية يومه . وفي ضحى اليوم التالي جاءه
رسول الخليفة يستقدمه الى المجلس الخاص ، فسار بعد أن أصلح هندامه
واتقن تنكره وهو يتظاهر بالسذاجة وصفاء النية وخلوص السريرة ، فلما
دخل على الخليفة وجد عنده ابن ماهان وابن الفضل ، فأمره الأمين بالجلوس
وقال له : « ان وزيرنا الفضل آت عما قريب وسنسأله عن أمره بحضورك
ثم نرى ما يكون »

فحنى رأسه مطيعا ووقف ، فأمر له الأمين بالجلوس فجلس
ثم جاء الحاجب يقول : « الوزير الفضل بالبواب يا مولاي »
فأبرقت اسرة الأمين وصاح : « يدخل وزيرنا الفضل »
وما عثم أن عاد الحاجب ووسع الستر ، فدخل الفضل وآثار السفر بادية

في وجهه ، فحيا بتحيةة الخلافة وقال : « يعلدني امير المؤمنين ان ادخل عليه قبل اصلاح شأنى »

وكان الفضل يومئذ في اواسط الكهولة وقد وخط الشيب لحيته وتغضن جبينه وظهر تغضنه مع ان اكثره مخبأ تحت القلنسوة ، وقد تردى بالقباء الأسود على عادة الداخلين على الخلفاء العباسيين

فهش له الامين واجلسه على كرسى بجانبه ، فأخذ الفضل يعزبه في الرشيد ، ثم هنأه بالخلافة ودعا له بطول البقاء وسكت وهو يجيل نظره في الجالسين كأنه يلتمس الخلوة ليقص على الامين ما جاء به ، فابتدره الامين قائلا : « اذا كنت قد جئتنا بخبر فاقصصه علينا »

فقال : « هل اقصه الآن ؟ » . قال : « نعم قل ما عندك ان هذا المنجم يزعم انه عرف ما فعلته ، وقد اردت ان امتحن معرفته ، فاذا كان مصيبا انعمنا عليه والا كان عقابه شديدا »

فقال ابن ماهان : « هل يأذن امير المؤمنين في كلمة » . قال : « قل » قال : « اذا كان القتل جزاء هذا الملعان اذا ظهر كذبه ، فما جزاؤه اذا صدق ؟ هل يأمر مولاي حينئذ بأن يجعله كبير المنجمين في قصره لعله يثفنا بعلمه »

قال : « سأفعل » . والتفت الى الفضل وقال : « قل ما الذى فعلته بأخينا عبد الله المأمون والخلافة ؟ »

فاستغرب الفضل السؤال على هذه الصورة وقال : « فعلت ما اراه عائدا على الدولة بالخير . فليس يخفى على امير المؤمنين ان مولانا الرشيد كان عند سفره قد استمع لاغراء بعض ذوى الاغراض ، فسابع للمأمون وأوصى له بجميع ما في عسكره ، مع ان البيعة سبقت لمولانا الامين صاحب هذا العرش . فلما قبض الرشيد رأيت ان في بقاء بيعة المأمون ما قد يؤدي الى انقسام الخلافة واستفحال الفتنة ، فاستشرت اصحابى واجمعنا على الرجوع الى الصواب ، فأبطلنا بيعة المأمون وجعلنا الخلافة مستقلة لمولانا امير المؤمنين »

قال : « والمأمون ماذا فعلتم به ؟ »

قال : « لم نفعل به شيئا فانه باق على خراسان كما كانت الوصية من قبل ، على ان يكون وليا للعهد »

فما اتم كلامه حتى بانث الدهشة في وجه الامين ، ونظر الى الملف سعدون ، فراه مطرقا هادئا لا يخامره خوف ولا اضطراب فلم يتما الامين ان صاح به : « ويلك من اين اتاك علم الغيب ؟ »

فرفع بصره الى الامين وقال : « لا فضل لى يا مولاي ، ان هذا العلم معروف عند المنجمين ولكن الذين يصدقون في استخدامهم قليلون »

فقال : « انما أعجبني صدقك من غير ادعاء ، قد جعلناك رئيس المنجمين »
فوقف سلمان وانحنى بين يدي الأمين ودعا له بطول البقاء ثم قال : « ان
هذه نعمة لا استحقها ! »

قال : « بل انت اهل لذلك وهذا جزاء الصادقين » . وصفق فجاء
الحاجب فقال له : « قل لقيم الدار ان يعد للملفان منزلا يقيم به ، وان يفرض
له العطاء فقد صار رئيس المنجمين » . ثم اشار الى الملفان ان يجلس فانحنى
ثانية وكرر الدعاء وجلس وهو يقول : « ان منازل امير المؤمنين واسعة
وحيثما اقيمت فانما اكون في حياطته غارقا في نعمائه ، واذا سمح لي ان اقيم
حيث شئت كان ذلك ادعى لمرضاته لاني لا استغنى عن الانفراد في منزلي
احيانا لعمل المندل او مطالعة كتب التنجيم ، على ان اكون بين يدي امير
المؤمنين متى شاء . ولو جاز ان ترد هبته لتقدمت اليه ان يجعلني خادما
رقيقا بلا اجر ، فان من تعاطى هذه الصناعة على حقها وجب عليه انكار
نفسه والبعد عن ملاذ الدنيا وعن التوسع في اسباب العيش . ولكن نعم
المؤمنين لا ترد »

فاستغرب الأمين هذا التعفف ولم يخطر له سماعه من مثل هذا الرجل
وهو يعلم ان امثاله انما يتقربون الى دار الخليفة طمعا في المال ، فالتفت الى
ابن ماهان والاستغراب باد في وجهه كأنه يستطلع رايه فقال ابن ماهان :
« ان الملفان سعدون هذا طبعه ، والامر لامير المؤمنين »
فقال : ولكننا قد نحتاج اليه في ساعة لا نجده فيها »

فقال الملفان : « اني اقيم بدار امير المؤمنين على ان يؤذن لي في الخروج
الى منزلي متى رايت في الخروج فائدة فلا يعترضني احد ولا اظن الحاجة
تمس الى دعوتي فلا يجدوني »
فقال الأمين : « لك ذلك »

وكان الفضل اثناء الحديث ينظر الى الملفان سعدون ويتفرس فيه ، وقد
دهش لما سمعه وكأنه ارتاب في امره

اما الأمين فكان شديد الرغبة في سماع تفصيل الخبر من الفضل ، فلقى
قضييب الخلافة على السرير بجانبه وتزحزح من مكانه ، فأدرك الحضور انه
يريد ان ينصرفوا ، فوقفوا وخرجوا ، بينما اشار الأمين الى الفضل ان
يبقى . اما سلمان فمشى حتى بلغ مكان بغلته فركبها ومضى الى القصر
الماموني



إلى المدائن

تركنا القصر المأموني في انتظار عودة سلمان بعد أن ذهب يبحث عن بهزاد . فلما انقضى النهار ولم يعد باتوا على أحر من الجمر ، ثم أصبحوا في اليوم التالي وهم يتوقعون قدوم بهزاد أو قدوم سلمان بخبر عنه ، فمضى أكثر النهار أيضا ولم يعد أحدهما فأخذ القلق منهم مأخذا عظيما . ومما زاد في قلقهم أن زينب بنت المأمون أصيبت بحمى شديدة صباح هذا اليوم ، على أثر ما انتابها من الحزن . ولا تسئل عن حال دنائير عند ذلك فقد اشتد بها القلق ورجت منها أن تقبل دعوة أحد أطباء القصر الكثيرين ، وفيهم المهرة من كل طبقة ، فلم ترض إلا بهزاد ، فأرسلوا الغلمان يستشرفونه من الطرق أو على الشاطئ فطال انتظارهم . وكانت ميمونة أشد قلقا منهم جميعا ، وقد حرصت على ألا تظهر ذلك حتى لا تكشف أسرار قلبها

على أنها لما رأت زينب مريضة هان عليها اظهار قلقها محتجة بالقلق على صحة بنت المأمون ، فأخذت تطل ساعة من الشرفات على الطرق وأخرى من الأبواب إلى دجلة ، لعلها تراه قادما على فرس أو في قارب . ولما أعياها البحث جلست في غرفة منامها وقد كل دماغها من الاهتمام وبان التعب في محياها فعلاه شحوب وتقطب ، فاستلقت على الفراش وهي تحسب لتأخر بهزاد ألف حساب ، وتراجع ما دار بينها وبينه في ساعة الفراق فلا تزداد إلا رغبة في لقائه

وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب فأظلمت الدنيا في عينيها وفارقها صبرها ، فخرجت راجية أن تلقى من يخبرها بقدومه أو تسمع صوته في الدهليز . وإنما توقعته ذلك لأن رغبة الإنسان في الأمر تصور له سهولة الإدراك ولو كان مستحيلا فكيف ومجىء بهزاد من أقرب الأمور لأنهم على موعد معه ؟

ومشت في الدهليز إلى الباب المطل على دجلة ، وجعلت تنفرس في السفن الصاعدة والنازلة متمنية أن يكون بهزاد في واحدة منها . وتوهمت غير مرة أنه هناك فلما تكررت خيبتها يئست من مجيئه . ثم جلست إلى مقعد بجانب نافذة تطل على دجلة وأخذت تفكر في أسباب تأخر بهزاد ، موزعة النفس بين التفاؤل والتطير . فصارت إذا رأت طيرا يسبح في

الفضاء قالت في نفسها : « اذا حط هذا الطائر على هذه الشجرة كان بهزاد قادمة الليلة . وكذلك اذا تحول الطائر يمينا فان هذا يكون فالأ يبشر بقدومه ، فاذا تحول الى اليسار ، فهذا مما يدعو الى التشاؤم والتطير

وقضت في ذلك حيناً ، فلما اظلمت الدنيا انتبهت ، وظنت انها تسمع خفق نعال على المسناة قرب الباب فخفق قلبها واطلت فلم تجد احدا ، فنهضت واسرعت الى غرفة زينب فرأت جدتها بجانب سرير الفتاة ودنانير جالسة على السرير قربها ، وقد توردت وجنتا زينب من شدة الحمى وكلهم سكوت . فلما اطلت ميمونة ابتدرتها دنانير قائلة بصوت مختنق : « ارايت ما فعله الطبيب ؟ »

فقالت ميمونة : « انه ابطأ علينا ولا بد من شاغل شغله عنا »

فقالت عبادة : « واغرب من ذلك غياب سلمان بعد ان وعدنا بالبحث عنه . لا اخال بهزاد الا في المدائن الآن وكم انا نادمة على تقاعدي عن الذهاب للبحث عنه منذ الصباح »

فقالت دنانير : « اذا لم يأت غدا ارسلنا في طلبه من المدائن »

فقالت ميمونة : « غدا اذهب اليها مع جدتي وارجو ان نجده في منزله »

قالت دنانير : « ستتحملان المشقة في هذا الامر ، و . . »

فقطعت عبادة كلامها قائلة : « لا مشقة علينا في ذلك ، ولا نظن احدا يعرف مكانه مثلنا لاننا نعرف البلدة ونعرف بيته فيها فاذا لم يأت الليلة أو صباح غد ، ولم يأت سلمان بخبر عنه ، ذهبت انا وميمونة للبحث عنه هناك »

قالت دنانير : « بارك الله فيكما ، سننتظر الى غد والاتكال على الله فاذا لم يكن بد من ذهابكما فليكن ذلك في بعض سفن القصر ومعكما النوتية والخدم . ولولا اصرار مولاتنا على الاستشفاء بدواء هذا الطبيب لكان لنا غنى عن هذه المشقة ببعض اطباء القصر »

واصبحوا في اليوم التالي وزينب احسن حالا . اما ميمونة فالتحت على جدتها ان تصر على الذهاب الى المدائن قياما بخدمة اهل القصر لقاء حسن وفادتهم ، فاطاعتها جدتها والتحت على دنانير ان تأمر باعداد حراقة تسيران بها الى المدائن ، فأمرت قيم القصر باعدادها فأعدت عند الظهر وفيها النوتية وبضعة من غلمان القصر . فركبتها واشارت عبادة الى الربان ان يسير جنوبا فأدار الدفة ونشر شراع الحراقة فسارت وميمونة جالسة في مقعد تشرف منه على الشاطئ الايسر لعلها ترى بهزاد مارا على جواده في البر ، بينما وجهت عبادة التفاتها الى النهر لعلها تراه في سفينة

وظلت الحراقة سائرة بهم يساعدها مجرى النهر اكثر مما يساعدها

الشرع على الاسراع . على ان ميمونة كانت سسبطها وتكاد تحسبها واقفة لفرط رغبتها في الوصول . وكانت عبادة جالسه بالقرب منها صامتة ، وكل من في الحراقة سكوت لا يسمعون غير صوت ارتطام الماء بمقدم السفينة . ثم سمعوا ضوضاء وجلبة وراءهم فالتفتت ميمونة فرأت حراقة تسير في اثرهم مسرعة ، فتفرست فيها فراتها جميلة الصنعة عليها نقوش مذهبة ومقدمتها على شكل الفيل بخرطوميه ونابيه ، فاستغربت منظرها ولفتت نظر جدتها اليها ، فقالت هذه : « انها حراقة الخليفة الامين . وللأمين خمس حراقات على صورة الاسد والفيل والعقاب والحية والفرس انفق فيها مالا كثيرا »

فخفق قلب ميمونة وتصاعد الدم الى وجهها فتوردت وجنتاها ثم ذهب الاحمرار فجأة وامتعق لونها وصاحت : « ويلاه . . انى ارى اصحاب الحراقة سائرين فى اثرنا . ماذا يريدون منا ؟ »

فاشارت عليها جدتها ان تستتر بالسارية ، واسرعت الى ربان حراقتهم فأمرته ان يحل الشرع ويسير على مهل متجها الى الشاطئ ويفسح الطريق للحراقة التى خلفهم . فأدار الرجل الدفة والتفت عبادة بنقابها وأنزوت بجانب ميمونة . وكانت حراقة الامين قد دنت منهم فعرفت انها تحمل جندا وعيارين ، وسمعت رجلا منهم يقهقه قهقهة السكارى ويقول : « هذه غنيمة باردة ! »

فأجابه آخر : « ما لكم وللغنائم ؟ ألم يكفكم ما نلتموه من رزق ٢٤ شهرا ، فنال راجلكم ٨٠ درهما مرة واحدة ، فضلا عن حصتكم من الغنائم . . انكم لا تشبغون . . اما نحن العيارين فلا رزق لنا الا من الغنائم اذ لا مراتب لنا »

فضحك الأول وقال : « انكم معشر العيارين اكثر منا رزقا فقد تنتدبون لمثل هذه المهمة تنالون منها مرة واحدة ما لا يتيسر لنا فى مرات . فاذا وفقتم الى القبض على ذلك الخراسانى اصبتم رزقا كثيرا »

فنفر الآخر منه وقال : « لا اظن امير المؤمنين يعطينا شيئا كثيرا اذا قبضنا عليه ، فقد طالما قبضنا على امثاله ولم نل الا دراهم معدودة »

فضحك الجندي مقهقهها وقال : « العطاء على قدر العمل ، اتريد ان يعطوك على لص تاخذونه كما يعطونكم على مثل هذا الرجل ؟ »

فقال : « وما الذى يميزه من سواه ؟ دعنا من هذه الآمال الفارغة » قال : « ان لهذا الخراسانى شانا عظيما عند امير المؤمنين لم نكن نعلمه قبل مجيء الوزير »

وكانت ميمونة منزوية وراء السارية تسترق السمع ، فلما سمعت

يا قالوه عن الخراساني اختلج قلبها في صدرها خوفا من ان يكون حبيبها .
بأصاحت بسمعها فسمعت رجلا آخر يقول : « ما لكم ولهذا الهذيان ؟ لئن
سمعكم مولانا الهرش لأسمعكم ما تكرهون . وما نحن في معرض جدال
وانما جئنا للقبض على ذلك الرجل فاذا ظفرنا به كان هذا ربعا عظيما لنا
جميعا »

وكانت الحراقة قد حاذت حراقة المأمون ، فنهضت ميمونة والتفتت الى
المتكلمين ، فرأت عددا كبيرا من الجند والعيارين في جلبة وضحك وصياح
كانهم سكارى يعربدون ، ورات على مقعد في طرف السفينة رجلا قصيرا
سمينا عليه قيافة الرياسة ، فسألت جدتها هل تعرف هؤلاء فرفعت عبادة
بصرها وحالما رأت الرجل همست قائلة : « انه الهرش رئيس العيارين »

ووقع بصر احد العيارين اثناء ذلك على ميمونة وقد زادها الخوف والقلق
روتقا فصاح : « انى ارى جارية حسناء لعلها من القيان . اربط يا ريس .
لنسمع غناءها »

فارتعدت ميمونة خوفا وجد الدم في عروقها ، وادركت جدتها خوفها
فنهضت تحت صاحب الدفة على الفرار او الدفاع فسمعت رجلا من تلك
الحراقة يقول بصوت منخفض : « دع الفضول . الا ترى الراية ؟ »

فتجمهر جماعة ونظروا الى راية منصوبة في مقدم الحراقة فقالوا : « انها راية
المأمون » . وقال احدهم : « دعونا منها » . ثم ما لبثوا ان مروا بها مسرعين ،
فسرى عن ميمونة لزوال الخطر عنها ولكنها أصبحت في قلق عظيم على
حبيبها ورجح عندها أنهم يجدون في طلبه فالتفتت الى جدتها والدمع
يترقرق في عينيها وقالت : « أنهم يطلبون بهزاد ؟ . ويلاه ! » . قالت ذلك
وقد نسيت أنها تكتم حبها عن جدتها

فقالت عبادة وقد حلت خوفها محملا آخر : « لا تخافى يا حبيبتي ،
لا اظنهم يطلبونه . وعلى كل حال سنسبقهم اليه وننبهه »

ونهضت الى صاحب الدفة وامرته ان ينشر الشراع في اثر تلك الحراقة .
ففعل وسارت الحراقة ساعة اخرى وميمونة واقفة حائرة لا تدرى ما تعمل ،
فابتدرتها جدتها قائلة : « لا تخافى يا بنية اننا سنصل الى بهزاد قبلهم وان
سبقونا بحراقتهم ، واسرعت الى مقدم السفينة وجعلت تتفرس في الشاطئ
على اليسار وتنظر الى ابعد ما يقع عليه بصرها في عرض الأفق ، وميمونة
واقفة الى جانبها تستند الى كتفها خوفا من السقوط والسفينة تشق الماء
والرياح تنقر على الشراع ، فسارت الحراقتان ساعتين متقاربتين وعبادة
واقفة وبصرها شاخص الى الأفق حتى اشرفت على بناء شامخ تراءى لها
عن بعد فصاحت : « هذا هو الايوان . اننا على مقربة من المدائن »

ثم تحولت الى الربان وقالت : « أترى هذه الناعورة (الساقية) امامك ؟ »

قال : « نعم اراها يا مولاتي »

قالت : « قف بالحراقة عندها » . ثم التفتت الى ميمونة وهمست في اذنها قائلة : « اذا نزلنا من هنا ويممنا منزل بهزاد وصلنا اليه قبل اولئك بوقت طويل ! »

فحلوا الشراع وأدار الربان الدفة، وبعد هنيهة رست بهم الحراقة عند الساقية فأمسكت عبادة يد ميمونة ونزلتا الى الشاطئ. وقالت عبادة للربان : « أمكث هنا حتى نعود اليك » . فقال : « الا يسير أحد منا في خدمتكما ؟ » قالت : « كلا » . فقال : « سمعا وطاعة »

وهرولت عبادة مسرعة وميمونة تعدو في اثرها ، وقد مالت الشمس نحو المغيب وعبادة تعرف الطريق جيدا وتعرف حناياها ومختصراتها ، فسارتا على هذه الصورة نصف ساعة ، فتعبت العجوز وكادت تخور قواها وتسقط ، وميمونة تركض لا تبالي من شدة لهفتها ، ناسية ضعف جدتها وشيخوختها . فما لبثت ان رأتها تلهث من التعب والعرق يتصبب من جبينها وأنفها وسالفيها ولم تعد تقوى على السير ، فوقفت ثم قعدت على حجر واخذت تمسح عرقها وتلهث . فاستاءت ميمونة من قعودها وودت لو كانت لها أجنحة لتطير بها الى منزل بهزاد . وتحيرت فلم تدر اترك جدتها هناك وتسير وحدها وهي لا تعرف الطريق ولا يطاوعها قلبها على ترك جدتها وحدها في ذلك المكان ؟ أم تصبر ريثما تستريح فتضيع الفرصة ؟ . فجعلت تمسح لها عرقها وتنشطها وتخفف عنها ، وعبادة لا تستطيع الكلام من شدة التعب . وبعد بضع دقائق قالت : « اننا على مقربة من البيت . الا ترين هذه النخلة الباسقة ؟ »

وكانت الشمس قد توارت بين النخيل على الشاطئ الغربي وراءهما فنظرت ميمونة شرقا نحو الأفق فرأت تلك النخلة فصاحت : « اليست هي النخلة التي الغنا الاستظلال بها عندما كنا نخرج من منزلنا ؟ » قالت : « بلى هي بعينها »

فقالت : « نحن اذن على مقربة من بيت بهزاد . هلم بنا نكمل مسيرنا ولو أتعبك ذلك فاني اخاف ان يسبقنا أولئك الرعاع اليه »

قالت : « لا تخافي انهم لا يزالون يمشرون في دجلة » . ونهضت وهي تتشدد وتتجلد ، ومشيت وميمونة في اثرها مستبظئة مشيتها حتى وصلتا الى اسواق تلك البلدة فقطعتها . واقبلتا على منزل بهزاد والشمس تكاد تغيب، فوجدتا الباب مغلقا وليس عنده أحد، فمشتا وهما تلتفتان والشاطيء

بعيد عنهما فلم تجدا أحدا قادمًا ، فتحققت ميمونة ان الاعداء لم يدركوا البيت بعد . وبعد هنيهة وصلتا الى الباب فوجدتاه مغلقا فقرعته قرعا عنيفا فلم يجبهما احد

فلما ابطأ عليهما الحواب ، فحصت عبادة الباب فرائه مغلقا من الخارج ، فتحققت ان بهزاد ليس داخله فانشرح صدرها وانبات ميمونة بذلك فتنفست الصعداء وقالت : « الحمد لله انه ليس هنا ولا سبيل لهؤلاء اليه . ولكن اين هو يا ترى ؟ »

فقالت جدتها : « ربما كان في بغداد او في بلد آخر » . قالت ذلك وقعدت على حجر عند الباب لتستريح

فقالت ميمونة : « اخاف ان يكون عائدا الى بيته الآن فيظفرون به . الا يحسن ان ننتظره بالقرب من هذا المكان فاذا رايناه اعلمناه بما يهدده ؟ »
قالت : « وهل نكون في امن على انفسنا ؟ »

فتحيرت ميمونة في امرها وقالت : « ماذا نعمل اذن ؟ اخاف ان يكون بهزاد آتيا الساعة وهو لا يعلم بما اعدوه له فيقع غنيمة باردة في ايديهم . يجب ان نتمم سعيينا في انقاذه » . وكأنها ادركت كثرة ما اظهرته من اللهفة عليه فخافت ظهور حبها له فاستدركت قائلة : « يجب علينا ان نكافئه على فضله ولا ندخر وسعا في انقاذه ولو تعرضنا للخطر »

فاستحسننت عبادة كرم اخلاقها وقالت : « صدقت يجب علينا ان نبذل ما في وسعنا في سبيله ، ولكن ما العمل ؟ ها انذا اسمع ضوضاء القوم من جهة الشاطئ . اسمعى انهم يجرون . هلمى بنا نذهب من قبل ان يدركونا » . قالت ذلك ونهضت فأمسكت بثوب ميمونة ومشيت بها مسرعة نحو الشرق ، فمرتتا بتلال واحجار من انقاض قصر كبير فقالت ميمونة : « ارى انقاضا لعلها من بقايا دولة الفرس فهي تشبه انقاض ايوان »

فقالت عبادة وهي تسرع في مشيتها جهد طاقتها مع ما يحول دون ذلك من شيخوختها : « صدقت يا حبيبتي ان هذه التلال والاحجار من انقاض ايوان كان هنا غير ايوان كسرى ، يعرف بايوان سابور . وهو القصر الذي كان يقيم فيه المنصور قبل بناء بغداد وتهدم بعده »

فقالت ميمونة : « يلوح لى ان بهزاد اختار السكن بجوار هذه الانقاض استثناسا بآثار اجدادنا » . قالت ذلك وهي تسرع امام جدتها وقد نبهها ذكر هذا الايوان الى شيء خطر لها ، فلما توارتا عن المنزل قالت ميمونة : « اذكر انى سمعته يذكر انه يتردد الى ايوان كسرى للبحث عن بعض العقاقير الطبية والحشائش التى تنبت على انقاضه ، فلعله هناك الآن ؟ »

فقالت عبادة : « ربما كان هناك . اتبعينى لنبحث عنه قبل ان تغرب الشمس »

فى إىوان كسرى

صعدت عبادة وميمونة الى الاىوان وهو فى ظاهر المداثن من جهة الشرق، فخرجتا من البلدة وهما تحاذران أن يشعر أهلها بهما ، وبالفقا فى التقنع ، فلما بلغتاه اذا هو قائم كالجبل العظيم وقد زاده الخراب وحشة . وكانت الشمس قد توارت وراء الأفق وتلاحت الظلال وأخذت تتحول الى ظلام

وساعة الغروب من أوحش الساعات على الانسان لقرب خروجه الى الظلمة فيشق عليه فراق النور فتنبض نفسه ويستوحش حتى اذا كان فى قصره بين أهله وذويه، فكيف اذا كان فى برية يغشاها الخراب وينعق فيها اليوم؟ . وقد كان هذا البناء رهيبا فى ابان عمرانه فكيف به فى خرابه ؟ وللخراب وحشة فى ابان النهار فكيف فى الليل ؟

على أن ميمونة شغلت عن الخوف بلهفة المشتاق ، ولولا ذلك لكان لها فى منظر ذلك القصر عبرة أى عبرة !

كانت خرائبه توحى بأن مصير الانسان الى الزوال ، كما باد أهله . وقد كان فيهم الأكاسرة والمرابذة والدهاقنة والاساورة ممن كان أحدهم لا تكاد الأرض تسع مطامعه . فكم ربطت خيولهم فى باحة ذلك القصر ؟ وكم دخلوه وعليهم الخز والديباج وعلى رؤوسهم التيجان وفى أيديهم الصوالة؟ . وكم جاء الملوك والأمراء يلتمسون الهدنة أو يتقربون بالهدايا ؟ وكم خضع لهم القواد وسيقوا اليهم بالأغلال والأصفاة يوم كان القصر أهلا بالنساء والأولاد وألوف من العبيد والجوارى مما حمل اليهم أسرا أو هدية ، وفيهم غلمان من أبناء الملوك وفتيات من بنات الأمراء . . وكلهم يرفلون فى البسة الحرير ، ويتوسدون الرياش الوثير بين مزركى ومطرزبالوان تبهج النظر، وبين أنغام تطرب السمع

وكم كان على شرفات الاىوان من الستائر الموشاة ، يطل من ورائها الجوارى الحسان يتطلعن الى ما كان يقام فى باحة القصر من الألعاب على الجيول كالسباق أو لعب الصوالة . والناس كلهم فرحون يحسبون الحياة نعيما دائما !

فلو رأهم راء ثم جاء مع ميمونة فى ذلك المساء ورأى الاىوان قد أصبح مقرا للحشرات ، رياشه التراب وما نبت عليه من الحشائش والطحالب ، ونمارقه الأشواك والأحجار ، وقد تهدمت جدرانها وسقطت أساطينه

وتصدعت أركانها ، لا تعتبر وتهيب وغلبت عليه الوحشة والرغبة ولو كان من الأبطال ، فكيف إذا كان فتاة رببت في مهاد الرخاء مثل ميمونة ؟

فالتفتت الى ما حولها فلم تر الا خلاء قد تولاه الخراب ، فاستوحشت وندمت على مجيئها ولكن رغبته في لقاء حبيبها شجعته وثقتها بجدها هونت الأمر عليها

أما عبادة فكانت في شاغل بما نالها من التعب وكانت أقل خوفا من ميمونة فأسندت نفسها الى اسطوانة ملقاة هناك من أنقاض الايوان وقالت لميمونة : « هل ترين أحدا أم تسمعين صوتا ؟ »

فأصاحت بسمعها وقالت : « اني لا أسمع صوتا ولا أرى شيئا ، لكن ذلك لا يمنع أن يكون بهزاد في داخل هذا البناء يبحث عن عشب أو عقار . وبما أننا وصلنا الى هنا فلندخل الطاق فاذا لم نر أحدا رجعنا سريعا قبل أن يشتد الظلام . هل ندخل ؟ »

فلم تشأ عبادة مخالفتها فمشتا وهما تجسان الأرض جسا بأقدامهما وتحاذران العثور بالأحجار أو الأشواك ، وقد سكنت الطبيعة وأوت الطيور الى أوكارها . ولما أقبلتا على باب الايوان هابتا سعتة وارتفاعه فقد كان عرض فتحته ٣٤ ذراعا وارتفاعه ٣٢ ذراعا ، ولما مرتا تحت قنطرتة سمعتا هبوب النسيم وأحستا ببرده ، فأجفلت ميمونة وتراجعت وشعرت كأن يدا باردة لمست وجهها فتلفتت فلم تر أحدا فابتدرتها جدتها قائلة : « مالك يا بنية ؟ »

قالت : « ماذا أسمع ؟ » هل أسمع هبوب النسيم وأشعر ببرده ؟ أم هي أنفاس الجن ؟ قد كنا منذ لحظة خارج الايوان وكل شيء هادىء فما بالي أسمع هبوبا وأشعر بالبرد ؟

قالت : « كأنك لم تدخل هذا الايوان قبل الآن ؟ »

قالت : « كلا . وهل فيه جن ؟ »

قالت : « لا تخافى يا بنية ليس في المكان جن ولا انس وأما ما تسمعيه فهو أصوات مجارى الهواء الخارج من جدران الطاق »

قالت : « قد كنا بقربه الآن ولم يكن ثمة ريح ، فكيف هبت سريعا على هذه الصورة »

قالت : « ان في بناء هذا الايوان سرا لم ينكشف لأهل هذا العصر بعد . انه مبنى على هندسة تجعل الهواء يلعب في قاعته ولو كان الناس خارجه في حر شديد فيخرج من منافذ في جدرانه مصنوعة على نمط عجيب حير مهندسى هذا الزمان . وقد تأنق الذين بنوه في صنعه على هذه الصورة حتى لا يفارق النسيم يجالس الأكاسرة في أشد الايام حرا . فلا تخافى . هل نرجع ؟ » وكانت قد دخلتا الباب وأقبلتا على القاعة الكبرى التى يسمونها الطاق

ويسمون الايوان بها فيقولون طاق كسرى كما يقولون ايوان كسرى . وكانت مساحة هذا الطاق في أيام عمارته ستين ذراعا في ستين ، وقيل مائة في خمسين . وكانوا يفرشون أرضه ببساط واحد مزركش ومرصع

وكان في صدر الطاق على عهد الأكاسرة عرش من ذهب مرصع بالحجارة الكريمة يجلس عليه كسرى ، تعلوه قبة مرصعة في داخلها مروحة من ريش النعام ، وإلى جانبي العرش مجالس الأعوان والمرازبة . وقد ذهب ذلك كله أثناء الفتح غنيمة للمسلمين وهم يومئذ أهل بادية حفاة عراة لا يفرقون بين الكافور والملح ولا بين الجوهر والحصى ، فاقسموا الآنية وقطعوا الأبسطة ومزقوا الستائر . وكان نصرهم من آيات تغلب البداوة على الحضارة . فلم يبق هناك إلا الأحجار وبعض الأساطين وقد تشوهت وتكسرت

ونظرت ميمونة إلى ما حولها من الجدران الهائلة فرأت عليها صورة ملونة منعها الظلام من تحققها . ولما سمعت جدتها تستخيرها في الرجوع وهي لا ترى في ذلك المكان إلا ما يبعث على الوحشة . ناهيك بما كانت تخافه من الحشرات التي تكثر في مثل تلك الحربة عذمت على الرجوع وأرادت أن تجيبها بالإيجاب فإذا بها تسمع دبدة خارج الايوان ولا تسمع كلاما فاختلج قلبها في صدرها وأرادت أن تصيح فارتج عليها ولصق لسانها بحلقها . وأدركت جدتها ذلك ولم تكن أقل خوفا منها فأمسكت بيدها وأومات إليها أن تتبعها إلى الداخل وهي تهمس في أذنها : « لعل أولئك العيسارين أتوا للبحث عن بهزاد في الايوان مثلنا . وهو والحمد لله ليس هنا على أنى أخشى أن يبصرونا فتعالى نختبئ وراء هذه الأساطين حتى إذا أطلوا ولم يجدوا أحدا رجعوا » . قالت ذلك وصوتها يرتجف وهي تجر ميمونة بيدها . فأسرعتا فوق الحجارة وما يتخللها من الأعشاب والأشواك ، فسمع لخطواتهما خشخشة وطققة رغم ما أرادتا من التستر . ولم تنتبها لهول ما اعتراهما إلى ما كان يسرح بين أقدامهما من الجرذان والأورال وغيرها من الحشرات ، حتى وصلت إلى كوة واسعة لعلها كانت موضع العرش في إبان صولة الفرس . وعند الكوة أساطين متفرقة إذا دخل الطاق داخل لا يفتن لمن يقيم وراءها . فدخلتا الكوة وانزوتا فيها وهما تمسكان أنفاسهما من الخوف ، وأصغتا وعيونهما محمقة تنظران إلى الباب بلهفة وجزع ، وقد ندمتا على تلك المخاطرة

ولم تمض لحظة حتى كفت الدبدة وسمعت ميمونة همسا عند الباب كان المتكلم يحاذر أن يسمعه أحد ، ثم سمعت صوت قدح زناد ، ورأت أشعة النور اندفعت إلى الطاق من سراج يحمله شخص طويل القامة ملثم بلثام أسود ، وقد التف بعباءة سوداء فلم يبد منه غير يده التي يحمل بها السراج . وما لبث أن دخل صامتا وفي أثره بضعة رجال في مثل هيئته ، فخفق قلب ميمونة وازداد اضطرابها حتى كاد الدم يجمد في عروقها ، مخافة أن يتقدم الرجل بسراجه إلى مكانهما ، فبالغت في الانزواء وهي ما زالت معانقة جدتها

أما حامل السراج فلما توسط الطاق التفت يمنة ويسرة وقال : « ليس هنا أى أحد . وهل يعقل أن يأتى هنا أحد فى مثل هذا الوقت ؟ » فليس ما سمعناه الا خشخشة بعض الحشرات التي فرت حين أحست بقدومنا . ثم نظر الى ما بين يديه كأنه يبحث عن مكان يضع السراج عليه فرأى بقية اسطوانة قد ذهب معظمها وظلت قاعدتها قائمة ، فوضع السراج عليها ، وأخرج يده الأخرى من تحت العباءة وفيها صندوق أسود فوضعه بجانب السراج والتفت الى رفاقه وهم ستة وقال بصوت ضعيف : « هل نبدا الحديث ؟ »

فقال أحدهم : « نعم قل ما بدا لك »

فلما سمعت ميمونة صوت الرجل الأول استأنست به ، وخيل اليها أنه يشبه صوت حبيبها ، فاختلج قلبها وشاعت عيناها . ثم رأت الرجل الطويل ورفاقه قد خلعوا عباةاتهم فافترشوها وقعدوا عليها ما عدا أولهم فظل واقفا وبدأت ثيابهم من تحت العباة على غير المألوف فى بغداد ، اذ كان على كل منهم قباء أخضر وعلى رأسه قلنسوة حولها عمامة خضراء ، وقد تمنطقوا بالسيوف وتقلدوا الأقواس كأنهم يتأهبون للحرب

واسترعى انتباهها طول الرجل الأول وكان قد ولاها ظهره ، فرجحت أنه بهزاد ، وحدثت فيه ، وكادت تناديه ولكنها أمسكت وأشارت الى جدتها أن تنظر اليه فعرفته على ضعف بصرها وأومأت الى ميمونة أن تصبر وتبقى صامته ، وأخذت تتفرس فى القوم ، وعرفت من وجوههم ولحاظهم أنهم من الفرس ولكنها لم تعرف أحدا منهم . ثم رأت بهزاد قد تحول نحو قاعدة الاسطوانة وأخذ الصندوق فوضعه بين يدي الجماعة وقعد القرفصاء وقال : « أقسموا على ما فى الصندوق أنكم تكتمون ما يدور بيننا »

فتصدى رجل منهم رقيق البدن خفيف العضل تدل سحنته على مزاجه العصبى وحدة ذهنه وجرأته فقال : « ولكنك لم تخبرنا بما فيه وقد وعدتنا أن تطلعنا على ذلك قبل كل شئ »

فتناول بهزاد مفتاحا من جيبه وفتح الصندوق وقال : « انظروا ولا تتكلموا »

فنظروا فى الصندوق وتراجعوا وقد تولتهم الدهشة وقالوا : « انا لله وانا اليه راجعون . ما هذا ؟ »

فقال : « هذا شعارنا منذ اليوم . هذا رأس القتيل المظلوم ، فهيا أقسموا أن نكتم أمرنا ، وأن ننتقم له ولمن قتل قبله »

قال ذلك وأغلق الصندوق وهو جاث ، فقرأوا الفاتحة معا ، ثم أقسم كل منهم ليبدلن ماله ودمه للانتقام

وقف بهزاد عقب الانتهاء من القسم ، فأعاد الصندوق الى موضعه وحمل



وفتح بهزاد الصندوق وقال : « انظروا ولا تتكلموا ... ! »

المصباح وتقدم نحو جدران الطاق والسراج مرفوع بيده ليبدو ما على الحائط
وقال : « أترون ما على هذا الجدار من الرسوم ؟ »

قالوا : « نرى كسرى أنو شروان يحاصر بجنده أنطاكية »

فقال : « ألم يفتحها ؟ » . قالوا : « بلى »

قال : « ألم يكن أنو شروان عادلا ؟ » . قالوا : « بلى »

قال : « أستم خلفاء وأبناء ؟ » . قالوا : « بلى »

قال : « ألم تنصروا هؤلاء العرب وتسلكوهم رقاب الناس ؟ »

قالوا : « بلى »

قال : « ألم يبذل أجدادكم أرواحهم ودماءهم وأبلوا بلاء الرجال في طاعة
امامهم الأول ، فقتلوا على الشك وغدروا وخانوا رغبة في رفع منار تلك
الدولة ، فكيف كان جزاؤهم ؟ » فقالوا جميعا : « لقد جوزينا جزاء سنمار .
رحم الله أبا مسلم »

قال : « ليس أبو مسلم أول شهيد قتله العرب غدرا بعد أن أيد سلطانهم ،
وسلم الدولة اليهم ؟ أترضون أن يذهب دمه هدرا فضلا عن دماء آبائكم ؟ »
فقال رجل منهم كبير السن جليل الطلعة : « انك تدعونا الى أمر عظيم ،
ولسكنك لم تخبرنا من أنت . نعم انك فارسي مثلنا وشريك لنا في هذا
الأمر . غير أننا نحب أن نعرف الغرض من مجيئنا الى هذه الخرائب وقد كنا
في غنى عن ذلك بالاجتماع في بيت أحدنا »

فقال بهزاد : « يعد الناس هذا المكان خرابا وما هو كذلك . انه اثر حي
لعظمة دولتنا ، وقد عجز المنصور بعد أن غدر بأبي مسلم عن هدمه . ان
بقاء هذا الايوان رمز على بقاء دولة أصحابه . فأحببت أن نتعاهد على الانتقام
بين جدرانهم ، وهذا أنو شروان العادل كأنما يرانا ويسمعنا ، فاذا تعاهدنا
أمام صورته كان عهدنا وثيقا »

ثم رفع السراج الى رأس كسرى في الصورة وقال : « انظروا ، انه ينظر
اليكم بعينه نظرة عاتب كأنه يقول : (لقد تقاعدتم عن نصره أمتكم ورضيتم
بالرضوخ لقوم استخدموكم وأذلوكم وقتلوكم غدرا ، فكيف تصبرون على
الذل وفيكم العظماء والحكماء والقواد ، ومنكم رستم وقورش ودارا وسابور
وبرويز وأنو شروان وبزر جهر ، وقد حاربتم الاغريق والرومان والهنود
والصغد وفتحتم بلادهم . كيف يغلبكم على أمركم أعراب كانوا يقدون علينا
للاستجداء فننصب عليهم بالطعام واللباس ، وكان أحاسنهم من جندنا
وموالينا . فتسللوا عليكم بالسيف ، ثم نصرتموهم فقتلوا كباركم غدرا
وملكوا رقابكم وأنتم صابرون ، ولو لم تصبروا لكنتم الملوك وهم عبيد لكم .
ومع هذا أليست مقاليد الأحكام في أيديكم ، ومنكم وزراءهم وقوادهم
ورجال العلم والسياسة فيهم ؟ فكيف تحنون رقابكم لرجال ما فيهم الا

الضعيف ، وانما غلبوكم بالحيلة والمداجاة . ان الصبر اذا طال أصبح مذلة
(وعجزا) . هذا خطاب أنو شروان ، ولاجله جئت بكم الى هذا المكان . اما
انا فاذا كنتم من الناقمين لأبى مسلم فاعرفونى . انى رسول اخوانكم فى
خراسان فما قولكم ؟ »

وكان بهزاد قد ارتفع صوته ونسى التكتم والتستر وأشرق وجهه حماسة
وشهامة . فرقص قلب ميمونة فرحا لرؤيته وسماع خطبته ، ولكنها ظلت
متشوقة لمعرفة ما فى الصندوق وقد فهمت من حديثهم ان فيه رأس رجل
مظلوم ، فتلهفت لمعرفة

ولما انتهى بهزاد من كلامه وهو ينظر الى القوم والسراج فى يده ، نهض
أحدهم وقال : « هل أنت رسول الينا من اخواننا الخرمية فى خراسان ؟ »
فقال : « انى رسول اليكم منذ بضعة أعوام »

قالوا : « وما الذى عاقك الى الآن ؟ »

قال : « تربصت حتى جاءت الساعة وسنحت الفرصة ، لأن الأمور
مرهونة بأوقاتها . فالآن مات الرشيد . ذلك الذى غلبنا بمبادرته وكيدته ،
فقتل كبيرنا وعمدتنا وعرقل مساعينا . اما خليفته فغلام غر همه أكله
وشربه و... »

فقطع الرجل كلامه قائلا : « ولكننا أقمنا دولة فارسية أساسها الآن فى
خراسان . وهذا أخوه المأمون ولى العهد لا يلبث أن يتولى العرش بعده ،
وهو آله فى يد الفضل بن سهل . وهذا انما أسلم وتقرب منه رغبة فى
نصرة الفرس وتطلعا الى هذه الفرصة . فاذا أفضت الخلافة الى المأمون بلغنا
الغرض المطلوب على أيسر سبيل ؟ »

فقال بهزاد : « ألم أقل لكم انكم غافلون عن منافعكم ؟ ان مساعى الفضل
أوشكت أن تذهب أدراج الرياح بما هياه هذا الغلام وأنصاره من أسباب
القدر . فكما أسس المنصور دولته بقتل أبى مسلم غدرا ، وأنقذها الرشيد
بقتل جعفر غدرا ، فان هذا الغلام عرقل مساعى الفضل بن سهل بفعل
المأمون غدرا ! »

فصاح الرجل : « هل خلعه ؟ »

قال : « نعم خلعه ولا يلبث أن يقتل أنصاره وأنتم نيام . ان مساعى
الفضل مؤسسة على الدهاء والسياسة ، فاذا لم تبادروا الى إبعادها ذهبت
عبثا ، فلا ينفعنا اسلامه ولا تقربه من المأمون »

فقال الرجل : « هل أنت واثق من خلع المأمون ؟ »

قال : « لست ناثما مثلكم ، ولكنى ساهر على صوالحك منذ بضعة أعوام ،
وقد لبثت العيون والأرصاد حتى فى بلاط الخليفة ، وأعرف كل حركة تجرى
فى بيت الأمين ، وأعرف أهواء العامة وأغراض الخاصة . وقد علمت يقينا

أن الأمين خلع أخاه المأمون ، ولا ندرى ما يفعله بعد ذلك . أما العامة فقوم
طغام يباعون ويشرون وهم لا يعلمون ، وأما الخاصة فأنتم عمدتهم . فبادروا
إلى العمل . فقد بلغ السيل الزبى »

فأطرق القوم هنيهة ثم وقف الرجل الجليل وقال بصوت هادئ : « أما
وقد ثبت خلع المأمون فالأمر خطير ، ولكننا لا نفوز إلا بالتؤدة ، فان هؤلاء
العامة لا يقادون إلا بالدين وهذا أمر كان أوله في خراسان ولا يقوم إلا من
هناك »

قال : « ان تدبير ذلك سهل علينا ، وخراسان سيفنا وذخيرتنا . وأما
الدين فهو الوسيلة لجمع كلمة العامة وهذا في أيدينا وسنندبر ذلك في
خراسان . ان هذه الأقبية الحضراء ستملك أمر الدين بأذن الله ؟ »

ففهم الرجل مراده من اتخاذ مذهب الشيعة سلاحا لنقل الخلافة فقال :
« متى صارت الحضرة شعار الخلافة وذهب سواد العباسيين فلنا المراد، ولكن
أنى لنا ذلك ؟ »

قال : « يكون لنا ذلك ان شاء الله في خراسان ، ولا بد من أعمال السيف،
فكونوا أنتم في يقظة من أمر شيعتنا في بغداد . واذا أتت الساعة يحاسب
كل منا على عمله » . ثم أشار إلى الصندوق وقال : « وأما شعارنا الحقيقي
فهو ما رأيتموه في هذا الصندوق ، وسأضيف إليه رأسا آخر اذا رأيتموه
علمتم أنكم اذا بذلتم أموالكم وأنفسكم فأنما تبذلونها في سبيل قويم . اذا
كنتم من الحرمية فأنكم تنتقمون لامام قديم ورجل عظيم . تنتقمون لأبي
مسلم صاحب الرايات السود مؤسس الدولة العباسية ، وهو يناديكم من
أعماق قبره أن تقلبوا هذه الدولة وتعيدوا دولة الفرس وتؤيدوها بالشيعة
العلوية أصحاب الدعوة الأصلية التي أضاعها المنصور بغدده ودهائه .
وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »



كان بهزاد يتكلم والعرق يتصبب من جبينه ، وقد أخذت منه الحمية
ماخذا عظيما فاستنهض عزائم رفاقه وسحرهم بحماسته وبلاغته حتى تراءى
لهم ان الايوان عاد سيرته الأولى أهلا بالجوش يزجها كسرى انو شروان .
وكانوا يعرفون بهزاد طبيا فارسيا ناقما على العباسيين ، ولم يكن يخطر
لهم أنه رسول «الحرمية» - من الاحزاب السرية القائمة في خراسان - وهم
طائفة ظاهرها ديني واختلفت الأقوال في حقيقة مذهبها ، ولكنها كانت حزبا
سياسيا يستخدمها ذور المطامع في طلب السيادة . ومنهم أصحاب أبي مسلم
وأهله ولاسيما ابنته فاطمة فان الحرمية كانوا يقدسونها ويذكرونها في

أدعيتهم • وللخرمية أثر كبير في تاريخ الاسلام ، وكانوا اذا اشتدوا ظهرُوا
واذا ضعفوا اختفوا، وكانت لهم مخبرات سرية في المدن الاسلامية، يتعاونون
ويتكاتفون وفيهم المسلمون والزرادشتيون والمجوس وانما تجمعهم العصبية
الفارسية

ولا بدع اذا كان منهم جماعة في بغداد كالذين جاءوا مع بهزاد ، وهم من
وجهاء القوم وأصحاب الثروة والنفوذ ، وفي نفوسهم أشياء على الخلفاء كقتل
أبي مسلم وجعفر البرمكي وغيرهما . وكانوا يتحدثون بذلك سرا وينتظرون
تبدل الأحوال وآمالهم عالقة بالأمون اذا تولى الخلافة ، ولم يكونوا يعلمون
أن الأمين قد خلعه • فلما أنبأهم بهزاد بذلك ثارت الغيرة في نفوسهم
وتحمسوا ونهض أحدهم وقال : « اننا على ما أقسمنا عليه ، لا ندخر مالا
ولا رجالا ، ولكن لابد لنا من التؤدة »

فقال : « ذلك ما عزمنا عليه • فاقيموا أنتم على أعمالكم حتى تأتي
الساعة ، وأنا أعرف أماكنكم فكونوا على استعداد ، وقد آن لنا أن ننصرف •
وهذا آخر اجتماع لنا على هذه الصورة • وسنجتمع في غير كلفة أو حذر
قريبا ان شاء الله ! »

فنهض رفاقة وأخذوا يتأهبون للخروج ، فالتفوا بعباءاتهم وهموا
بالانصراف • وتناول بهزاد عباءته فالتف بها وانطلقا السراج وتركه في مكانه
وخرج • فلما أظلم الطاق لم تعد ميمونة تستطيع ضبط نفسها والصبر على
التستر فهمت بأن تنادى بهزاد ، فأمسكت جديتها بيدها وطلبت اليها أن
تصمت ريثما يتفرق القوم ونهضت وأشارت اليها أن تتبعها بخفة وهدوء ،
فاطاعتها ومشيت وركبتها تتلاطمان ولا تكادان تحملانها ، وكذلك اصططكت
أسنانها كأنها أصيبت بتشنج

ولم تتوسطا الطاق حتى رأتا القوم قد امتطوا خيولهم بعد أن صافحوا
بهزاد وودعوه وانصرفوا ، وبقي هو وحده فاتجه الى مربيط جواده ليركبه ،
ولكنه سمع وقع خطوات تتبعه فالتفت فرأى شبحين بلباس النساء ، فاتجه
اليهما بهدوء ورباطة جاش وقال : « من أرى ؟ »

فركضت ميمونة نحوه وأمسكت بذراعه وصاحت : « أنا ميمونة ، وهذه
جديتي عبادة »

فشعر بهزاد برعديتها فتجلد وقال : « وما الذي جاء بكما الى هذا المكان ؟ »
فقالت عبادة : « جئنا للبحث عنك فقد بلبت خاطرنا بغيابك ، وقد
أصيبت مولاتنا بنت المأمون بحمي ولا تقبل أسيا غيرك ، فلما أبطأت لم نر
أحدا أولى منا بالبحث عنك لأننا نعرف منزلك وطرقك »

فأطرق وهو ممسك لجام الفرس بيده والصندوق باليد الأخرى ثم قال :

« وما الذى جاء بكما الى هذا المكان بالذات وكيف عرفتما أنى أجيء اليه ؟ »
فقالت ميمونه . « قد ساقننا اليه العناية . والحديث فى ذلك يطول وأنت
الآن فى حاجة الى الراحة ونحن كذلك »

فقال : « هلم الى المنزل » . تم النعت الى عبادة وقال : « أظنك أكثرنا تعباً
فاركبى الفرس ونحن نمشى بجانبه »
فقالت . « لا يركب فرسك سواك . لكن الى أين نذهب ؟ »
قال : « الى المنزل »

فقالت : « الى المنزل فى المدائن ؟ » . قال : « نعم »
فأمسكت يده بكلتا يديها وقالت : « لا بالله . لا تذهب الى هناك »
قال : « ولماذا ؟ » . قالت : « لأن فى الذهاب خطراً عليك »
فاجابها وهو لا يزال ماسباً : « وأى خطر ؟ »
قالت : « رأينا الجند والعيارين قادمين للبحث عنك فى منزلك » . وقصت
عليه ما شهدته الى أن قالت : « فأخاف أن يصيبك سوء »
فقال : « أنت تحافين وأما أنا فلا أخاف ! »

فقالت : « بالله أطعنا . وتعال نذهب معاً نحو الشاطئ فان الحراقة فى
انتظارنا هناك »

فقال : « لا بد لى من الذهاب الى منزلى يا خالة »
وهمت ميمونة بأن تتوسل اليه أيضاً ليرجع عن عزمه ، فاذا بهم يسمعون
وقع أقدام مسرعة . فالتفتوا جميعاً فرأوا شبيحاً قادماً نحوهم من جهة المدائن ،
فأجفلت ميمونة وصاحت : « ويلاه أظنه واحداً من العيارين »
فسمعت الرجل يقول : « كلا لست منهم »

فعرفوا صوت سلمان فدهشوا وصاح بهزاد : « سلمان ؟ »
قال : « نعم يا مولاي » . وكان قد وصل اليهم وهو يلهث من سرعة
الركض فابتدره بهزاد قائلاً : « ما وراءك ؟ »

فقال بصوت متقطع : « ان المنزل يا مولاي محاط بالجند والعيارين وهم
جماعة كبيرة أرسلهم الأُميين لياخذوك »

قال : « وكيف أتيت المدائن ورأيت ذلك ، وعهدى بك فى بغداد »
قال « علمت بهذا العزم من مصدره ، فاحتلت فى الخروج بأسرع
ما يستطيع الناس حتى أدركت المنزل وقد سبقونى اليه ، ورأيتهم محيطين

به يتشاورون في فتحه ، فعلمت انك لست في داخله ، وتذكرت انك تأتي
الأيوان في بعض الأحيان فأتيت لعل أراك وأنذرك بالخطر ،

قال : « وهل أفر ؟ »

قال : « وهل تلقى بنفسك الى التهلكة ؟ »

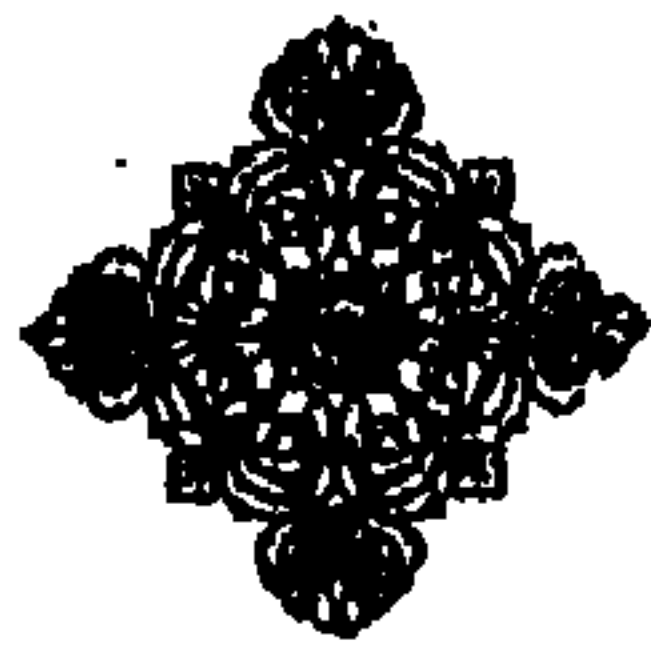
قال : « هذا لا يكون فاذهب أنت بهذه الحالة وميمونة الى الحراقة . أما أنا
فلا بد من ذهابي الى المنزل لأمر مهم ، فاذا لقيت فيه جندا فالله يحكم بيني
وبينهم »

فلم تعد ميمونة تقوى على السكوت وكتمان ما في خاطرها فقالت : « وهل
نحن خائفون على حياتنا ؟ وحياتك هي العزيزة . ان حياتك عزيزة يا سيدي
... اتظننا لم نسمع حديثك ؟ لقد عرفنا مهمتك وفي نفسي من هذا
الصندوق شيء أحب الاطلاع عليه »

فقال : « ربما أطلعتك فيما بعد ، وأما الآن فلا بد من الذهاب الى البيت .
اني لم أعود الفرار »

فازدادت ميمونة اعجابا به ، ولم يروا بدا من اطاعته فقالوا : « نسير
جميعا حيثما تشاء ويصيبنا ما يصيبك »

فمشى وسلم زمام الفرس الى سلمان ، وأراد هذا أن يحمل الصندوق عنه
فأبى . ومشى عبادة تتأقل في خطاها وتبسالخ في اظهار عجزها وكذلك
سلمان وميمونة كأنهم مساقون الى القتل مكرهين ، وبهزاد يجاريهم ويتأني
في خطاه



بين ميمونة وبهزاد

مشت ميمونة مع جدتها وبهزاد وسلمان ، وهى سابعة فى بحار من الهواجس تراجع ما سمعته وراته فى الطاق ، وكلما تصورت مساعى حبيبها فى نصره الفرس اختلج قلبها فرحا ، ثم يعترض فرحها ما تخلل أقواله من تلميحه بالذهاب الى خراسان فتنبض نفسها ، وهى مع ذلك لاتعلم محلها من قلبه

وقطعوا مسافة الطريق والظلام شامل وهم سكوت يمشون الهوينى ، وكل منهم يفكر فى أمره ويتشأغل بتحسس الطريق لأن أكثرها وعرا . وكلما اقتربوا من البلدة تطلعوا الى ما عساه أن يكون من أمر أولئك الجند . فلما دخلوا الأسواق استأذن سلمان فى السير أمامهم ليستطلع حال المنزل فمضى ثم عاد وقال : « لقد جلا الجند عن البيت بعد أن كسروا أبوابه ونهبوا ما فيه » فقال بهزاد : « لايهمنى مما فى البيت الا شئ واحد أرجوا أن يكونوا قد أبقوه »

فظنه سلمان يعنى كتبه وأوراقه فقال : « انهم أخذوا الكتب ومزقوا الأوراق »

فقال : « وهذا لايهمنى » . وظل ماشيا وهم يتبعونه حتى وصلوا الى المنزل ، فراوا الباب مكسورا فدخلوا منه ، وسبقهم سلمان الى غرفة يعهد فيها مسرحة فاضاء السراج وعاد ليضئ طريقهم ، فراوا آثار النهب ، وظل بهزاد يسير والصندوق بيده وهو يتفرس فى الأرض ، فمروا فى باحة كبيرة فيها كثير من الآثار الدالة على أن البيت بنى على انقاض إيوان سابور ، حيث كان المنصور يقيم قبل بناء بغداد ، ثم استطرقوا من الباحة الى باب البيت الداخلى فراوه مفتوحا فدخلوا وبهزاد يمين فى اظهار عدم اكتراثه بما اصاب بيته من النهب . وبينما هم يسيرون فى الدهليز رأوا بهزاد تحول عنهم الى كوة فى جداره الايمن فتناول منها معولا كان هناك فدفعه الى سلمان وقال : « احتفظ بهذا » . وبدأ البشرى فى محياه ومشى ليلتفت الى شئ حتى دخل غرفة كبيرة فى وسط المنزل ، فى أرضها بساط عليه تراب من اثر المشى وأوراق مبعثرة من اثر النهب ، وعلى جوانبها وسائد ، فأشار الى عبادة وميمونة بالجلوس ، وأمر سلمان أن يتبعه ودخلا من باب فى صدر الغرفة الى حجرة وأغلقا الباب وتركوا السراج فى الغرفة

فلما خلت ميمونة الى جدتها نظرت اليها فراتها تلهث من التعب والعرق قد بلل خمارها وهي في حاجة الى الاستراحة فتمنت ان تنام فتغتنم الفرصة لمحادثة بهزاد . فتشاغلت عنها ولم تخاطبها في شيء فراتها تكبو وتتأهب من النعاس فقالت لها : « توسدى ياسيدتى واسثريحى » . ونهضت فأتتها بوسادتين فاستلقت عليهما وقالت : « اذا خرج بهزاد فأيقظينى » . فوعدها بذلك



ولم تمض دقائق قليلة حتى نامت عبادة ، وظلت ميمونة وحدها وكأنها في بحر تتقاذفها أمواجه لاستغراقها في البحث عن سبب تنتحله لمخاطبة بهزاد . وفيما هي في ذلك فتح باب الغرفة فأجفلت والتفت فرات بهزاد خارجا وقد بدل ثيابه فالتف برداء خفيف واعتم بعمامة صغيرة . وخرج سلمان في اثره والمعول بيده فأشار اليه بالخروج بمعوله فخرج ، وظل بهزاد واقفا ، فوقفت ميمونة احتراما له وهي مطرقة حياء وهياما ، فالقى يده على كتفها وقال : « اجلسى يا ميمونة يا بقية البرامكة »

فلما سمعته يذكرها بأهلها ويظهر لأول مرة انه يعرف نسبها ، خجلت وجلست وقد ارتج عليها . فبادر الى وسادة ثناها وأشار اليها ان تجلس عليها وقال : « أقعدى على هذه الوسادة يا ابنة جعفر »

فازدادت ميمونة استغرابا من هذا التصريح ، وتجلدت حتى لاتضيع هذه الفرصة منها وقالت وهي مطرقة وقد توردت وجنتاها : « اراك تخاطبنى بكنية جديدة ؟ »

فقال وهو يتناول وسادة اخرى ليقعد عليها : « انى اخاطبك باسمك الحقيقى وان كنت تحسبىنى اجهله . رحم الله جعفرا واحياه »

فرفعت بصرها اليه وقد ابرقت عيناها بما غشسيهما من ماء الحب وقالت وصوتها يتقطع من شدة تأثرها وهي تحاول اخفاء ذلك بالابتسام : « هل ترجو قيامة الاموات في هذه الدنيا ؟ »

قال : « ان لم يحى جسده فسيحيا بذكره . ان جعفرا لم يميت يا ميمونة لان الرشيد قتل جسده ولا سلطان له على ما خلفه من الذكر الحميد ! »

فقالت وقد انقبضت نفسها عند ذكر مقتل أبيها : « انى اشكر احسانك بمجاملتك ياسيدى ، فانك طالما احسنت الينا وستررت فقرنا » . قالت ذلك شرقت بدموعها

فلما رآها تبكى تفطر قلبه وكاد يبوح بما في نفسه ، ولكنه لم يكن يرى التصريح بحبه في ذلك الحين فغالطها وقال : « ان فضل جعفر واحسانه شمل

الملا كافة ، وما من مسلم أو غير مسلم الا هو مدين له . فادا وفينا بعض الدين فلا فضل لنا في ذلك »

فلم يعجبها هذا الجواب لأنها كانت تتوقع أن يقول كلمة غير هذه . كانت ترجو أن تسمع منه كلمة الحب . فخافت أن يكون ضمير «ا خانها فتنهدت وسكتت وأرسلت يدها الى وجهها واخذت تمسح عينيها باناملها . فأمسك معصمها ورفع يدها عن وجهها وقال وصوته يكاد يخنق : « ما بالك تبكين ؟ » فقالت وهي لا تزال مطرقة وقد احست بمجرى كهربائي يجرى من يده الى كل عروقها : « انى حزينة ياسيدى دعنى افرج كربتى ! » فقال : « وما سبب حزنك ؟ »

قالت : « اتسألنى عن حزنى وانت تعلم سببه ؟ . وهل هناك أتعس من فتاة يتيمة الابوين ، تخاف أن يعرفها الناس ؟ . ان انسأبى الى جعفر بن يحيى وبقائى حية بين هؤلاء الأقوام من اكبر اسباب شقائى » . قالت ذلك وجذبت يدها من يده وغصت بريقها

فاخذ بدها بين يديه وهو يغالب حبه وقال : « معاذ الله ان تكونى تعسة » فحاولت اخراج يدها من بين يديه وهي تقول : « بل انا تعسة ، وكيف لا اكون كذلك وقد عرفت الليلة أن . . . » . وأمسكت عن الكلام ونظرت اليه فاذا هو يتفرس في عينيها ويتجاهل غرضها والهوى يكاد يشف عن سريره . ومخاطبة العيون افصح من مخاطبة اللسان

العين تبدى الذى فى قلب صاحبها	من الشنأة او حب اذا كانا
ان البغيض له عين يصدقها	لا يستطيع لما فى القلب كتماناً
فالعين تنطق والافواه صامته	حتى ترى من صميم القلب تبياناً

فأدركت ميمونة من تلك النظرة ان بهزاد يحبها ، ولكنها احبت ان تسمع ذلك من فيه فحولت نظرها عنه الى جدتها وكانت قد استغرقت في النوم وقد علا صوت غطيظها ثم اطرقت وسكتت ، فابتسدرها ، قائلاً : « اكملنى حديثك . قولى ما هو الذى عرفته الليلة يا ميمونة ؟ »

قالت : « ان ذكره يؤلمنى . دعنى وشأنى . لا احب ان تهتم بى . فانك فى شغل شاغل عن مثلى بما أنت فيه من المطالب الخطيرة . فلا اريد ان اشغلك بما تحدثنى به نفسى من أحلام الصبا »

فقال : « لعلى مشتغل بمثل هذه الاحلام ! »

فرفعت بصرها ونظرت اليه نظرة عتاب وهيام وابتسمت والدمع يترقرق فى عينيها وقالت : « اعذرنى ياسيدى على تطفلى وصغر نفسى . انى على يقين من خيبة املى ، وحاشا لبهزاد القائد العظيم أن يقع فيما وقعت فيه ، فان اشتغاله بجمع الاحزاب لقلب الدول واستنهاض الامم ينرعه عن الالتفات

لفتاة مثلى . قد تقتضى مساعيه ان يدوس الجماجم ويقتل المئات فهل يبالي
قلب فتاة يتيمة مسكينة مثلى ؟ » . وكانت يدها لا تزال بين يديه فاجتذبتها
وغطت بها وجهها واخذت في البكاء

فلما سمع قولها ورأى بكاءها غلب عليه الهيام ولكنه تجلد وقال : « وهل
تريدن ان أمسك عن السفر ؟ »

فتنهدت وقالت : « آه ! . حبذا ذلك ، ولكن ما الفائدة لى من بقائك ؟ ..
سأكون سعيدة بارجائك السفر ولكن .. » . وسكتت . فقال لها : « ولكن
ماذا ؟ »

فعظم عليها صغر نفسها والتجاؤها الى الحيلة فى استطلاع حبه ، فغلبت
عليها الانفة ونقمت على نفسها فاسترجعت رشدها وحدثتها نفسها بان تجافيه
فنهضت وهمت بالخروج فأمسكها بطرف ثوبها وقد استغرب نفورها فجأة
وجذبها نحوه وهو يقول معاتبا : « الى اين يا ميمونة ؟ »

فقالت وهى لا تلتفت اليه : « دعنى يا بهزاد » . قالت ذلك وهى تحاول
التملص منه

فقال : « اقعدى يا ميمونة ، لاسبيل الى الذهاب الآن ، فانك غريبة هنا
ولا منزل لك تلجئين اليه »

فأثر قوله فى نفسها وتذكرت مصائبها فوقفت وغطت عينيها بكفيها
واطلقت لنفسها عنان البكاء

فرق لها قلبه وسكت وقد كاد يخنق ، ووقع فى حيرة وهو يتجلد فى كتمان
احساسه وقال : « كنت تريدن ان تقولى شيئا . فما هو ؟ »

فظلت واقفة وهى تغالب عواطفها وتحاول كتمان هيامها ولا تجد الى ذلك
سبيلا ، وشعرت بأنها مغلوبة على امرها فاصطكت ركبناها ولم تعد تستطيع
الوقوف فقعدت وهى تتشاغل بمسح عينيها بطرف كمها ، ثم نظرت الى عينيها
فراحت فيهما شيئا يكاد ينطق بمكنونات قلبه ، فهمت بان تصرح بما ترجوه منه
فغلب عليها الحياء ، فاذا هو يتنسم لها وعيناه تبرقان وجدا وهياما فبقيت
ساكنة

اما هو فاستأنف الكلام قائلا : « قولى يا ميمونة .. قولى »

واختنق صوته ، فنظرت اليه وقد احمرت عيناها وذبلت اجفانها فازدادتا
سحرا وفتنة وقالت : « اراك تبالغ فى المجاملة ، كفى ياسـيـدى .. كفى
استخفافا بى . قل انك لا يهـمك امرى وهذا يكفيك مؤونة الاهتمام بى ! »

فقال : « بل امرك يهمنى كثيرا . الا يشعر قلبك بذلك ؟ اراك تتجاهلين
اكثر من تجاهلى ام انت لا قلب لك ؟ » . واخشوشن صوته

فأبرقت اسرتها وحدثت فى عينيها كأنها تستطلع حقيقة ما يعنيه ، ثم

ابنسمت والدمع يجول في عينيها ، وتجلدت والحياء يغالبها وقالت : « ايها
أمرى كثيرا ؟ . اذن قل انك . . » . وسكنت ففهم مرادها وتظاهر بأنه لم
يفهم فقال : « ماذا اقول يا ميمونة ؟ قولى انت اولا ! »

فقالت : « وهل تحتاج حالى الى قول وهذه دموعى تقول عنى ، فقل انت ،
قل بالله انك تحبنى ، اودعنى وشأنى ! » . قالت ذلك وحولت وجهها عنه
وهى تكاد تخنق من تضارب الحب والخجل وخوف الفشل

فلم يعد بهزاد يستطيع امساك هواه ولكنه فكر فيما هو فيه من مهام
الامور ، فخاف ان يحول الصريح دون مشروعه فقال : « ان ذلك لا يحتاج
الى تصريح . نعم انى احبك ! »

فلما سمعت تصريحه غلب عليها السرور حتى كادت تضحك فغصت
بالضحك ، كما كانت تغص بالبكاء ، وتساقطت دموعها ولم تتمالك ان صاحت :
« انت تحبنى يا بهزاد ؟ . تحبنى ؟ . . حقيقة ما اسمعه ام وهم ؟ . وهل انا
في يقظة ام فى منام ؟ حبيبى بهزاد انت تحبنى ؟ »

فلما رأى لهفتها تذكر مهامه ، فدا الاهتمام فى وجهه وقال : « نعم انى . . » .
وبلع ريقه وحك ذقنه وسكت

فخافت ان يكون قد ندم على ما قاله فنظرت اليه وقد امتزجت فى عينيها
ملامع الخوف والرجاء وقالت : « مالك ؟ اراك تردد . ماذا جرى ؟ . الا
تحبنى ؟ »

قال : « بل احبك ولكن . . » . قالت : « ولكن ماذا ؟ »

قال : « ولكن اسمحى لى ان اقول شيئا آخر . . »

قالت رفد بار الوجمل فى محياها : « اما وقد قلت انك تحبنى فقل بعد ذلك
ما شئت . ولكن لا . . تمهل . . لا تقل . . اخاف ان تهددنى بالفراق ! »

قال : « لا اهددك به ولكنه شرط من شروط حبك »

فنظرت اليه شذرا وقلبها بخليج وفى عينيها امارات العتاب وقالت بصوت
خافت : « اراك تشرط فى الحب . وانا احبك بلا شرط »

فأمر به رجلا من تلاميذها اللطيف تم رفع بصره اليها وقال : « صدقت .
لاخير بين الحب اذا تقيد بشرط . ولكنى اشترط امرأ فيه نفع لك ، فائدنى لى
فى ذكرى اذ ليغنى فيه »

فالتفت : « انى احببتك بلا شرط ، ومن مقنضيات هذا الحب المطلق الا اضع
عائقا فى دارى حاك ناث شرط ما شئت »

فقال : « قد علمت الان انى مسافر . فاذا سافرت فانما اسافر فى خدمتك .
وقد نعت سبين انك عرفت امرى وسهل عليك الحكم على مستقبلى . سمعت
انى رسول من جماعة الظرمية . . انى لم اكذب ولكنى اكثر من ذلك . واقول

والاسف ملء فؤادى لا أستطيع التمتع بهذا الحب الا بعد الانتقام فاذا بقيت حيا وعدت ظافرا فتلك هى السعادة اذ اكون انتقمتم لابيک وللقنيل قبله ، والا فلا حيلة لى فى دفع الاقدار . ولا اجهل ان الشرط صعب عليك بل هو ظلم منى ولكن لاخيرة فى الواقع »

قال ذلك ونهض وهو يقول : « انهضى الآن الى فراشك »

فنهضت وقلبها يرقص طربا ، وان كان قد ساءها خبر فراقه ، ولكنها سرت لسعيه فى الانتقام لآبيها ، وشغل ذهنها بما قاله عن نفسه من انه اكثر مما عرفت عنه ، فقالت فى نفسها : « من عساه ان يكون ؟ » . ولكنها لم تجسر على سؤاله فاطاعته وهمت بالذهاب الى الفراش . فاشا ربهزاد الى حجرة وحمل المصباح بيده ومشى بين يديها وهى تتبعه وافكارها تائهة ، فدخلت الحجرة وفيها سرير عليه فراش من جلد فوقه وسادة وغطاء فقال : « هذا هو فراشك الليلة » . ورجع والمصباح فى يده ولم تمض هنيهة حتى توارت اشعة ذلك المصباح عنها فنزعت الحمار ونامت



توسدت ميمونة الفراش واستولى السكوت على البيت وخيم الظلام فلما خلت الى نفسها تذكرت ما مر بها منذ ان اختبأت فى الايوان الى ان اطمأن قلبها ووثقت من محبة بهزاد . ثم تنبعت للصندوق الذى رآته بيد بهزاد فازدادت رغبته فى معرفة ما فيه

فقضت ساعة او ساعتين وهى تتقلب على الفراش واجفانها لا تغمض وطال ارقها حتى ملت الوساد وحدثتها نفسها ان تنهض فأقعدتها الظلمة

وفيما هى على هذه الحال من الارق والقلق وقد زادها السكوت وحشة ، سمعت حركة وراء الحائط فأصغت فسمعت ضرب معول فى الارض فخفق قلبها وظنت انها واهمة ، ثم سمعت همسا فنهضت مذعورة والتفتت الى جدران الحجرة فرأت فوق سريرها نافذة صغيرة يسدو منها بصيص نور ضعيف . فأخرجت رأسها من النافذة فرأت خلاء بين البيت والصور على أرضه مصباح عرفت انه مصباح بهزاد ، ورات رجلا طويلا قد حسر عن ساعديه وشمر عن ساقيه وكشف رأسه ويده معول وامامه حفرة وقد اخذ ينبش بمعوله ، وامامه رجل آخر عرفت انه بهزاد ، وتفرست فى صاحب المعول فاذا هو سلمان . فازدادت دقات قلبها وارتعدت حتى كادت تسقط ، فتجلدت وأسندت نفسها الى النافذة وهى تحاول ان تختبئ لئلا يراها بهزاد . وتربصت فسمعت بهزاد يقول : « لابد ان يكون هنا . احفر ايضا »

فقال سلمان : « أخاف أن تكون مخطئا ياسيدي فقد أخرجنا ترابا كثيرا ولم أجد أثرا للجثة »

فقال : « لا . . لست مخطئا . ألم يكن هنا إيوان سابور ؟ » . قال : « بلى »
قال : « قد أكد لي ذلك الشيخ الهرم أن المنصور كان يجلس في قاعة
الأيوان حيث هذا البيت الآن ، وأنهم دفنوا الجثة في بستان الأيوان . ولا يمكن
أن يكون البستان في غير هذا الحلاء . وقد نبشنا كل بقعة منه ولم يبق غير
هذه . فاحفر »

قال : « ليت الشيخ كان معنا الليلة فيهدينا الى مكان الجثة »

قال : « ألم أقل لك أنه مات ؟ ولكنه والحمد لله بقي حيا حتى دلنا على
المكان ، وهو على ثقة من قوله لأنه عاش في عهد المنصور شابا وأصابه مما
رأى جزع بقي أثره في ذهنه لم ينسه طول عمره . احفر . اننا على هدى »
فعاد سلمان الى الضرب بمعوله وجرف التراب الى الخارج وهو يقول :
« انى لا أرى أثرا للجثة يا مولاي »

وكان بهزاد في أثناء ذلك يحدق فيما يخرج من التراب ، ثم انحنى وقبض
على قطعة من نسيج نفخ التراب عنها وقال : « أليست هذه قطعة من ذلك
البساط ؟ »

فأمسك سلمان عن الحفر وتناول النسيج وقد تهرا وتقطع وقال : « بلى .
بلى . . انها جزء منه » . وعاد الى الحفر بهمة ونشاط وميمونة تنظر اليه
وتستغرب حركاته

وبعد أن حفر برهة تعب وتصيب العرق عن ساعديه ووجهه فوقف وأسند
يده على المعول وتنهد تنهدا شديدا ، فابتدريه بهزاد قائلا : « لقد تعبت ولكن
لا بد لنا من اتمام عملنا في هذه الليلة . هات المعول » . ومد يده فتناول المعول
وأخذ يحفر بسرعة ونشاط ، ثم سمعت ميمونة صوت ارتطام المعول بجسم
صلب كأنه أصاب حجرا ، ورأت بهزاد توقف عن الحفر ومد يده فأخرج
قطعة عظم مستطيلة وصاح : « هذه ساقه أو فخذه . ابشر يا سلمان »

فتقدم سلمان ونزل الى الحفرة بنفسه وجعل يجرف التراب ويبحث فيه
حتى عثر على شيء تناوله بين السبابة والابهام ودفعه الى بهزاد وقال : « هذا
خاتم »

فأخذ بهزاد الخاتم وتقدم الى المصباح وتفرس فيه وقال : « انه خاتمه
بعينه »

قال : « وكيف عرفت ذلك يا سيدي ؟ »

قال : « ألا تذكر انه لما استقدمه المنصور من خراسان أوصى كاتبه بأنه اذا

جاءه كتابه وعليه خاتمه كاملا لا يعمل به ، وإنما يعمل بالكتاب اذا كان عليه نصف الخاتم فقط ؟ » . قال : « بلى »

قال : « انظر ان اسمه على الخاتم ممحو من احد جانبيه . فهو خاتمه وهذه هي ساقه فابحث عن الجمجمة »

فأخذ سلمان يحفر بيده ويخرج قطعة من اقمشة متهرئة او من عظام نخرة واخيرا اخرج الجمجمة وناولها الى بهزاد ، فنفض التراب عنها وقد بدا البشر في وجهه يتخلله انقباض ، ثم امتقع لونه وقال : « هذا هو رأسه . هذا هو رأس المقتول ظلما ! ان عثورنا عليه يساوى نصف الخلافة ، واذا انتقمنا له فقد نلنا الخلافة كلها » . وما تمالك ان قبله واكب سلمان عليه فقبله واخذ يمسح التراب عنه بطرف ثوبه بلطف واحترام ، وبهزاد واقف ينظر الى الرأس وقد تغيرت سحنته وتجلى الغضب في عينيه ، فابتدره سلمان وقال : « أهنيك ياسيدي بما توقعت اليه فقد وقعت على ضالتك وكفى الآن . فاذا شئت رجعنا الى المنزل فقد كان هذا الليل شاقا عليك » . قال ذلك وتحول الى المصباح فحمله باحدى يديه والجمجمة باليد الاخرى ، ومشى بهزاد في اثره وقد تولاه السكوت والفضب كأنه أصيب بجمود

اما ميمونة فلما رأتها يتحولان الى المنزل قعدت على فراشها وقد انهكتها التعب وازدادت هواجسها وتهيبت من الخروج الى بهزاد في تلك الساعة للاستفهام عن سر ما شاهدته وصبرت نفسها الى الصباح

وقضت بقية ذلك الليل كأنها في بحر هائج ، ولم تغمض عينها الا قبيل الفجر ففرقت في النوم ولم تستيقظ حتى أيقظتها جدتها ، ففتحت عينيها فرأتها واقفة عند رأسها تقول لها : « قومي يا ميمونة اننا على أهبة المسير »



العودة إلى زينب

نهضت ميمونة مدعورة تلوم نفسها على التأخر، وتلثمت بخمارها واحتدت نعالها ومشيت في أثر جدتها حتى خرجتا من الدهليز، فسمعت صهيلا فالتفتت فرأت بهزاد على جواده وقد تزمّل بعباءته وجعل الصندوق بين يديه على القربوس، والتفت الى ميمونة وعبادة وأشار إليهما إشارة الوداع وأوما الى سلمان قائلا: « اذهبا مع سلمان ». وهمز جواده

فاحست ميمونة كأن قلبها قد نزع من مكانه وهمت بأن تستوقف بهزاد فاذا به قد ساق جواده مسرعا، فبهتت وكاد الدم يجمد في عروقها، ونسيت موقفها وبكت، فأمسكت جدتها بيدها وقالت: « هلم بنا فالقارب في انتظارنا على الشاطئ ». واما الطبيب فانه سيوافينا الى قصر المأمون »

فمشيت وقد تولتها الدهشة وعيناها شائعتان نحو بهزاد حتى تواري، وجدتها لا تعلم بما يكنه قلبها او لعلها علمت بعضه وتجاهلت رفقا بعواطفها وترفعا عن الميل الى الاستطلاع والسؤال كما يفعل العجائز اللاتي يجدن في الحديث عن الآخرين لذة. أما عبادة فقد ربيت في بيت رجل كبير وتعودت معاناة العظائم ومشاهدة الغرائب وانقطعت لتربية ميمونة وتولت كفالتها ولازمتها ملازمة الظل فلا تخاف عليها ان تأتي أمرا لا ترضاه لها، ناهيك باعجابها بهزاد وإشاره على الجميع

فسارتا الهوينى الى الشاطئ وسلمان بلباسه الاصلى وقد التف بعباءته، حتى اقبلوا على دجلة فراوا الحراقة في انتظارهم فركبوها وامروا الربان فأدار الدفة نحو بغداد وارخى الشراع. وجلست عبادة بجانب حفيدتها على مقعد في صدر الحراقة وكل منهما في هاجس. وجلس سلمان بالقرب من الربان يتلفت نحو الشاطئ على الجانبين كأنه يراقب أمرا يتوقع حدوثه وما جرت السفينة ساعة حتى ظهرت حراقة قادمة من بغداد تشق عباب الماء وعليها علم عرفه سلمان انه علم الفضل بن الربيع، وان السفينة من سفنه فأوجس في نفسه خيفة، وأسرع الى ميمونة وعبادة، وأشار إليهما ان تنزلا عن المقعد وتستترا. فلما رأت ميمونة اشارته ولهفته خافت ونزلت وجدتها وعيناها ترأعيان الحراقة الاخرى، وكانت قد فرشت بالسجاد والوسائد. ووقف فيها جماعة من الخدم، بينما تصدر المجلس شاب جميل

الخلقة عرفت عبادة انه ابن الفضل والتفتت الى ميمونة فرأتها تنظر اليه فلما تحققت انقبضت نفسها وضاحت وامتنع لونها واغضت بصرها

اما عبادة فنظرت الى سلمان كأنها تستوضحه ، فابتسم تشجيعا لها وقال بصوت منخفض : « لا تخافى يا مولاتى ان هذا الغلام لا يجرؤ على امر ونحن فى حراسة مولاى المأمون »

فقلت : « وماذا يفعل لو كنا فى سواها ؟ »

قال : « ربما اوقفها واستفهم عن فيها لانه ذاهب الى المدائن للبحث عن . واوما بعينيه الى ميمونة

فقلت : « قبحه الله الا يزال على عزمه ؟ »

فقال : « وقد استشار المنجمين واستكتبهم الارصاد التماسا لمحبتها ، فقالوا له انها خرجت من المدائن فكأنه لم يصدق قولهم فذهب ليتحقق ذلك بنفسه »

وسمعت ميمونة سلمان وتجاهلت حياء وانفة ولكنها عجبت لاطلاع سلمان على خبرها مع ابن الفضل وتركت الكلام لجدتها فقالت هذه : « خسى النذل انه لا ينال قلامة من ظفرها ما دمت على قيد الحياة »

وكانت حراسة ابن الفضل قد حاذت حراقتهم ووقف بعض الخدم على حافتها يتفرسون فى ركبائها فلم يقع نظرهم على غير سلمان وميمونة ترتعد خوفا وكرها فلما تجاوزتهم اراد سلمان ان يعيث بالفتاة ليخفف عنها فقال : « ارى مولاتى تنفر من ابن الوزير وهو يكاد يموت شغفا بها ؟ ! »

فرفعت نظرها اليه لترى ما يرمى اليه ، فرأته يبتسم فقالت جدتها : « اننا لانريد النظر الى هذا الشاب »

فقطع كلامها وقال : « ولا الى ابيه »

وكانت عبادة تظن سلمان يجهل حقيقة حالهمسا ، فلما سمعت ما قاله استغربته ورننت اليه كأنها تنكر عليه قوله ، فابتدرها قائلا : « يحق لك يا مولاتى ان تكرهيه وتكرهى اباه ، ولا تعجبى لاطلاعى على سبب هذا الكره فانى خليفة مولاى الطبيب فى نصرتكما . فاركنا الى وثقا بى فانى خادم لكما ! » فلما سمعت عبادة قوله توسمت الصدق فى لهجته فاطمان بالها . واما ميمونة فلما سمعت ذكر حبيبها ، سألتها وهى تظهر السسذاجة : « لعل لطبيب مسافر ؟ »

قال : « نعم انه مسافر للبحث عن بعض العقاقير الطبية » . وضحك فأدركت ميمونة انه يمازحها ، وانه لاشك عارف بأسرار مولاه ، فابتسمت وقد استأنست به وارتاحت الى خفة روحه وقالت : « هل تظنه يعود قريبا ؟ » فأجابها وهو يضحك : « انك تسألين هذا السؤال قلقا على مولاتنا بنت

لما مون لأنها لا ترضى علاجاً إلا من يده . بارك الله فيك . اظنه سيسافر عما قريب ، ولا أجزم لأن الطبيب يعمل ولا يطلع أحداً على ما اعتزم »

فقالت عبادة : « يلوح لى أنك تتجاهل ياسلمان ، فإن الطبيب لا يخفى عليك شيئاً . وانت تقول أنك لا تعلم موعد سفره »

فلما رآها تجد في قولها أراد أن يغالطها لئلا تعتمد على قوله فيكون قد باح بما يعلمه وإن كان لا يخاف عاقبة اطلاعها عليه فقال : « ان مولاي الطبيب حريص على مقاصده ضنين بما يكنه ضميره ، وإذا كان ينوي سفراً فإنه لا يكشفني به فعله كاشفك بذلك يمولاتي ؟ » . قال ذلك ووجه كلامه الى ميمونة

أما هذه فاحترست كما احترس هو ، ومنعها الحياء من الخوض في هذا الشأن ، فأطرقت وتساعد الدم الى وجهها فتوردت وجنتاها ، فاكتفى سلمان بذلك وأراد تغيير الحديث فتحول الى الربان وقال له : « لعلنا قربنا من بغداد ؟ »

فأجابه وهو يشير بأصبعه الى الامام : « ليست هذه قصور كلوادة »

فالتفت سلمان وتفرس في الافق وقال : « بلى انى ارى ابنيصة البلدة عن بعد ، اذن نحن على مقربة من دار السلام »

قال : « نعم نحن على مقربة منها ، ولا نلبث ان نرى مثدنة جامع المنصور ثم نشرف على قصر مولانا »

ولما سمعت ميمونة ذكر القصر تذكرت دنانير وزينب وكيف ذهبت مهمتها في استقدام بهزاد الطبيب عبثاً . وأخذت تفكر فيما تقوله لدنانير : هل تخبرها بالامر أم تكتم ما اطلعت عليه . وفيما هي تفكر في ذلك دنا منها سلمان وقال موجه خطابه الى عبادة : « لا يخفى على مولاتي ان ما شاهديناه الليلة من حال مولانا بهزاد يجب أن يبقى مكتوماً »

فقالت عبادة : « وماذا تقول لدنانير اذا سألتنا عنه ؟ »

قال : « نقول اننا لم نجده في بيته » . فقالت : « حسنا »



كانت دنانير صباح اليوم السابق بعد ذهاب عبادة وميمونة قلقة على زينب تنتظر رجوعهما بالطبيب . فانقضى النهار وهى في انتظارهما على احر من الجمر . على ان الفتاة ما لبثت ان تحسن حالها وبرحت الفراش كأنها لم تكن تشكو مرضاً ، وانتظرتا رجوع عبادة وميمونة في الصباح فلما مضى نصف اليوم التالى ولم يأت أحد قلقت دنانير وحسبت لذلك التأخير غير حساب . وفي الاصيل جاء بعض الخدم ينبئها بقدم الحراقه . فخرجت لاستقبالها على

فرفعت ميمونة نظرها اليها كأنها تستعطفها وقالت : « ما الذى اتانا به سلمان ؟ »

قالت : « اتانا برسالة من الطبيب ؟ »

قالت : « وما هى ؟ هل سافر ؟ »

فأرادت دنانير أن تداعبها فقالت : « وهل ذلك قلبك على سفره ؟ . لقد قيل : من القلب الى القلب دليل ! »

فخجلت من هذا التلميح واحمر وجهها ، ولم تكن تشعر بأن دنانير تعلم شيئا مما يكنه قلبها فقالت : « لماذا تقولين هذا يا خالة ؟ . اننى أسأل اهتماما بأمر مولاتنا بنت ولى العهد لعلنى بتعلقها به ! »

فقالت دنانير وهى تبتسم : « بارك الله فى مروءتك . واذا علمت انه سافر فهل يسوؤك سفره اكراما لمولاتنا ؟ »

قالت وهى تظهر السداجة وقلة الاكتراث : « هل سافر حقيقة ؟ »

قالت : « نعم سافر » . ثم تفرست فى وجهها فرأت البغته ظاهرة فيه وقد تحول احمرار الخجل الى صفرة الوجل ، فاستدركت بقولها : « ولكنه يعود قريبا ، لأن قلبه لا يطاوعه على القراق »

فخافت ميمونة أن يفضح أمرها اذا ظلت مع دنانير ، فانصرفت تطلب غرفتها لتخلو الى نفسها ، فلقىها سلمان فى الدهليز . فلما وقع نظرها عليه ابتدرته قائلة : « هل سافر بهزاد حقيقة ؟ »

قال : « نعم يا مولاتى » . قالت : « الى اين ؟ »

قال : « الى مرو فى خراسان حيث مولانا المأمون »

فقالت : « كيف سافر وتركنا ؟ » . وغصت بريقها

فقال : « تركنا جميعا الا انت ، وهذا كتابه اليك » . قال ذلك ودفع اليها منديلا ملفوفا فتناولته ، وعلمت من ملمسه ان فى جوفه كتابا فأشرق محياها وخبات المنديل فى جيبها ، وذهبت الى غرفتها فاستوقفتها سلمان قائلا : « هل تحتاجين الى شيء آخر ؟ »

فأجابته بقولها : « شكرا يا سلمان ، انى لا انسى جميلك ولا غنى لى عن مروءتك »

فقال : « انى رهين اشارتك » . ومضى

وما كادت ميمونة تصل الى غرفتها وتخلو الى نفسها حتى جلست على البساط ، ثم فتحت المنديل وأخرجت منه لفافة من الكاغد — وكان الكاغد قريب العهد بالاستعمال فى التراسل والفضل فى ذلك لابيها جعفر فانه أول من استخدمه فى الدواوين بدل الجلود — ففضت الكتاب وقرأته فاذا فيه :

« من المحب الذي تسمونه بهزاد الى ميمونة بنت جعفر بن يحيى المقتول
ثلما .. »

« اما بعد . فقد كنت اود ان اكتب اليك بلسان اجدادنا العظام لو كنت
تفهمينه ، ولكن قضت صروف الزمان ، ان نتفاهم بلسان امة ظلمتنا وغلبتنا
على امرنا فقتلت رؤساءنا ، واستخدمت قوادنا وحكامنا ، واستتبدت في
شؤوننا . وسياتي يوم نقلب لهم فيه ظهر المجن وناخذ بالشار . فيعلم
الظالمون اى منقلب ينقلبون . وكنت احب ان اراك قبل سفري واودعك وجهها
لوجه لولا خوفي ان يغلبني قلبي كما غلبني اثناء ذلك الاجتماع ففضح سرا
كتمته عدة أعوام وكنت عازما على كتمانها حتى ياتي وقته فأبوح به في يوم
اتي به عملا يؤهلني لحبك . ولكنك ابيت الا ان اقول لك اني احبك فقلت
واقول : اني احبك .. اني احبك يا ميمونة .. احبك حبا مبرحا .. اقول
ذلك الان وانا لا احاذر ان يحول قولي دون ما عقدت النية عليه منذ عرفتك
وقبل ان اعرفك . ولو كنت بين يديك ما قلت ذلك مخافة ان يغلب على الغرام
فأطيعك بل أطيع قلبي فأضيع سعيًا قضيت العمر في اعداده . اما وانا في
مأمن من ذلك فلا ابالي ان ابوح لك بمكنونات قلبي . فاعلمي يامنيتي اني
اوقفت حياتي عليك وعلى الانتقام لأبيك . وما انا بهزاد ولا انا طبيب ولا
كيميائي ولا انا رسول من جماعة او جماعات وانما انا من ستعرفينه وتفتخرين
بحبه . ولا اقول من انا حتى تاتي الساعة ودون الوصول اليها قطع الرقاب
والاستهداف للحراب . اني ذاهب الى خراسان لبدء دعوة من المأمون ولا بأمر
احد من الناس ، وانما انا ذاهب لاتمام امر بدأت به ولا بد من اتمامه ، اني ذاهب
طوعا لصراخ صاعد من أعماق القبور ينادي اهل النجدة ان ينتقموا للمظلوم
من الظالم . واما الصندوق فقد كنت احب ان اريك ما يحويه ولكنني اشفقت
على قلبك . وسأفتح لك الصندوق كما فتحت لك قلبي ولكل اجل كتاب .
أقيم ببغداد في حراسة الله ، وقد اوصيت غلامي سسلما ان يقوم على
خدمتك ، وهو أمين صادق فاعتمد على وثقى به واحتفظي بما اطلعت عليه
حتى ياتيكم النبا الصحيح من خراسان يوم تنقلب الاحوال وينتصر الحق على
الباطل . واذا لم يسعدني الزمان بما ارجوه فاني اموت ناعم البال وقد فعلت
فعل الرجال . وغاية ما يستطيعه الانسان ان يوجد بنفسه في نصره الحق .
والله من وراء ذلك وهو على كل شيء قدير »

وما اتت على آخر الكتاب حتى امتقع لونها وتغيرت سحنتها وكادت تسمع
نبضات قلبها بأذنها وخارت عزيمتها ، وظنت نفسها في حلم . ولما تحققت من
يقظتها طوت الكتاب وخباته في جيبها ، واستلقت على البساط واستغرقت
في بحر الهواجس ، فراجعت في تخيلاتها خلاصة علاقتها بهزاد منذ عرفت
بالمدائن ، وما كان من عنايته بها وبجدتها ، وكانت تحسبه يفعل ذلك رغبة
في الاحسان وانه لا يعرف حقيقتها وقد ظهر لها من ذلك الكتاب انه كان

مشغوا بها عالقاً بحبها فندمت على ما اضاعته من فرصة البوح بالغرام
على انها تذكرت بعض ما جاء في كتابه من الوعد والاشارة فاشتاقت الى
تلاوته فأخرجته واعادت قراءته ثانية وثالثة وهي تحاذر ان يدهمها قادم أو
يراها راء . ثم سمعت خطوات قريبة فأخفت الكتاب واستلقت وهي تتنفس
ثم تباعدت الخطى وعاد السكوت فعادت الى هواجسها ، فراجعت ما ارتسم
في ذهنها من عبارات حبيبها فرأت انه يعرض نفسه لخطر الموت فاختلج قلبها
خوفا عليه وفضلت رجوعه عن عزمه وبقائه معها تتمتع برؤيته . وتصورت
عزمه على الانتقام لابيها فسهل عليها الفراق ، وخيل اليها انه سيعود ظافرا
منصورا فتفاخر به وتعوض عما قاسته من الدل والتستر

على انها تحيرت في امره ومن عساه ان يكون اذا لم يكن بهزاد الطبيب ولا
رسول الخرمية . ولما اعيها التفكير استسلمت الى المقادير ، وصبرت لتري
ما تأتى به الايام ، ثم غلب عليها النعاس وكادت تنام واذا بقارع يقرع الباب ،
فنهضت وفتحته فرأت دنائير وحدها فرحبت بها . فدخلت ضاحكة
وقالت : « مالى اراك وحدك يا بنية ؟ »

قالت : « استلقيت على هذا البساط لأستريح فغلب على النعاس »
فاظهرت انها صدقت قولها وهمت بالخروج وقالت : « نامى يا حبيبتي
تريه في الحلم »

فاستغربت تعريضها وقالت : « ماذا تعنين ؟ »

قالت : « لا تخافى يا ميمونة . ان جدتك غائبة الآن فلا تكتمى . على ان
تكتمك لا ينفعك وانا قهرمانة خبرت الزمان وقرأت الكتاب من عنوانه »
فتوهمت ميمونة انها تشير الى ذلك الكتاب ، فقالت : « واى كتاب تعنين ؟ » .
وبدا الارتباك في وجهها

فقالت : « لا اعنى كتابا مرقوما » . وتحولت اليها بجملتها وقالت : « وانما
اعنى ان دلائل الحب لا تخفى على احد وقد عرفت حبك بهزاد من اول نظرة
ويسوؤنى انه سافر قبل ان . . » . واومات بجفنها

فخجلت ميمونة من ذلك الالماء ولكنها سرت لبقاء امر الكتاب مكتوما عنها ،
وهان عليها مكاشفته دنائير بحبها - وفي المكاشفة راحة للمحبين اذا وثقوا من
كتمان حبيبهم - فابتسمت وأطرقت

فاستبشرت دنائير وهي انما تلتبس ذلك منها لتشاركها السعى في نيل
مطلوبها فألقت يدها على كتفها وأشارت اليها ان تقعد فقعدت وهي تلاطفها
وتهش لها لتجرئها على ان تبوح ، ثم قالت سامح الله طيبينا كيف سافر قبل
ان يتم العقد ؟ . لا تخجلنى يا ميمونة فانك تحبينه حبا طاهرا ولا شك انه
يحبك ايضا . وهو من خيرة الشبان لا حرمك الله منه »

فتجرات ميمونة على الكلام وقالت : « وهل الحب عيب يا خالة ؟ »

قالت : « معاذ الله ! . لم اقل ذلك . فلا يصعب عليك فراقه فانه لا يلبث ان يعود فلا تجزعى »

فتنهدت وسكتت وسرورها باد ثم قالت : « انى يتيمة مسكينة فلعل الله نظر الى ذلى فأراد رفعى ، ولا غنى لى عن عونك لانى فى حماك »
قالت : « انك مولاتى وبنت مولاي ، ولا انسى فضل ابيك رحمه الله ، فأيقنى انى عون لك على كل ماتريدن . وهذه مولاتنا زينب قد احبتك واستانست بك »

ولم تتم كلامها حتى سمعت خطوات مسرعة نحو الحجرة وصوتا مرتجفا ينادى : « أين مولاتنا القهرمانة ؟ »

فعلمت دنائير أن بعض الغلمان جاء فى مهمة ، فصفتت فجاء الغلام حتى وقف بالباب وصاح : « ادخل ؟ » . فقالت : « ادخل »
فدخل وحيى ، فصاحت به : « ما وراءك ؟ »

قال : « ان شاكرىا بباب القصر يقول انه يحمل كتابا اليك »
فقالت : « شاكرى ؟ وما شأن الشاكرية عندنا . انهم رسل الخليفة وليس فى القصر رجال . لعله ضل السبيل »

قال : « سألته فى ذلك فذكر انه يحمل رسالة الى قيمة القصر ، وسماك باسمك »

قالت : « اذهب وهات الرسالة لئرى فحواها » . فخرج . واستغربت هى الخبر ، اما ميمونة فارتبكت وخافت أن تكون الرسالة بشأنها او لأمر يسوؤها . ومن تتوالى عليه النوائب يسبق الى ذهنه ما يسوؤه ويغلب أن يصدق ضميره فيه

وبعد قليل عاد الغلام وفى يده كتاب مختوم ودفعه الى دنائير وخرج ، فنظرت فى الختم فرأته خاتم الفضل بن الربيع وزير الامين ، فتشاءمت من رؤيته واخذت فى فضه ويدها ترتجف ، وأدركت ميمونة بغتها فاختلج قلبها ، ولبثت تنتظر ما يبدو منها . ففست دنائير الكتاب واخذت تقرأه والدهشة بادية فى عينيها ، وميمونة تراقب حركاتها وتكاد تخطف الكتاب ن يدها لتطلع على ما فيه ، ولكنها تجلدت وصبرت نفسها فرأت دنائير تعيد راءته وقد ظهر الارتباك عليها ، ثم تحفزت للوقوف فاخذت ميمونة بيدها صاحت وصوتها يرتجف : « الى اين ؟ . . . قولى لى اليس هذا الكتاب منى ؟ انى ارى عليه خاتم الفضل بن الربيع ، لاريب انه يمسنى »

قالت : « وما شأنك انت ؟ انه يخاطبنى انا ! »

قالت : « اشعر ان له علاقة بى ، قولى : ماذا يريد منى ؟ . ويلاه قولى ! »
فابتعدت دنائير منها ونهضت وهى تقول : « لا علاقة له بك ! »

فتبعته وأمسكت بيدها وترامت عليها وقالت : « أتوسل اليك ان تصدقيني . بالله قولى ولا تخفى على واعذرى لهفتى »

فبدا الغضب على دنانير وقالت : « لقد أوغل هذا الرجل في القحة وتجاسر كثيراً ! . وكأنه اغتتم فرصة غياب سيدي وحسب أننا نخاف سطوته ونطيع أوامره . قبحه الله ! »

فتأكدت ميمونة أن الكتاب يتعلق بها فصاحت : « مهما يكن من فحوى هذا الكتاب فاني أحب الإطلاع عليه ، والأمر لك في كل حال . أطلعيني عليه ولو كان فيه قتلى ، بالله أطلعيني عليه »

فلم تر دنانير بدا من مسايرتها فدفعت الكتاب اليها فتناولته بيدها وهى ترتجف وقراته وهاك نصه :

« من الفضل بن الربيع وزير أمير المؤمنين الى القهرمانة دنانير
« وقع الى أمير المؤمنين أن فى قصر مولانا المأمون فتاة اسمها ميمونة جاءت من عهد قريب ، ويجب أن يراها ويسألها عن بعض الشؤون ، ويطلب ارسالها مع الشاكري حامل هذا الكتاب »

وما اتمت ميمونة تلاوة الكتاب حتى غشى الدمع عينيها وكاد الكتاب يقع من أناملها لفرط دهشتها وصاحت : « ويلاه ان حبل تعاستى لا يزال متصلاً . ويلاه ! . ماذا افعل ؟ . دعيني اخرج من هذا القصر »

فاخذت دنانير تخفف عنها وقالت : « لا بأس عليك . لن تخرجى من هنا . ولن نسلمك لأحد . انك فى ضيافتنا . كونى مطمئنة » . قالت ذلك وخرجت وظلت ميمونة وحدها . ولما صارت دنانير فى الدهليز صفقت فجاء الفلام فقالت : « قل للشاكري أن يذهب ولا جواب له عندنا »

ورجعت الى ميمونة وهى ترتجف من الغضب ، فوقعت ميمونة فى حيرة واخذت تندب حظها ، ودنانير تطمئننها وتخفف عنها . وفيما هما فى ذلك اتت عبادة وهى خالية الذهن من الامر ، فلما رأتها قالت : « ما بالكما ؟ »

قالت ميمونة : « ان وزير السوء كتب فى طلبى ، وزعم ان أمير المؤمنين يحب ان يسألنى عن بعض الشؤون ! »

فأطرقت عبادة وفكرت هنيهة وقالت : « قد علمت السبب فى ذلك . ان الكتاب ليس من أمير المؤمنين وانما كتبه الفضل لغرض فى نفسه انا أعلمه ، واضنكما تعلمانه أيضا . والأجدر ان نخرج من هذا القصر قبل ان يتفاقم الخطب ويحدث ما لا تحمد عقباه بسببنا »

فصاحت دنانير : « انكما فى ضيافتنا ولا تخرجان مطلقاً . ايجبر هذا الوغد على اضياف ولى العهد ؟ . كلا لن تخرججا على هذه الصورة ، ومتى جاء سلمان شاورناه فى الامر فانه خير . ونرى ما يكون »

مجلس الفضل

كان سلمان قد رجع من قصر المأمون في ذلك الصباح الى مخدعه فقير هندامه وتقمص شخصية الملفان سعدون ، وسار حتى دخل مدينة المنصور وقصد الى قصر باب الذهب يتوكأ على عكازه ويسرح لحينه وقد تأبط كتابه ومشى يلتمس المنزل الذي اعد له بأمر الأمين انشاء اقامته هناك . فدخل حجرته واخذ يطالع في كتاب كأنه يكشف امرا اهمه . وظل في ذلك الى العصر وهو ينوقع ان يأتيه احد في اسفقاء او اسسطلاع لعلمه ان الجواسيس والعيون مبثوثة بالابواب ينقلون خبر القادمين والذاهبين الى صاحب الشرطة

وفيما هو في ذلك ، سمع وقع حوافر جواد يقترب من حجرته ، فأصاخ بأذنيه فسمع الراكب ينزل ويخطونحو بابه مسرعا ، فأدرك من رائحة الطيب التي فاحت أنه ابن الفضل ، وعلم من سرعة خطوه انه جاء متلهفا . فظل جالسا حتى قرع الباب فنهض وفتح له واستقبله بفتور واستخفاف على غير عادته ، فتهيب ابن الفضل من رؤيته لما سبق الى ذهنه من اقتداره على استطلاع الغيب ، فحياه وهو يتسسم وقال : « كيف حال الملفان سعدون اليوم ؟ »

فأجابه بالاشارة ان يدخل ويجلس وظل ساكتا فابتدره ابن الفضل قائلا : « ما بالك يا ملفان ؟ ما لي اراك غاضبا » قال : « تفضل يا ابن الوزير واجلس . من انا وما هو غضبي ؟ ولستكني رايت اهل هذا الجيل لا يليق بهم غير الخداع والكذب » . قال ذلك وأشار الى ابن الفضل ان يجلس

فقال ابن الفضل : « لا حاجة بي الى الجلوس . انى لم آت لك لأمر يهمنى وانما لأدعوك الى أبى » قال : « اذا كان أبوك يسىء الظن بى ولا يصدق قولى كما فعلت انت . فلا فائدة من سماع كلامى »

فاستغرب ابن الفضل تعريضه به وعلم انه يشير الى ذهابه للبحث عن ميمونة في المدائن بعد ان اكده سعدون انها خرجت منها . ولكنه تجاهل وقال ما هذا التعريض والتلميح ؟ متى أسأت الظن بك ؟

قال : « اظنك تحملت المشقة في الذهاب الى المدائن لانك صدقت قولي انها خرجت منها ؟ . هل وجدتتها هناك ؟ »

فخجل ابن الفضل وغلب على حجته ولكنه غير الحديث وقال : « سنعود الى هذا الشأن في فرصة أخرى . . والآن تعال الى ابي فانه سيسالك عن امر مهم يتعلق بالدولة والخلافة »

ففهم من هذه العبارة على سذاجة قائلها ما يغنيه عن بحث طويل وقال : « اني رهين اشارة الوزير . اين هو الآن ؟ »

قال : « هو في قاعة صاحب الشرطة بهذا القصر »

فمشى سعدون الى نعاله وشدها بقدميه وتابط كتابه وقبض على عكازه وخرج في اثر الفضل وهو يفكر فيما عساه ان يسمع من الاسئلة ، وان كان قد ادرك ان الغرض الاول هو السؤال عن بهزاد . استنتاجا من قرائن الاحوال ومما سمعه من ابن الفضل من ان اباه سيسأله عن امر يتعلق بالدولة . وكان سلمان يحذر الفضل ويخاف فراسته ودهاءه ، ولا سيما بعد ان رآه مطالعا على امر بهزاد ومجيئه الى بغداد ، وبعد امره بالقبض عليه وان فشل في ذلك . فسار في اثر ابن الفضل مطرقا يتمتم . ولم يكن يخاف ابن ماهان صاحب الشرطة لعلمه بضعفه وغروره

فلما وصلا الى مجلس صاحب الشرطة دخل ابن الفضل بلا استئذان ، وظل الملفان سعدون واقفا حتى ناداه ابن الفضل ، فلما دخل رأى الفضل متكئا في صدر القاعة على وسادة كبيرة وقد قطب حاجبيه وظهر الاهتمام في وجهه ، وبيده مذبة يذب بها الهواء عن وجهه وكتفيه ، اذ لم يكن هناك ما يذبه ، ولكنه كان يتشاغل بذلك لما تراحم في خاطره من الافكار . ووجد ماهان جالسا بجانبه على وسادة وقد ارسل لحيته على صدره وبالف في صبغها بالحناء فبدت شديدة الحمرة ، وكان مع وهن عظمه ما زال يغالب الشيخوخة فجلس القرفصاء مع ان في وسعه ان يتكئ بين يدي الفضل في غير كلفة ، وانما خاف ان يعد ذلك عجزا وهرما



فلما دخل ابن الفضل لم يتحرك ابوه من متكئه وانما وجه بصره الى سلمان وقال : « هذا هو الملفان سعدون ! اظنني رايتك بالأمس هنا ؟ »

فقال ابنه : « نعم يا ابي . وهو رئيس المنجمين في دار مولانا الامين »

فاشار الفضل الى سلمان ان يقعد ، فاطرق هذا متظاهرا بالسذاجة وقلبه يخفق تهيبا من الفضل بعد تلك المقابلة (ويكاد المريب يقول خذوني) . على انه تجلد وهذا روعه وتشاغل بتسوية المنديل الحريري حول كتابه

المعهود . وما كاد يأخذ مجلسه حتى سأل الفضل : « انت رئيس المنجمين ؟ »

فقال : « هكذا يقولون يا مولاي ولكنى لا استحق هذا اللقب »

قال : « يظهر انك اهل لاكثر من ذلك فقد سمعت الكثير من صاحب الشرطة وابنى هذا عن مقدرتك العجيبة فى استطلاع المخبات ! »

قال : « ان الفضل فى هذا يرجع الى هذا الكتاب ، والى ما تلقيته من القواعد التى يستعان بها فى كشف الغوامض . فانا اقول ما يظهر لى او يلقى الى ، وقد اتلو العبارة وانا لا افهم معناها »

فالتفت الفضل الى ابن ماهان كأنه يستطلع رايه فى ذلك ، فأجابه هذا بإشارة من حاجبيه مصدقا لما قيل كل التصديق . فابتسم الفضل ابتسامة تشف عن ارتياح وقال : وقال : « عند الامتحان يكرم المرء او يهان . هل تجيب عما أسألك عنه ؟ »

فرفع الملفان راسه نحو الفضل وبصره متجه الى المذبة يتحرك بحركتها كأنه يظهر التهيب من النظر الى وجهه وقال : « اسأل ما تريد ، وما العلم الا من عند الله فاذا فتح على شىء قلته والا اعترفت بعجزى فهذه هى عادتى »

فلما قال ذلك هز ابن ماهان وابن الفضل رأسيهما موافقين ، لانهما خبرا ذلك فيه . فاعتدل الفضل فى مقعده وقال : « انى أسألك عن امر مهم يتعلق بالخلافة فأصدقنى خبره كما تراه . ولا تظننى أسألك عن امر اجهله فانى انما اختبر معرفتك ! »

فابتسم سلمان ابتسام الاستعطاف وقال : « اذا كنت فى ريب من صدقى فالاولى اطلاق سبيلى ، فانى . . »

فقال الفضل مقاطعا : « لا . . لا اطلق سبيلك قبل ان اختبر صدقك او خداعك . . فاذا كنت من اهل العلم الصحيح فقل لى عما اضمره »

فلما ادرك سلمان جفائه عمد الى الملاينة وقال : « الامر لمولاي فى ذلك ، وله ان يطلق سراحى او يقيدنى او يقتلنى او يفعل بى ما يشاء بلا اختبار » وشعر ابن ماهان بان سعدون قد استاء من تلك العبارة فقال : « لا يريد الوزير بك الا خيرا ، ولكنه تعود ان يرى فى بلاط الخليفة جماعة من المنجمين الدجالين ، ولما ذكر له عملك وفضلك احب اختبارك . فقل ما يبدو لك من امر الخلافة »

ففتح سلمان الكتاب واخذ يقلب فيه ويتمم مطرقا وهم سكوت ينتظرون ما يبدو منه ثم وجه خطابه الى ابن ماهان فقال : « الم اخبرك عن امر الخلافة قبل ان يعرف احد بخبرها ؟ »

قال : « بلى ولكن المراد ان نعرف اعداءنا وما عساه ان يكون من امرهم ؟ »

فعاد الى التفتيش في الكتاب وهو يقرأ حتى بدا التعب في وجهه وتصيب العرق من جبينه ، فأخرج من كفه قطعة بخور مضافا في فيه وطلب قدحا فيه ماء ووعاء فيه نار ، فأتوه بموقد صغير من النحاس كالمبخرة وضعوه بين يديه ، فألقى قطعة البخور في النار وتناول القدح وأخذ يتفرس في الماء تفرس الخائف من أمر يفاجئه ثم صاح بغتة قائلا : « الى المدائن . في قصر سابور ؟ »

وكرر التفرس في الماء جيدا وهو يقول : « اليس هذا قصر سابور ؟ . ومن سكن فيه ؟ » . وسكت وهو يسترق النظر الى سامعيه ليرى هل يضمرون السؤال عن بهزاد كما استنتج ، فرأى ابن ماهان يشير بالاعجاب ، فعلم أنه أصاب ولكنه تظاهر بالتعب فألقى القدح من يده وتناول منديله وأخذ يمسح العرق من جبينه وهو ساكت ، فقال له الفضل : « ماذا جرى في ذلك القصر ؟ »

فألقى في النار بخورا ثم أعاد النظر في القدح وقال : « اني ارى جنودا وعيارين نزلوا من المراكب الى البر مسرعين ، ودخلوا ذلك القصر » فقال الفضل : « ثم ماذا ؟ »

قال : « ذهب سعيهم سدى يا مولاي لانهم لم يجدوه في البيت ! » فأبرقت أسرة الفضل ولكنه بقي يظهر الجد وقال : « بارك الله فيك قد عرفت ما في نفسي ، فاعلم اني اطلب الرجل الذي كان يقيم بذلك القصر ، هل تعرف اسمه ؟ »

فاطرق وتمتم كأنه يتلو شيئالقى اليه ، ثم قال : « يسمونه بهزاد الطبيب الخراساني ! »

فاظهر الفضل اعجابه وقال : « هذا طلبتي ، فاين هو الآن ؟ . ابحث لنا عن مكانه ! »

فعاد سلمان الى الكتاب وقلبه ، ونظر في القدح قليلا ، ثم وضع القدح وصفق وقال وهو يشير بيده الى خارج بغداد : « هو خارج بغداد على جواده في صحراء بعيدة وعليه لباس السفر »

فصاح الفضل : « هرب ؟ ! . هرب الخراساني الملعون ؟ . هل رايت خادمه ؟ »

فأعاد نظره الى القدح وقال : « لا ارى معه احدا »

فقال : « وهل عرفت بالتنجيم شيئا عن خادمه او رفيقه ؟ »

فعلم سلمان انه يعنيه هو ، لأن الذي أطلع الفضل على خبر بهزاد ذكر ان معه رفيقا وانهما جاءا معا لمهمة سرية من خراسان فلما عادا الى بغداد امر بالقبض عليهما فلم يظفر بهما . وقد علم سلمان باطلاع الفضل على

خبرهما وارساله الجند للقبض عليهما ، فسارع الى انقاذ بهزاد كما تقدم ، فلما ساله الفضل عن رفيق بهزاد تجاهل وقال : « علمت ان له رفيقا يسمونه سلمان ؟ »

قال : نعم سلمان . اين هو الآن . . ؟ »

فاضطربت جوارحه ولكنه تجلد وقال وهو ينظر في القدر ثم يتلفت يمنة ويسرة : « انه في بغداد واظنه في مدينة المنصور ولكنني اراه مستترا وقد اقام بينه وبين المنجمين سترا كثيفا وقد اتغلب عليه واكشفه في فرصة أخرى »

فقال الفضل : « ان بقاء سلمان هذا في بغداد غنيمة كبرى تعوضنا عن فرار رفيقه ، وقد بلغني ان سلمان هذا يتزى كل يوم بزى جديد »

فقال : « ولهذا ظهر لي في المنديل مستترا ، ولكنه لا يخفى على الملفان سعدون ولو تمنطق بالنجوم وتعمم بالشمس وانتعل القمر . والأمور مرهونة بأوقاتها »

ثم رأى ان يغتنم هذه الفرصة لنيل البغية التي يسعى اليها اعداء العباسيين فقال : « وهل يظن مولاي ان فرار بهزاد خير له من بقاءه هنا ؟ »

قال : « ان فراره ينجيه من ايدينا ، هل ترى غير ذلك ؟ »

ففتح الكتاب وقلب صفحتين وقرا ثم قال : « لكنه ذاهب لنصرة رجل كبير في خراسان »

فادرك الفضل انه يعنى المأمون فقال : « لا فائدة من نصرته وهو بعيد ؟ »

قال : « أرى ذلك الرجل الكبير صاحب سلطان خوله اياه امير المؤمنين ، وقد يحاربه لأجله ان لم يتلاف أمره ويقص جناحيه » . وقد أراد سلمان ان يحرض الفضل على خلع المأمون من ولايته على خراسان ليتسع الخرق بين الأخوين فتسنع الفرصة للطامعين



والتفت الفضل الى ابن ماهان فراه ينظر اليه مستفهما ، وفي نظرتة دليل الموافقة على تحريض الأمين على خلع أخيه ، وكان الفضل اكثر رغبة في ذلك لما يعلمه من حقد المأمون عليه لمساعدته ضده ، ولكنه تجاهل وأراد تغيير الحديث فقال : « بورك فيك يا ملفان » . ثم التفت الى ابنه وقال : « لقد أسأنا الى رئيس المنجمين اذ أسأنا الظن به ، واخشى ان نكون قد فرطنا في الأمر ! »

فقال ابن الفضل : « كنت واثقا بالملفان ، ولكنك حملتني على الشك في
حني فعلنا ما فعلناه »

ولم يكن الملفان عالما بما فعله الفضل من ارساله الى دنانير يطلب ميمونة
فنظر الى الفضل وقال : « أرجو ألا يكون فيما فعلتموه ضرر »

فقال ابن الفضل : « انما اسأت بك الظن لما رأيته من انكارك المكان الذي
تقيم به الفتاة ، ثم علمنا من جواسيسنا انها في قصر المأمون فكتبتم الى
قهرمانته اطلب ارسالها اليها فاسأت الجواب وردت الرسول خائبا ، فأرسلنا
اليها جندا يأتون بها قهرا ! »

فشق على سلمان ما قد يصيب الفتاة من الاذى ولكنه تجاهل وقال :
« انني لم أخف على مولانا (وأشار الى ابن الفضل) مكانها ، ولكنني ذكرت
له انها خرجت من المدائن ، ولم تكن نزلت ذلك بالقصر المأموني بعد ، ولو
سألني بعد نزولها لأخبرته بمكانها . وكنت عازما على ان أحملها اليه
بالحسنى مستعينا بهذا الكتاب ، فليته لم يعجل بالامر » . قال ذلك وقد
ساء ما تصوره من الغلظة التي يأتونها في هذا السبيل »

فقال الفضل : « ان قهرمانة القصر اسأت الأدب في رد الشاكري ، ولعلها
لا تعلم ان الفتاة مغضوب عليها وعلى كل أهلها ، وانما أردنا تشريفها واستبقاء
حياتها لأنها وقعت من ولدي هذا موقع الاستحسان »



ميمونة والأمين

وفيما هم في ذلك جاء الحاجب وقال : « ان رسول الوزير بالباب »
فقال : « يدخل » . والتفت الى الحضور وقال : « هذا رسولنا مع
الجند الى قصر المأمون ، فلنسمع ما جاء به »
ثم دخل الغلام ، وهو من الشاكرية ، فلقى التحية وتأدب . فقال له
الفضل : « ما وراءك » . قال : « هل اقول ؟ » . قال : « قل...هل
اتيتم بالفتاة ؟ »

قال : « نعم ولكنها لم تأت وحدها » . قال : « ومن جاء معها ؟ »
قال : « جاءت معها مولاتنا ام حبيبة بنت ولى العهد »
فاجفل الفضل وقال : « اعوذ بالله ! وكيف اتيتم بها ؟ ومن قال لكم
ذلك ؟ »

قال : « لم يقل احد ولا نحن رضىنا بمجيئها ولكنها جاءت رغم ارادتنا ،
اذ تعلقت بالفتاة وابت الا ان نأخذها معها ! »

قال : « انا لله وانا اليه راجعون ! . ألم يكن فى وسعكم اجتناب مجيئها ؟ »
قال : « كلا يا مولاي لانها تعلقت بالفتاة ولم تبال اقوالنا وتهديدنا حتى
لقد حدثتنا انفسنا ان نتركهما معا ، وقد جاءت معهما ايضا القهرمانة
دنابير ، اذ عرضت نفسها للقتل وذكرت انها تؤثر الموت على تسليم الفتاة ،
فاتيتم بالثلاث معا »

فقال : « واين هن الآن ؟ »

قال : « هنا فى دار النساء وام حبيبة تطلب ان ترى عمها الخليفة »
فاكفهر وجه الفضل عند ذلك لبلوغ المسألة الى هذا الحد ، ولكنه كان
واثقا بسلطانة على الأمين ، ولا سيما اذا اطلعه على سر الفتاة وانها بنت
جعفر البرمكى ، وانه انما اراد القبض عليها ليقدمها له فيرى رايه فيها .
فنهض وهم بالخروج . ثم التفت الى ابن ماهان وقال : « صدق من قال :
(ان فى العجلة ندامة) . فلو اطعنا الملقان ما وصلنا الى هذه المشكلة ولكن
لابأس » . ثم التفت الى سلمان واشعار مودعا وكان هذا قد وقف وحيى
شاكرًا ، وقد اطمأن على ميمونة لمجيء ام حبيبة معها وطلبها مقابلة الأمين ،
فلا شك فى انه يحتفظ بالفتاة اكراما لبنت اخيه فتنجو من ابن الفضل .

ثم خرج من المجلس وقد غابت الشمس واضيئت الشموع الكبيرة المشهورة
بشموع الأمين

وكان الأمين ساعته في مجلس غناء أمر باعداده ، وحشد له المغنين
والندماء . فاعد في ايوان كبير بين قاعات القصر ، في وسطه بركة يتدفق
فيها الماء من انابيب على هيئة رؤوس الثعابين ، وحولها اغراس الرياحين
ومقاعد الجلساء والمغنين . وكان الوصفاء من الخصيان يقومون بخدمته
هناك وفيهم السقاة عليهم الالبسة الثمينة الباهرة وهم في زى الجوارى ،
وقد ارسلوا شعورهم جدائل مفردة ومزدوجة ، وفي أيدي بعضهم الدفوف
او المزاهر او العيذان يدقون ويغنون . والى جوانبهم الجوارى الحسان في زى
الغلمان وهن هدية الى الأمين من أمه زبيدة

وكان الأمين يغالى في اقتناء الجوارى من اقاصى البلاد وينفق في استجلابهن
الاموال . وقد ارتدى في ذلك المجلس لباس المنادمة ، وهو غلالة صفراء
مصقولة صقلا شديدا ، وعلى رأسه عمامة خفيفة وجلس على سرير من
الابنوس المنزل بالعاج ، وبين يديه مائدة عليها انواع الأطعمة والأشربة
والرياحين ، وقد فاحت رائحة المسك وغيره من الاطياب حتى ملأت الفضاء
وبينما هو في مجلسه هذا . جاءه الحاجب وقال : « مولائى زينب أم حبيبة
بالباب » . فبغت الأمين وظن مخبره واهما فاستفهمه قائلا : « ابنة اخى ؟ »
قال : « نعم يا مولاي »

فتحير في أمره ولم يدر بماذا يجيب ، اذ اكبر ان تقابله ابنة اخيه وهو
في مجلس الشراب على تلك الصورة . ولم يكن سلطانه وقوة بطشه ليمنعا
خجله من فتاة صغيرة يسترضيها الناس بتفاحة او لعبة . لأن سلطان
الأدب والحشمة اغلب في النفس من سلطان السياسة والشدة ، ولذلك كان
الأدب قوة ، ولأدب النفس هيئة يجلبها العقلاء وغير العقلاء ، وصاحب
الرديلة مهما يعظم سلطانه وان استغرق في المنكرات لا يزال في ضميره بقية
من احترام الفضيلة واهلها . الا ترى ارباب المعاصى وان تساهلوا في ارتكابها
يستنكفون من ان ينتسبوا اليها او يقال انهم من اهلها فهم اذلاء وان عزوا ،
ويغلب عليهم الجبن في موقف الانسانية وان كانوا ابطالا في مواقف القتال .
ان مرتكب المعصية محكوم عليه بالمذلة والضعة من عند نفسه لاعتقاده انه
يخالف السنن الأدبية فضلا عن الدينية وقد يكون سيدا مطلقا لا سلطان
عليه ولا يخشى حكما ولا قصاصا ، وربما كان معطلا لا يخاف عقابا ولا يرجو
ثوابا ، ولكنه يخاف شيئا لا صورة له في الوجود ، ويخاف ما قيل عنه
وما يقال له . وقد لا يضره ذلك ولا ينفعه ولكنه فطر على التماس حسن
الاحدثة او « الشهرة » . ولولا هذا لكان الناس كالبهائم يأكلون وينامون
فهذا الأمين مع تهتكه وسكره وعلمه بانتهاكه حرمة الشرع والعرف

وصمه الأذن عن النصيح لم يسهه إلا أن خجل أن يقابل في مجلس لهوه فتاة صغيرة . وما ذلك إلا حرصا على كرامته ، ولعلمه بطهارة قلبها وصفاء سريرتها

فلما انبىء باستئذائها عليه تردد في الأذن وأكبر أن يظهر خجله من مجلسه هذا فينهض لمقابلتها في غرفة أخرى وهو الخليفة صاحب السلطان الأكبر مالك رقاب العباد . ولم يستطع ردها إذ لا عذر له في ذلك ، فغلب عليه اعتزازه بالاثم فقال : « تدخل ابنة أخينا »

وكان القدح بيده فوضعه على المائدة ، واصطنع الوقار على قدر ما يستطيع ، فلما رأى جلالة ذلك جنحوا إلى التهييب وتولاهم السكوت ، وألقوا أدوات الشراب من أيديهم . وأشار الأمين إلى الغلمان والجواري فتباعدها ، واستولت الحشمة على الجلسة ، وسكت القوم كأن على رؤوسهم الطير

فدخلت زينب وعليها مطرف من خز قد التفت به ، وخمار مزرکش يكسو رأسها إلا بعض وجهها . وقد أشرق ذلك الوجه حياة وتجلت فيه الطهارة وسلامة القلب . وفي طهارة الأطفال رونق الناظر وهيبة للمتأمل وعظمة للعاقل . ويستدل علماء الأخلاق من ذلك على ما فطر عليه الإنسان من الميل إلى الخير وأنه إنما يساق إلى الشر بما يعرض له من أسباب المطامع أو يمارسه من اختلاف المشارب . وإذا أتى شرا فأنما يأتيه للدفاع عن نفسه أو ماله . وقد يظهر أنه مهاجم متعدد ولو فحصت ضميره واستطلعت خبايا قلبه لرأيت أساس ذلك التهجم هو الدفاع عن نفسه

فالاطفال مثال للفطرة الساذجة ، لا يعرفون الكذب أو التملق أو الخداع . يقولون ما يعتقدون لا يخافون ولا يحاذرون ، ولا سيما إذا ربوا كما رببت زينب على أيدي دنائير ، حيث تثقت واستنار عقلها على قدر ما تسمح به سننها ، واعتادت أن لا ترد كلمتها . فلما رأت الجند يخالفونها ويلحون في أخذ ميمونة شق عليها الأمر وأكبرته ، ولما زجرت أراقتها بكى وجاءت معهم كما تقدم فدخلت لساعتها على عمها وقد أبرقت عيناها وفيهما أثر البكاء

فلما رآها الأمين رحب بها ونهض لاستقبالها ، فلم يبق أحد من الحضور إلا وقف تهيبا . ولم يروا بدا من إخلاء المجلس للخليفة وابنة أخيه ، فخرجوا وغادروا المائدة وأباريقها وأقداحها وزهورها ورياحينها وقد تبعثرت الفاكهة وأقداح الشراب ومنثور الأزهار وأضاءت منائر الشمع في جوانب الأيوان ، وود الأمين لو تنطفئ لتخفى تهتكه

فلما دنت زينب من عمها ترامت على ذراعيه وغلب عليها البكاء ، فضمها إلى صدره وقبلها وقال : « لا بأس عليك يا ابنة أخى ماذا أصابك ؟ »
أما هي فلما شمت رائحة الخمر في فيه نظرت إلى ما حولها مستغربة ،

فأراد أن يلهيها عن الاستفهام فقال : « ما بالك يا أم حبيبة ماذا تريدين ؟
لماذا لم تدخلي دار النساء ؟ »

فقالت : « قد كنت هناك وأحببت أن أراك ولم أكن أعلم أنك على مائدة
الطعام . »

فسره أنها تحسبه على مائدة الطعام فقال : « هل من حاجة تقضيها لك ؟ »
قالت : « نعم لي حاجة . . . » . والتفتت الى الباب وقالت : « نعم لي
حاجة . . أين دنانير ؟ . هي تقص عليك خبري »

فتجلد الأمين وهو يحسب لهذا المجيء ألف حساب ، لما يعلمه من أساءته
الى أبيها . ولكنه استبعد أن تطلع هي على شيء من ذلك فتجاهل وقال :
« هل القهرمانة معك ؟ »

قالت : نعم كانت معي في دار النساء ، وقد أرادت إلا إفاجئك في هذا
المجلس . ثم نظرت فيما على الأرض من الأدوات وقالت : « أرى مائدتك
يا عماء تختلف عن مائدتنا ، لعل مائدة الخلفاء هكذا » . قالت ذلك بسداجة
وأخلاص فأصاب قولها قلب الأمين لما حواه من التوبيخ الصريح عفوا ، فقال :
« انها مائدة بعض الأضياف كانوا عندنا الليلة . هلم بنا الى دار النساء » .
قال ذلك ولم يعد يصبر على البقاء هناك ، فنهض وأخذ بيدها وهي تتوكأ
عليه حتى دخلا قاعة في دار النساء مفروشة بالبسط والتمارق ليس فيها
أحد ، وأجلسها بجانبه وهو مشتاق الى سماع شكواها ليطلع على جلية
الخبر . ثم صفق فجاءه غلام فقال : « ادع القهرمانة دنانير »

وبعد قليل دخلت دنانير وهي مطرقة وقد غطت رأسها بالنقاب وهمت
بتقبيل يده ثم وقفت متأدبة فقال : « ما الذي جاء بك يا دنانير ؟ »

قالت : « يسوؤنا اننا ازعجنا أمير المؤمنين وكدرنا عليه مجلسه ، ولكن
سيدتي أم حبيبة أبت إلا أن تجيء الليلة ولم أستطع منعها »

فقال : « وما الخبر ؟ » . قالت : « ألم ترسل إلينا في طلب ضيفتنا ؟ »
قال : « وای ضيفة تعنين ؟ » . قالت : « ضيفتنا ميمونة »

قال : « لم أفهم مرادك أفصحى »

فأدركت دنانير أن الفضل فعل ذلك من عند نفسه فقالت : « نزلت عندنا
منذ يومين فتاة غريبة اسمها ميمونة ، الفتاة سيدتي زينب وأحببتها ،
فجاءني كتاب من الفضل وزيرك يطلبها باسمك ، فاعتذرت من تسليمها
لأنها ضيفة ولها حق الجوار ، فأرسل إلينا جندا ليأخذوها قسرا . فلما
رات مولاتي أصرارهم على أخذها تعلقت بها وأبت إلا أن تأتي معها ، فلم
أستطع التخلي عنها فجئت معها »

فاطرق الأمين وقد أكبر انتحال الفضل اسمه بغير اذنه ، ولكنه تجلد

وقال : « من هي ميمونة هذه ؟ . لعلها من موالينا ؟ »
قالت : « هي فتاة يتيمة لا ملجأ لها ولا معين ، وقد يكون في قصر أمير المؤمنين عشرات أو مئات مثلها »
قال : « واين هي الآن ؟ »
قالت : « في هذه الدار يا مولاي »
قال : « على بها لأراها »

فلما خرجت دنائير وضع الأمين يده على كتف زينب وضمها اليه تحببا
وقال : « تحملت المشقة لأجل هذه الجارية ؟ »

قالت : « انى احبها يا عماه ، لأنها لطيفة وحلوة ، وستراها الآن وقد قلت للجنود ان يتركوها فأبوا . . الا تريد ان تعطينى اياها ؟ »

فاستلطف الأمين سداجتها ولطف تعبيرها وقال : « سأفعل ما تريد . طيبى نفسا » . وبعد قليل عادت دنائير وميمونة تتبعها مطأطئة رأسها تذلا ، وقد توردت وجنتاها وتكسرت أهداب عينيها من البكاء

فلما اقبلت عليه ترامت على قدميه وصاحت : « انى جارية أمير المؤمنين »
فلما رأى الأمين جمالها اعجب بها ورق لبكائها فأمرها بالنهوض وقال : « لا بأس عليك يا بنية طالما كنت في ضيافة بنت اخينا ولك هذه المنزلة عندها . قومي » . والتفت الى دنائير وقال : « خديها الى دار النساء وامكثا الليلة عندنا ريثما انظر في امرها . وانت يا زينب ضيفتنا الليلة . واطمئنى اننا لا نرد لك طلبا »

فاستأنست الفتاة بعمها وهي في معزل عن السياسة لا تعلم شيئا مما جرى بعد وفاة جدها بين ابناءه ، ولما رأت عمها يضمها ويشي لها تذكرت اباها فقالت : « متى يأتى أبى يا عماه ؟ »

فلما سمع سؤالها انقبضت نفسه وقال : « قريبا ان شاء الله » . ولم يزد وكأنها شعرت برغبته عن التوسع في هذا الموضوع ، فامسكت ونظرت في الارض وهي لا تستطيع التعبير عن شعورها . وهو شمسان النساء في احكامهن فانها مبنية على الاحساس بقطع النظر عن الحكم العقلى ، فان المرأة اذا سألتها عن عمل أنت عازم على الشروع فيه هل هي تتوهم فيه النجاح او تخاف الفشل اجابتك عن رايها ، واذا طالبتها بالدليل على صحته ذكرت انها لا تستطيع ذلك ولكنها تشعر به شعورا قويا . ويغلب ان يصدق شعور المرأة كما يصدق عقل الرجل ، على تفاوت في شعور النساء وعقول الرجال . فكما تتفاوت عقول الرجال من حيث قوة الاستنتاج واستنباط الاحكام وتمييز الصحيح من الفاسد ، يتفاوت شعور النساء باختلاف ما فطرت عليه كل منهن من دقة الاحساس وسلامة الذوق . ولا يكون هذا الشعور

مستقلا عن العقل ، ولكنه يغلب في المرأة كما يغلب العقل في الرجل . والرجل اذا جرد من ذلك الشعور كان ضربة على الانسانية لأن الانسان يعامل عملاءه بالعقل ويعاشر أصدقاءه وأهله بالاحساس . ويتفاوت الاحساس في الناس ، فمن قل احساسه ساءت عشرته واستثقل الناس روحه وان كان راجح العقل قوى الارادة . ولذلك ترى بين جماعة من الأذكيا المجتهدين من يستثقلهم الناس ويتجنبون معاشرتهم ، فيكون ذلك عثرة في سبيل نجاحهم ، لأن الانسان يحتاج في اكتساب ثقة الناس الى شعور حى يجتذب قلوبهم بحسن العشرة ووضع الشيء موضعه

وكانت زينب بنت المأمون — على صغر سنها — كبيرة العقل رقيقة الشعور ، فما ان سمعت تلك الاجابة الجافة من عمها الأمين حتى شعرت بانقباض وامتنعت عن الخوض في ذلك الحديث . وكأنما أدرك هو ذلك فصفق يدعو غلامه ، فلما جاءه قال له : « ادع لنا قيعة الجوارى » . ولما جاءت هذه قال لها : « خدى ابنة اخينا الى قصرنا ، واكرمى مثنواها واحتفظى بالجارية ميمونة وعاملها معاملة جوارينا » . ثم التفت الى زينب وقال لها : « اظنك تحتاجين الى الراحة والطعام ، ولن يكون الا ما تريدين ، فاطمئنى » . وربت على كتفها ووقف ، فوقفت ومضت مع القهرمانة الى دار النساء

فلما خلا الأمين الى نفسه عاد الى التفكير فيما سمعه عن الفضل وكتبه الى بنت اخيه في شأن تلك الفتاة ، وأحب أن يستقدمه ليسأله عن حقيقة الخبر ، على انه تذكر ما كان فيه من الانس قبل مجيء زينب ، فعاد الى مجلسه . ولم يكذ يستقر فيه حتى عاد اليه من كانوا فيه واستأنفوا الفناء والشرب والمنادمة والفلمان والجوارى في خدمتهم كما كانوا



تركنا الفضل خارجا من مجلسه وهو يستعيد بالله مما آل اليه امر تسرعه في طلب ميمونة ، واخذ يهين الأعداء للدفاع عن نفسه ، معتمدا على ما له من النفوذ واللالة لدى الأمين ، ولبت ينتظر أن يدعو به اليه

أما سعدون أو سلمان فانه مع اسفه لوقوع ميمونة في يد الأمين ، س لنجاحه في اغراء الفضل وابن ياهان بتوسيع الخرق بين الأمين وأخيه . وأصحاب المطامع السياسية لا يفهمون لغة القلوب ولا يبالون حركاتها وانما يهمهم الوصول الى الغرض الذى يسعون اليه ، فاذا اعترض طريقهم راس أو قلب داسوه ، على ان سلمان كان يعرف منزلة الفتاة عند يهزاد ، وقد أوصاه هذا بها خيرا ، فلم يسعه الا أن يهتم لأمرها ويعمل على سلامتها

وفي صباح اليوم التالى بعث الأمين الى الفضل ، فلما وافاه في داره الخاصة

أجلسه الى جانبه ، ثم تطف في الاستفهام عن امر الفتاة . فقال الفضل :
« لعل أمير المؤمنين اكبر اقدامى على طلب هذه الفتاة باسمه من بيت أخيه ،
ولكن لم أفعل ذلك الا اضطرارا واخلاصا في خدمة الدولة . هل عرف أمير
المؤمنين من هي هذه الفتاة ؟ »

فقال : « لم أعرف الا انها غريبة وفدت على بيت أخى المأمون »
قال : « لو ان مولاي تأملها لراى صورة أبيها فيها . انها بنت جعفر بن
يحيى الذى قتله أمير المؤمنين الرشيد جزاء خيانتة ! »
فبغت الامين ونظر الى الفضل مشدوها وقال : « ابنة جعفر بن يحيى ؟ ،
أظنك واهما »

قال : « كلا يامولاي ولو سألتها لاعترفت . وقد علمت بنزولها بيت مولانا
المأمون صباح أمس ، فكتبت الى قهرمانة القصر ان ترسلها لان أمير المؤمنين
يريد ان يراها ، فأجابت رسولى الشاكري جوابا شديدا . ولم يسعنى غير
على كرامة مولاي الا ان شددت في طلبها ، ولم أكن احسب العلائق وطيدة الى
هذا الحد بين طرائد أمير المؤمنين وبين بيت أخيه . فالاجدر بأهل هذا البيت
ان يكونوا عوننا لنا على أمثال هؤلاء . نعم انها فتاة لاخوف منها ، ولكن ماضر
ان نستفهمها وهناك أسباب للظن . لأننى » . وسكت كأنه يكتم شيئا يخشى
إبداءه ، فابثدره الامين قائلا : « ولكن ماذا ؟ . قل »

فقال : « ان أمير المؤمنين ادرى منى بما يحاك في الخفاء ، ولا احب ان ادخل
بينه وبين أخيه ، ولكننى لا استطيع السكوت عما يمس الدولة وحقوق
المسلمين . فما معنى ان تاوى الى بيت مولانا المأمون بنت جعفر عدو الخلافة
الذى قتل جزاء دسه وخيانتة واطماعه المأمون في ولاية العهد بعد ان كانت
لأمير المؤمنين وحده ، وهل لم يقنع المأمون بولاية العهد ، فامتد طمعه الى
الخلافة ؟ »

فلما سمع الامين ذلك أجفل وحدث في الفضل تحديقا شديدا . ولولم يكن
الفضل قد تعود لهاب منظره ، لانه كان شديد الهيبة قوى البدن يلقى الاسد
ولا يبالي . فاستدرك الفضل قائلا : « لا اعنى ان مولانا المأمون يطلب الخلافة
لنفسه ، ولكننى اخشى اذا طال حلم أمير المؤمنين عليه ان يغريه بعض خاصته
بطلبها »

فانصرف ذهن الامين عن ميمونة الى الخلافة وأخيه ، وانما جره الفضل الى
ذلك عمدا ليشغله عن لومه في طلبها باسمه ، وليتدرج الى اغرائه بخلع المأمون
تأمينا لنفسه ، لعلمه ان المأمون اذا أفضت الخلافة اليه فلن يبقى عليه ولا على
أهله وربما نكل بهم ، فلا نجاة له ولهم الا بخلعه عن خراسان ليتفرق مريدوه
عنه ويضعف أمره

فقال الامين : « ان هؤلاء الفرس اصل بلائنا ، فانهم ما زالو من زمن أبى

مسلم يناوئونا ويمنون علينا بأنهم ساعدونا في نيل الخلافة مع انهم لم ينالوا شيئاً الا باسمنا . وهم الآن يغرون اخي بان يستأثر بها دوني »

فقال الفضل : « اذا كان امير المؤمنين في شك مما اقول ، فهذا رئيس المنجمين فليساله عن الرجل الخراساني الذي اشرت بالقبض عليه يوم وصولي ان هذا الرجل رسول حزب الخراسانيين انصار المأمون ، وقد ارسلوه ليدس الدسائس ويوقظ الفتنة ، وعلمت بأمره يوم كنت في طوس فلما قدمت الى بغداد ارسلت في طلبه فلم يجده العيارون في منزله . ثم لقيت الملفان سعدون رئيس المنجمين أمس ، وتحديث معه في ذلك ، وكان صاحب الشرطة معنا ، فعرف الملفان الرجل وقال : (انه هرب من بغداد الى احزابه الطامعين في ارجاع الامر الى الفرس) . ولاريب في انهم يتخذون اسم مولانا المأمون وسيلة الى تحقيق مطامعهم ، فاذا بلغوا مآربهم فما اظنهم يستبقون احدا ولا المأمون نفسه . لا تغضب يامولاي اذا صرحت بما يجول بخاطري فان صالح الدولة يقتضي ذلك ، وها هو ذا ابن ماهان صاحب الشرطة يؤيد قولي . والراي لامير المؤمنين »

وكان الفضل يتكلم منفعلا متظاهرا بالغيرة على الدولة ، والامين يصغى له بكل جوارحه . وقد اهمه الامر فأمسك عن التصريح براهه حتى يشاور ابن ماهان ، وعاد الى الكلام عن ميمونة فقال : « سننظر في ذلك ، واما ميمونة التي ذكرت انها ابنة جعفر البرمكي ، فانها في قصرنا بين جوارينا . ولا اري ان نسيء اليها الا اذا ظهر لنا ما يوجب ذلك ، وقد ترفقت بها لاجل بنت اخي » فقال الفضل : « الراي لامير المؤمنين » . ولم يهمه امر الفتاة مثلما اهمه خلع المأمون ، وان كان ابنه يؤثر ميمونة على كل الدولة لانه شاب ربي في مهد الرخاء ولم يعان السياسة وقضى ما مر من عمره متكلا على ابيه ، وقد علق بميمونة وما كان يريد بها الا خيرا ، ولولا ما سبق من حبها بهزاد وحقدتها على الفضل ، لما كان ثمة ما يمنعها من قبوله

وراي الفضل ان الامين يشير بفض الجلسة ، فنهض وخرج وظل الامين وحده يفكر حائرا فيما وعد به ابنة اخيه من اطلاق سراح ميمونة ، ويرى في اطلاقها خطرا خوفه الفضل منه . ثم نهض وسار الى دار النساء ، وسأل عن مقر بنت اخيه فدلوه عليه

وكانت ميمونة قد شعرت عند دخولها قصر الخلافة بانتقباض شديد ، وقام بذهنها انها اضاعت آمالها ، لعلمها بما ينويه حبيبها من الكيد للامين ، فلم تجف لها دمة رغم محاولته دنائير من التخفيف عنها . وكانت زينب تزداد شفقة عليها ورغبة في انقاذها ، وقد بشرتها بما وعدها به عمها من اطلاق سراحها . فانقضت الليلة وميمونة يائسة لعلمها بان الفضل لايسكت عن كشف حقيقتها للامين حتى ينجو من اللوم

وفي صباح اليوم التالي جاءتها دنانير وزينب ، وأدارتا الحديث معها للترفيه عنها ، ولكنها ظلت منقبضة النفس لا يفرج كربتتها غير البكاء ، ولا سيما أن جدتها ليست معها ، وأنها لا تعرف أين سلمان . فمكثت صامتة ودموعها تتساقط على خديها وقد ظهر عليها الدل والانتكسار . وزاد هذا زينب انعطافا نحوها ، وكانت واثقة من وعد عمها . وبينما هن في ذلك سمعن حركة وهرجا بين خدم القصر ، ثم جاءت بعض الجوارى تقول : « ان أمير المؤمنين قادم ليرى ابنة أخيه »

فنهضت زينب للقاءه بالباب ، ووقفت دنانير وميمونة احتراما . ثم دخل الأمين وقعد على وسادة هناك ، واجلس زينب الى جانبه وسألها : « أفى شوق أنت الى قصر ك يا زينب ؟ »

فقلت : « كما يشاء أمير المؤمنين »

فاستحسن تأديها على صغر سننها وقال : « لقد أمرت القهرمانة بأعداد هودج يحملك وحاضنتك الى دجلة ، ثم تركبان الحراقة الى القصر » فنظرت اليه زينب نظر المدل الطامع وقالت : « وميمونة ؟ »

فقال وهو يضاحكها : « تبقى في ضيافتنا يوما او يومين ، ثم نبعث بها معرزة مكرمة » . قالت : « الست وعدتني بأن ترسلها معي ؟ »

قال : « نعم ، ولكنني رأيت ان تبقى عندنا ضيفة كما كانت عندك . وما اظنها ترفض الضيافة في قصر الخلافة »

ورفعت زينب بصرها الى دنانير كأنها تستغيث بها ، فنظر الأمين الى دنانير وقال : « قولي لولائك ان ميمونة ستبقى عندنا ضيفة مكرمة ثم نرسلها »

فعلمت دنانير انه مصر على استبقائها عنده ، وأدركت سبب ابقائها لانها تنسب من أخبار القصر انه اجتمع في الصباح بالفضل . فوقعت في حيرة وقالت « ان أمير المؤمنين لا يرد امره ، وبقاء جاريته في قصره شرف لها »

فلما تحققت ميمونة انها باقية سكتت والدمع ينحدر على خديها ، فوقع نظر الأمين عليها فرق لها وكاد يأمر باطلاق سبيلها . ولكنه تذكر كلام الفضل فأمسك ونهض قائلاً لزينب : « سيري في حراسة الله يا ابنة أخى » . ثم أوصى بها دنانير خيراً ، والتفت الى ميمونة وقال : « لا بأس عليك يا بنية » . وخرج فأمر قيمة الدار ان تعد ما يلزم لنقل زينب وحاضنتها الى قصر المأمون . فأرادت زينب ان تتعلق بميمونة وتمتنع عن الذهاب ، فأمسكتها دنانير وأفهمتها ان أمر الخليفة لا يرد ولا بأس على ميمونة . فلما خلت ميمونة الى زينب ودننير بعد خروج الأمين أطلقت لنفسها عنان البكاء حتى كاد يغمر عليها ، فأخذت دنانير تهون عليها ووعدتها بأن تخبر سلمان بخبرها ليسعى في انقاذها ، كما وعدت بتوسيط سواه اذا اقتضى الامر ذلك

بين زبيدة وعبادة

عادت دنانير الى قصر المأمون فرأت عبادة أم جعفر في انتظارها على المسناة ، وكانت قد شاهدهت ما أصاب حفيدتها من القسوة والاهانة حين أخذها الى الأمين ، وحدثتها نفسها بأن تصحبها الى هناك لكنها خافت أن يكون ذهابها سببا لزيادة النعمة عليها فامتثلت لمشورة دنانير عليها بالبقاء في القصر واعدة بارجاع ميمونة معها . فقضت بقية ذلك اليوم وطول ليله ساهرة وقد أخذ القلق منها مأخذا عظيما، وأصبحت في اليوم التالي فجلست على المسناة ترقب السفن النازلة حتى رأت حراقة عرفت من شكلها أنها من سفن الأمين . فلما وصلت ولم تر ميمونة فيها صاحت : « أين ميمونة ؟ » فأخذتها دنانير بيدها وقصت عليها الخبر ، ومنتهى بقرب رجوعها فقالت : « لا . لن ترجع . ان الأمين اذا عرفها لابد أن يوقع الأذى بها ، ويلي ! لماذا لم أذهب معها فيصيبني ما يصيبها ؟ » لقد أضعت تعبى في خدمتها ! »

وجعلت تندب سوء حظها وتبكي بكاء الثكلي ، فأخذت دنانير تهون عليها حتى سكن روعها ، ففكرت فيما تستطيعه في سبيل انقاذ حفيدتها ، ووقعت يدها على حق الزمرد الذي تحمله فخطر لها أن تستخدمه في هذا السبيل . وكان الناس يتحدثون منذ أيام بمجيء زبيدة أم جعفر والدة الأمين من الرقة ومعها خزان الرشيده، فقالت في نفسها : « لعل اذا سرت اليها واستعطفتها باسم زوجها أن أثير عاطفتها بما في هذا الحق من آثار الرشيد فتتوسط عند ابنها لاطلاق سراح حفيدتي » . ولما خطر لها ذلك شعرت براحة وطمأنينة ، واستشارت دنانير في الأمر فاستحسن رأيها وقالت : « لم يبق لنا باب نظرقه غير هذا ، ولعل هذه المرأة اذا رأت آثار زوجها وسمعت ما أصابك من البلاء تنسى حقدتها . سيري على بركة الله »

فخرجت عبادة في ظهر ذلك اليوم تقصد الى دار القرار قصر زبيدة ، وكان الأمر صعبا عليها ولكنها استسهلت كل صعب في سبيل انقاذ ميمونة وركبت من قصر المأمون حراقة أوصلتها الى قرب دار القرار ، فهبطت هناك ومشيت بثوبها الاسود تتوكأ على عكازها وقد بدا الانكسار في محياها، والانكسار يبدو في الشيوخ مضاعفا

وبلغت باب القصر عند الأصيل ، فرأت عنده جماعة من الشاكرية وقوفا بأسلحتهم ، فوقفت وحيثهم فلم ينتبه اليها أحد ، فاقتربت من أحدهم

وقالت : « لعل مولاتنا أم جعفر فى القصر ؟ »
فأجابها بقوله : « ماذا تريدین منها ؟ »
قالت : « أريد أن أراها وأتبرک بلمثم ثوبها »
قال : « انها لا تأذن لأحد الآن ، واذكنت تلتمسین احسانا فليس اليوم موعده »

قالت : « كلا يا ولدى ، لا أريد شيئا من ذلك ولكن لدى حديثا أريد أن أقصه عليها »
قال : « وما هو حديثك يا خالة ؟ »

قالت : « انه حديث خاص بها ، فأدخلنى عليها اذا شئت »
فاستخف الرجل بقولها والتفت الى رفقاته وكانوا وقوا يسمعون ما دار بينهما ، فتقدم شاكرى آخر وقال لها « أتريدین المثل بين يدى مولاتنا أم الخليفة نفسها ؟ »

قالت : « نعم أطلب الدخول على أم الخليفة السيدة زبيدة . وأرجو أن تستأذن لى فى ذلك ولا تماطلنى ، فقد أتعبنى طول الطريق ولا صبر لى على الوقوف ! »

فقال : « أراك مسكينة وسأطلب لك احسانا من قيمة القصر وأكفيك مؤونة الدخول على مولاتنا أم جعفر لأنها يندر أن ترى أحدا »
فأثر كلامه فى نفسها ، وتذكرت سابق أيامها وكيف أصبح حالها لا يدل على غير الاستجداء فقالت وهى تكاد تشرق بدموعها : « لست أطلب احسانا يا بنى ، ولكن لدى أمرا يهم مولاتنا أم جعفر أريد عرضه عليها ، فاستأذن لى ولك الفضل »

فلما رأى الشاكرى بكاءها رق لها ودخل للاستئذان ، وظلت هى بالباب وقد تعبت فقعدت على حجر . وبعد هنيهة عاد الشاكرى وهو يقول : « سألتنى عن اسمك »

فتحيرت بماذا تجيب وفكرت قليلا ثم قالت : « اسمى أم الرشيد »
فأجفل الجميع وأخذوا يتفكرون فيها وهم لا يعرفونها ، واستغربوا هذا الاسم فقال أحدهم : « اسمك أم الرشيد ؟ وأى رشيد تعنين ؟ »
قالت : « ألم تسألنى عن اسمى ؟ قل لها ان أم الرشيد بالباب تلتمس الدخول »

فعاد الشاكرى ومكثت هى فى انتظاره وقد سرها أن تتقدم الى زبيدة بهذا الاسم فلعله يكون فالأ حسنا . وما عثم الشاكرى أن عاد وهو يقول : « تفضلى يا خالة ادخلى »

فدخلت فى اثر الشاكرى وهى تتوكأ على عكازها حتى تجاوزت الحديقة

لى باب القصر ، ونزعت نعالها ودخلت فى الدهليز فانتهدت منه الى غرف
بستطرق بعضها الى بعض ، والجوارى المقدودات يخطرن بين يديها وهن
ينظرون اليها ويعجبين من حالها . أما هى فظلت تمشى مطرقة حتى وصلت
الى قاعة كبيرة فاحت منها رائحة الطيب . فلما أطلت على القاعة رأت سقفها
قبة مصنوعة من خشب الصندل ، مكسوة بالوشى والسمور وأنواع الحرير
بالوانه الزاهية ، ويتدلى على جدرانها ستائر مطرزة بأبيات من الشعر ،
معلقة بكلايب من الذهب . وفى أرض الغرفة بساط واحد من السجاد
التمين عليه من الوسائد والكراسى ما يبهر النظر ولكنه لم يبهر عبادة لأنها
ألفت مثله فى قصر ابنها أيام نعيمها وأقبال سعدا ، وإنما كان همها اليوم
أن تنال رضى زبيدة لتنقذ حفيدتها

فلما وصلت الى الباب رأت زبيدة فى صدر القاعة متكئة على وسادة من
الحرير الموشى فوق سرير من الآبنوس المرصع، فتركت عصاها خارجا وألقت
التحية باحترام ونظرت الى زبيدة ووقفت تنتظر أمرها بالدخول أو الجلوس .
وكانت زبيدة مرتدية ثوبا سماوى اللون يأخذ بالأبصار ، وقد تعصبت
بعصابة مرصعة بشكل الطاوس من الحجارة الكريمة على غير عادتها كأنها
فعلت ذلك لتزيد فى النكاية بعبادة المسكينة . فظلت هذه واقفة وزبيدة
تلهو بجام من العاج فيه فتات المسك ، وتساقط بعضه فأخذت فى التقاطه
فظنت عبادة أنها لم تنتبه اليها وسعلت ، فرفعت زبيدة بصرها اليها شزرا
وقالت : « من هذا ؟ »

فاستأنست بالسؤال ومشيت نحوها وقالت : « أمتك عبادة » . ولما
وصلت الى وسط القاعة نظرت اليها زبيدة وقلبت شفتها السفلى ورفعت
حاجبيها استخفافا وقالت : « عبادة ؟ » قيل لى ان أم الرشيد تطلب الدخول
على ! »

قالت : « هى نفسها جاريتك يا مولاتى . انظرى الى وجهى فعسى شحوبه
لا ينسيك صاحبتة »

فضحكت زبيدة وقالت : « عرفتك يا عبادة ! ألا تزالين على قيد الحياة ؟ »
فاستغلظت عبادة هذا السؤال لما فيه من الاحتقار ، ولكنها كظمت
وقالت : « نعم لا أزال حية لسوء حظى »

فقهقهت زبيدة وقالت : « ذلك جزاء العقوق يا عبادة . اجلسى ،
فجلست وهى ترتجف من الغيظ ، وندمت على مجيئها ولكنها تذكرت
ميمونة وأنها جاءت لانقاذها فهان عليها الأمر وقالت : « لم أنكر جيلا
يا مولاتى ، ولكن لله الأمر ، يفعل ما يشاء »

قالت : « صدقت ، لله الأمر ، وهو يجزى كل نفس بما قدمت . أرايت
عاقبة سعيك وسعى زوجك وأولادك فى نزع الخلافة منا ؟ » أرايت عاقبة

العدر ؟ - أرايت عاقبة الجرأة على مولاكم ؟ - أرايت كيف رد الله كيدهم في نحرهم ؟ : لقد كنت أحسبك قضيت كعدا من الشكل فإذا أنت حية تسعين ! ، وكانت عبادة تسمع كلام زبيدة مطرقة ، فلما انتهت قالت لها : « انما جئت الآن يا مولاتي مستعطفة ، فانك والددة وتعرفين انعطاف الوالدات ، وقد صرت جدة وتعرفين انعطاف الجدات »

فقطعت كلامها وقالت : « لشد ما أبطأ حنو الوالددة والجدة ؟ - أين كان ذلك الحنو لما أراد ابنك المقتول أن يخلع ابني من ولاية العهد ليجعلها لابن مراجل » - تعنى المأمون

فقالت وقد جاشت أحزانها في صدرها وكاد الكظم يخنقها : « قلت لك يا مولاتي انما جئتك مستعطفة . ولا أستعطفك بحسنة أتيتها وانما أتقدم اليك مستشفعة بصاحب هذه الآثار » . وأخرجت حق الزمرد ومفتاحه الذهب من جيبها ، ونهضت ومدت يدها نحوها لتعطيها اياه . فتباطأت زبيدة في تناوله مبالغة في الازدراء ، تاركة يد عبادة ممدودة كأنها سائل يستعطى . وأخيرا قالت لها زبيدة : « وما الذي يحويه من الآثار ؟ »

فأخذت عبادة تعالجه بالمفتاح ويدها ترتعشان من ضعف الشيخوخة وشدة التأثير وتقدمت به الى زبيدة فاذا في الحق خصلة من شعر زوجها وبضع أسنان من أسنانه وقد فاحت منها رائحة المسك فقالت : « ما سدا الشعر والأسنان ؟ »

قالت : « انها شعر مولانا الرشيد وأسنان طفولته . ألم أكن ظئره ؟ - ألم أرضعه ؟ - ألم يكن يدعوني أم الرشيد ؟ بهذه الآثار أتوسل اليك أن تسمعي شكواي وترحمي ضعفي ليس من أجل أنا بل من أجل فتاة بريئة من كل ذنب ، وكانت في عهد تلك الأحداث طفلة ناشئة في مهاد الرغد والرخاء ، وهي الآن يتيمة طريدة لا ملجأ لها ولا نصير ، وحياتها أو موتها بين شفتيك . بالله اعطفي عليها بكلمة تنقذها من الموت » . قالت ذلك وشرقت بدموعها وناهيك بعجوز تبكي وتستعطف

فلما سمعت زبيدة كلامها ورأت ثنايا زوجها وشعره كاد الحنو يغلب على عواطفها ، فسكتت هنيهة وعبادة تراقب حركاتها ولم تشك في انها أصغت الى نداءها

على أن زبيدة أغلقت الحق وقالت لها : « ألم تتقدمي بهذه الآثار الى الرشيد في حياته ؟ »

قالت : « بلى فعلت »

قالت : « ولماذا تقدمت بها اليه ؟ »

قالت : « تقدمت اليه بها ليعفو عن زوجي يحيى »

قالت : « وماذا كان جوابه ؟ »

فجارت في الجواب ولكنها لم تر بدا من الصدق فقالت : « انه ردنى خائبة يا مولاتى »

قالت : « وهل ينبغي أن أكون أنا أعرف منه لحقك يا عبادة ؟ »
قالت : « انى تقدمت الى الرشيد اطلب حقا كنت أحسبه لى عليه ، وأما الآن فانى أستعطفك وألتمس رحمتك ولا حق لى . اطلب احسانك على فتاة لا شأن لها فى أمرنا . أما أنا فاذا ظننت انى أذنبت اليك فهذا عنقى بين يديك ولا آسف على حياتى »
فقالت : « وأى فتاة تعنين ؟ »

فاستبشرت بسؤالها وقالت : « أعنى فتاة هى بقية ذلك القتيل السىء الطالع ، ساقها شقاؤها الى الفرار مما أصاب أباه وأعمامها وجدها فبقيت على قيد الحياة وظللت أنا حية لأعولها وأتولى تربيتها ، فقضينا السنين ونحن نتستر ونعيش عيش المتسولين وقبلنا حكم القضاء فينا، فسأقت لنا الاقدار أناسا وشوا بنا الى أمير المؤمنين وحملوا الفتاة المسكينة الى قصره ، فخفت أن يغروه بقتلها ولم أجد لى بابا أطلب الفرج منه سواك فأتيته بهذه الآثار لعلها تعطفك على تلك المسكينة ، وعسى كلمة يكون لها فيها الحياة فيأمر أمير المؤمنين باخراجها فأذهب بها وأقضى بقية الحياة معها فى كوخ حقير أو أغادر هذه البلاد الى حيث تأمرين . بالله ترفقى . أسألك برأس ابنك وبحنوك عليه الا أصغيت لتذلى . وأنت تعلمين أنى لم أستعطف أحدا فى عمرى حتى ولا الرشيد رحمه الله . ولم تعد تستطع امساك نفسها عن البكاء وكانت عبادة تتوقع أن تسمع منها كلمة عطف فاذا هى تسأله : « وما اسم الفتاة ؟ »

قالت : « ميمونة يا مولاتى »

فابتسمت وحول مبسمها هالة من الحقد والنقمة وقالت : « ميمونة ! جئت تطلبين النجاة لميمونة ؟ لماذا لم ينجها حبيبها الحراسانى شاهر سيف النقمة على آل عباس ؟ . هذا الذى لو أتيح له أن يشرب دمنا لشربه ! »
فلما سمعت قولها ارتج عليها ودهشت لاطلاعها على سر كانت تحسبه مكتوما عن كل انسان ، وقد فاتها تفشى الجاسوسية فى ذلك العصر وأن لكل انسان جاسوسا على صاحبه ، حتى الأب يتجسس على ابنه والابن يتجسس على أبيه . وكان لزبيدة عيون فى بيت المأمون يأتونها بالأخبار عن كل حركة فيه ، وقد علمت بخبر الحراسانى بالأمس ، وعزمت على أن تخبر ابنها به ونم تعلم أنه غادر بغدادا ونجا من حبائلها

أما عبادة فجمد الدم فى عروقها ولم تحر جوابا . فظلت ساكنة ثم خافت أن يعد سكوتها موضعا للتهمة فأرادت التنصل منها على قدر الامكان فقالت : « لم أفهم مرادك يا مولاتى . من هو ذلك الحراسانى وما شأننا والدسائس

ونحن لا نكاد نغلا جوفنا طعاما ؟ بالله أقبل رجائي فقد صغرت نفسي وهانت على ، وكل ما أطلب منك اخراج هذه الفتاة من قصر أمير المؤمنين ومهما تأمرى بعد ذلك أفعل »

فحولت زبيدة وجهها عنها ومدت يدها بالحق اليها وقالت : « كفى يا عبادة . خذى هذا الحق لعله ينفعك فى غير هذا السبيل . وإذا كنت فى حاجة الى عطاء من مال أو طعام أعطيناك »

فأيقنت عبادة ألا خير يرجى من زبيدة وأنها تريد أن تصرفها فتناولت الحق وقالت : « كنت أقبل عطيتك يا سيدتى لو كان لى مطمع فى الحياة ، فاستغفر لذنبى على ما بدا من جسارتى ، وأرجو أن يديم الله سعدك ويؤيد عرش ابنك » . قالت ذلك وتحولت تهم بالخروج وهى تتوقع أن يلين قلب زبيدة بما سمعته فوصلت الى باب القاعة ولم تسمع صوتها ولا رأتها تحركت من مكانها . فأكبرت أن تخرج من بين يديها ذليلة مغلوبة على أمرها . فعادت اليها أنفتها وتذكرت حالها على عهد ابنها وما أصابها من المصائب بسبب زبيدة وما رآته من قساوة قلبها وشماتها بذلها . فالتفتت اليها فاذا هى لا تزال جالسة على السرير وعيناها على الوسادة تتشأغل بالتقاط فتات المسك عنها وحول شفيتها ابتسامة تغنى عن شرح عواطفها اذ جمعت بين الاستخفاف وعز الانتصار وأنفة الكبراء وشماتة الحاقدين

وكانت زبيدة تريد رجوع عبادة لأنها لم تشف كل غليلها منها ولم تجبها ساعة الوداع رغبة فى رجوعها وقد لذ لها الحديث مع امرأة ساعدتها الاقدار عليها حتى سحقتها سحقا بعد أن قتلت ابنها وأذلت زوجها وسائر أهلها وشتت شملهم واستباححت أموالهم وضياعهم وأصبح اسمهم فزعة يخافها المنتمون اليهم . وكان الرشيد قد نكب البرامكة برأى زبيدة وتحريضها ، فلذ لها النصر ، وليس ألد لقلب الانسان من النصر . ولو حلت أسباب السعادة تحليلا دقيقا لرأيتها ترجع الى النصر أو ما فى معناه . فالمنتصر فى الحرب يتمتع بالنصر على أبسط معانيه ، وناهيك بلذة القائد عند ما يرى جيشه ظافرا وجيش عدوه مدحورا . وطلاب المال لا يجمعونه خوف الجوع فإن الانسان يشبعه مالا يعجز أفقر الفقراء عن الحصول عليه ، وانما يجمع المال ليستعين به فى تنفيذ أغراضه أو تقوية نفوذه فى الدولة أو الهيئة الاجتماعية ، وذلك هو النصر أو الفوز . وطلاب الشهرة على اختلاف وجوهها انما يطلبونها التماسا لمثل هذه اللذة ، فطالب الشهرة من طريق السياسة يشعر اذا مدحه الناس على عمل أعجبوا به أنه تغلب على آرائهم بقوة عقله ، وأن أعجابهم به انما هو اقرار بتقصيرهم عنه فى ذلك السبيل . وطالبها من طريق العلم أو الشعر أو غيرها من المهن القلمية يلذ له إعجاب الناس بنفثات يراعه أو بنات أفكاره مثل شعور القائد بانتصاره على أعدائه ، فلا عجب اذا لذ لزبيدة انتصارها الكبير على البرامكة ، وخاب رجاء عبادة وتذللها

لديها لاستغراقها في تلك اللذة حتى نسيت عاطفة الشفقة أو تناستها أو
لعلها أبعدت تلك العاطفة عمدا

فلما التفتت عبادة اليها ظلت هي مشتغلة بالتقاط المسك عن الوسادة
وقلبها يخفق توقعا لما عساه يبدو من تلك الوالدة المقهورة المغلوبة على أمرها،
فاذا هي تقول لها : « أخرج من بين يديك ولم أنل جوابا منك غير الشماتة
والاستخفاف ، وقد تقدمت اليك بحرمة زوجك المدفون في طوس فاكثفت
بقولك ان الله انما أوصلنا الى هذه الحال جزاء ما جنته أيدينا ؟ » وقد سرني
انك تعرفين ذلك وان الله قادر على مثله في كل زمان ومكان ،

فنظرت زبيدة اليها فاذا هي قد تغيرت سحنتها من الاستعطاف والتذلل
الى الغضب والنفور واحمرت عيناها وجفدمعها وارتجفت شفاتها وارتعشت
يदाها ورجلاها حتى كادت تقع على الأرض لولا تجندها . وكانت قد تناولت
عكازتها فتوكأت عليها ولم تزد على ما قالت وأخذت تبحث عن نعلها لتلبسها
وتخرج فصاحت بها زبيدة : « عبادة ! » فتغافلت وظلت سائرة في الدهليز
فصاحت بها ثانية : « عبادة يا أم الرشيد ! »

فلما سمعتها تناديهما بهذه الكنية استبشرت وتراجعت وكظمت ما في
نفسها لعلها تستطيع ان تنفع ميمونة ، فالتفتت واحدى يديها على العكازة
والأخرى على خصرها كأنها تتماسك من الضعف فوقعت عيناها على عيني
زبيدة وهي ترجو ان تقرأ شيئا جديدا يشف عن انعطاف أو حنو فرأتها
لا تزال تبتسم ابتسامتها المعهودة وقد زاده رهبة ما بدا في عينيها من دلائل
الغضب ، فظلت عبادة بضع لحظات تنفرس في عيني زبيدة وتقرأ الغضب
فيهما ، ولكنها غالطت نفسها رغبة في انقاذ ميمونة ، واذا بزبيدة تقول
بصوت مختنق : « أتدعين على ابني بالقتل ؟ »

قالت : « معاذ الله يا سيدتي ! أطلب اليه تعالى الا يريك مكروها فيه .
بل أتوسل اليه ان يحفظ كل أبناء الناس لعل حفيدتي المسكينة أن تصيب
طرفا من عنايته ، ثم تغير صوتها واختنق

فقطعت زبيدة كلامها وقالت : « أكنت تطلبين ذلك من قبل ؟ »

فأدركت عبادة أنها تشير الى أيام عزها قبل مقتل ابنها فقالت : « كنت
أرجو ذلك ليبقى ابني ولكنني لم أكن أقوله بحرارة قلب ولهفة كما أفعل
الآن لأنني لم أكن جربت الذل بعد . كنت مثلك يا مولاتي لا أعرف من الدنيا
الا نعيمها وراحتها ، وكنت أحسب الدهر يدوم لي فاذا هو قد أذاقني ما لم
يسمع بمثله في الأرض »

فأدركت زبيدة أنها تعرض بما تخافه عليها من النكبة ، فكرهت أن
تسمع شيئا يكدرها اذا هي أطالت الحديث معها ، فوقفت وأخذت تتشاغل
باصلاح عقدها والعصابة التي حول رأسها كأنها تتأهب للخروج . فاكثفت
عبادة بما قالت وتحولت وخرجت الى قصر المأمون

الفضل بن سهل

فلنترك أهل بغداد على ما هم عليه لنرى ما كان من أمر بهزاد بعد رحيله ، فقد ذكر في كتابه الى ميمونة انه مسافر الى خراسان ، وانه أوصى سلمان بما عليه أن يصنعه في أثناء غيابه . فغادر بغداد على فرسه وقد شد ذلك الصندوق الى السرج ، وسلك أقرب الطرق وكان اذا بات في خان أو نزل به ادعى انه طبيب معه صندوق العقاقير . وبعد أيام قطع في أثنائها جبالا وسهولا وأودية وأنهارا ، أشرف على مدينة « مرو الشاهجان » عاصمة خراسان في ذلك العهد . وهي في منبسط من الأرض ، حولها سور مربع الشكل ، وفي وسطها قلعة ضخمة يقال لها في اصطلاحهم « القهندز » تظهر للمطل على مرو من بعيد فيحسبها بلدا ، وكانوا يغرسون على سطحها الأشجار والمباقل كأنها بستان على رأس جبل . ولم يكن ذلك المنظر ليثير بهزاد فانه نشأ في هذه المدينة وشب فيها ، فدخل توا يلتمس منزل الفضل ابن سهل

وكان الفضل بن سهل من سرخس ، وقد نشأ بجوسيا ودرس علم النجوم ثم أدخله يحيى البرمكي في خدمة الدولة في أيام الرشيد ولم يسلم الا سنة ١٩٠ هـ على مذهب الشيعة . وانما أسلم رغبة في نصرة الفرس بخراسان . وتعهد به يحيى برعايته لحتى صار من خاصته ثم جعله قهرمانا له . ثم توسم الفضل في المأمون نجابة وتعقلا فتوقع أن تصير الخلافة اليه فلزمه وخدمه وتقرب منه . وكان المأمون يجله ويقدمه . فأصبح الفضل لا يطمع في أقل من الوزارة

ويحكى أن مؤدب المأمون قبل الخلافة لما رأى جميل رأيه في الفضل واکرامه اياه نقل ذلك الى الفضل وقال له : « لا استبعد أن يحصل لك منه ألف ألف درهم » . فاغتاظ الفضل وقال : « والله ما صحبتته لاكتسب منه مالا قل أو جل ، ولكني صحبتته ليمضى حكم خاتمي هذا في الشرق والغرب ! »

وكان الرشيد لما بايع لولديه بولاية العهد جعل للأمين العراق والشام الى آخر المغرب على أن يكون الخليفة بعده ، وجعل للمأمون خراسان وسائر المشرق على أن يتولى الخلافة بعد أخيه الأمين . وكل ذلك بتدبير جعفر وغيره من أحزاب الشيعة وفي جملتهم الفضل بن سهل . ولما أراد الرشيد سنة

١٩٢ هـ أن يسير الى خراسان أمر ابنه المأمون أن يبقى في بغداد حتى يعود . وكان الرشيد مريضا فخاف الفضل أن يموت الرشيد في الطريق فيذهب سعيه سدى . فجاء الى المأمون وقال له : « لست تدري ما يحدث للرشيد ، وخراسان ولايتك ، ومحمد الأمين مقدم عليك ، وليس مستبعدا أن يخلعك وهو ابن زبيدة وأخواله بنو هاشم ، وزبيدة وأموالها كما تعلم . فاطلب الى أمير المؤمنين أن تسير معه » . فطلب المأمون ذلك من أبيه فامتنع أولا ثم أجاب . فسار المأمون مع أبيه ومعهما الفضل ، وكان اهتمام الفضل منصرفا أثناء الطريق الى تأييد أمر المأمون فأخذ له البيعة على كل من في عسكر الرشيد من القواد وغيرهم ، وأقر له الرشيد بجميع ما معه من الأموال . ثم نزل المأمون « مرو » قسبة خراسان ، واشتد المرض على الرشيد وهو في « طوس » والأمين في بغداد وله عيون مع الرشيد أشدهم غيرة عليه الفضل ابن الربيع وزير الرشيد بعد البرامكة . فلما بلغ الأمين اشتداد المرض على أبيه بعث الى ابن الربيع وغيره يحثهم على بيعته . فلما مات الرشيد هناك سنة ١٩٣ هـ احتال ابن الربيع على من كان في ذلك العسكر وحرضهم على اللحاق بالأمين فأطاعوه رغبة في الرجوع الى أهلهم في بغداد ، وأغفلوا العهود التي أخذت عليهم للمأمون ، وحملوا ما كان في عسكر الرشيد الى الأمين وتمت له البيعة

فلما بلغ المأمون موت أبيه ورجوع رجاله الى أخيه بالأحمال والأموال وقد نكثوا عهده ، خاف على نفسه فجمع خاصته بمرو ، وشاورهم في الأمر مظهرا لهم ضعفه وأنه لا يقوى على أخيه . فنشطوه ووعدوه خيرا . ولبت الفضل يترقب الفرص لنيل بغيته التي أسلم لأجلها . وكان من جملة مساعيه قبل موت الرشيد أنه أنفذ بهزاد طبيبا الى بيت المأمون ، ومعه سلمان خادما له وهو من رجال الحرمية أيضا . وكانت المراسلات السرية دائرة بين بهزاد والفضل فلما مات الرشيد واستأثر الأمين بالخلافة وإن العمل في خراسان ركب بهزاد اليها ليكون مع الفضل

وكان الفضل يوم وصول بهزاد الى مرو جالسا في قصره مع أخيه الحسن ، فجاءه الحاجب بأن بهزاد بالبواب فأمر بادخاله ، فدخل وهو لا يزال بلباس السفر وفي يده الصندوق ، فوضعه بالبواب وسلم ، فرحب به الفضل والحسن وأجلساه في صدر القاعة . وكان الفضل صفراوى المزاج رقيق البدن أصفر الوجه مع صحة ونشاط ، وهو يومئذ في حدود الكهولة اذا نظرت الى عينيه رأيتهما ينطقان بما في صدره من المطامع وما يضمرة من المكاييد وما يفكر في نصبه من الحبائل بهدوء ورباطة جأش . ولم يكن أخوه الحسن في مثل مزاجه ودهائه وكان أقرب الى اظهار ما في نفسه وتجلي أغراضه في وجهه . فلما جلس بهزاد أخذ الفضل وأخوه يسألانه عما وراءه ، فقص عليهما ما جرى . فأعجبا بشجاعته وغيرته ، ثم سأله الفضل رأيه في

حزب الحرمة ببغداد، فأجاب بقوله : « انهم على دعوتنا لا يدخرون في سبيلها مالا ولا نفسا »

قال : « وكيف فارقت ذلك الغلام ؟ » • يريد محمدا الأمين

قال : « فارقت بين الكأس والطاس والجواري والغلمان »

فقال الحسن : « ان دولته ذاهبة لا محالة ولكن • • »

فقال بهزاد على الفور : « ولكن ذلك لا ينفعنا الا اذا اذهبناها نحن »

فضحك الفضل ضحك الظافر وقال : « وانا لفاعلون ان شاء الله ، انما ينقصنا ان يستحكم الخلاف بين الاخوين حتى يستنصرنا هذا على ذاك فنشترط شرطنا

قال بهزاد : « لا تلبثون ان تسمعوا بذلك قريبا بفضل صاحبنا سلمان ، والا ذهب اسلامك عبثا ! »

فشق هذا التصريح على الفضل لانه مع اشتهار ذلك عنه واشتراك بهزاد معه فيه ، لم يكن يرضى ان يقال عنه انه اسلم رغبة في الدنيا ، أو لعله بعد ان اسلم احتيالا أصبح يرى الاسلام حقا • ولكنه سكت لانه كان يريد ان يثبت قدم بهزاد في العمل معه لما أظهره من الكفاءة ، ثم نظر الى أخيه الحسن كأنه يكتنم أمرا يتردد في التصريح به ففهم غرضه وابتسم ونظر الى بهزاد وبقي هذا ساكتا ، فابتدعه الحسن بالكلام قائلا : « اننا نرى لك فضلا كبيرا في نصره الفرس ، وسيأتي يوم تنال فيه نصيبك من الفوز »

فقطع الفضل كلامه قائلا : « بل يناله اليوم • فهل نجد أكفا منه لبوران • »
يعنى بوران بنت الحسن بن سهل ، وكانت بارعة في الجمال يتحدث أهل خراسان بجمالها وتعقلها

فلما سمع بهزاد اسمها أجفل ، لانه مقيد القلب • ولكنه لم يكن يستطيع رفضا • وكاد الاضطراب يظهر في وجهه ولكنه تجلد وحنى رأسه شاكرا وقال : « انها نعمة لا أستحقها ، ولم أعمل عملا يخولني هذا الانعام ، ونحن لا نزال في أوائل الطريق ! »

فاستحسن الفضل عذره ولم يخطر له ببال أنه يتجنب الزواج ببوران وليس في كبراء خراسان واحد لا يتمنى رضاها وقال : « وتكون قد تدرجت في مناصب الدولة »

فقال بهزاد : « اعذرني يا سيدي واعفني من المناصب فأنا أخدم أمتي من طريق آخر • ثم تحفز للوقوف وقال : « واستأذن الآن في الذهاب الى منزلي • » قال ذلك ومشى الى الباب وتناول الصندوق وهم بالخروج فاستوقفه الفضل قائلا : « ما هذا الصندوق ؟ »

قال : « انه صندوق العقاقير يا مولاي »

وخرج من القصر فركب فرسه وأوغل في المدينة مخترقا أزقتها الضيقة حتى بلغ الى بعض أطرافها وهو غارق في بحار التأمل ، وقد ساء ما ذكره الفضل عن بوران لعلمه بأن الفضل يعنى تزويجه بها ، وقد فاته انه انما قال ذلك ترغيبا له في مناهضة العباسيين ، ولو علم الفضل حقيقة بهزاد لراه أرغب أهل فارس في مناهضتهم

فهاجت أشجانه ، وتذكر ميمونة وكيف تركها في بغداد والعداء لا يلبث أن يستحكم بين الأخوين وتنشب الحرب بين البلدين . ولكنه اطمأن لاقامتها بقصر المأمون . وأنسته هذه الهواجس طريقه فانتبه فاذا به قد جاوز المكان الذي يقصد اليه ، فدار حتى أتى زقاقا انتهى منه الى باب برجل عنده ، ووقف والصندوق بيده وقرع الباب قرعا خاصا ولبث واقفا ، ففتح الباب وخرج منه عبد طويل جاوز مراحل الشباب ، فلما وقع نظره على بهزاد ترامي على يديه وأخذ يقبلهما ويقول : « سيدي . . سيدي . أنت جئت ؟ لقد طال غيابك ! » . قال ذلك وأراد أن يأخذ الصندوق منه فأباه عليه ومشى ، فأدخل العبد الفرس الاسطبل وأقفل الباب وسار بين يدي بهزاد مهرولا فرحا حتى وصلا في آخر الدهليز الى فناء واسع ، فتحولا من بعض جوانبه الى غرفة في صدرها عجوز طاعنة في السن قد شاب شعرها وتضن جبينها وطال حاجباها حتى غطيا عينيها وقد تزلزلت بمطرف وجلست الاربعاء ، فلما أطل العبد عليها صاح : « مولاتي ، جاء سيدي . جاء سيدي »

فبغتت وصاحت : « جاء ؟ أين هو ؟ » . وكان بهزاد قد وصل اليها فجثا عند قدميها وقبل يدها ، فرفعت بصرها اليه وعانقته وضمتها الى صدرها وأخذت تقبله وهي تبكي وتقول بصوت مخنق : « أهلا بولدي وحبيبي . أهلا بك . أنت جئت يا كيفر . لقد طال انتظاري يا بني وخفت أن أموت قبل أن أراك وأفي بنذري » . قالت ذلك وخنقتها العبرات

أما هو فتجلد وقال : « ما الذي يبكيك يا سيدتي ؟ فلنحمد الله على اللقاء » فتراجعت وأمسكت عن البكاء وقالت : « اني أحمد الله حمدا كثيرا يا بني على رجوعك سالما . من أين أنت آت الآن ؟ » . قال : « من بغداد »

قالت : « وهل وفقت الى ما تريد ؟ » . قال : « وفقت وجئت بما تطلبين » قالت وقد دهشت : « جئت برأسه ؟ » . قال : « نعم يا سيدتي » قالت : « أين هو ؟ » . فأشار الى الصندوق وقال : « هنا »

فمدت يدها لتتناول الصندوق وقد نشطت كأنها استعادت شبابها وقالت : « في هذا الصندوق ؟ افتحه . أرني رأس مولاي . أرني اياه لأتمتع برؤيته قبل انقضاء أجلى ! »

فاعتدل في مجلسه ، والتفت الى العبد فانصرف من الغرفة . فلما خلا الى العجوز أخذ يعالج الصندوق حتى فتحه وأخرج جمجمة وضعها بين يديها

وقد فاحت منها رائحة التراب المتعفن ، فنظرت الى الجمجمة بعينين محمقتين وصاحت : « هذا هو رأس أبى مسلم . هذا هو رأس أبى . انك أحييته يا بنى » . وأخذت تقبل الرأس وقد شرقت بدموعها

أما هو فكاد يبكى معها ولكنه تجلد وقال : « وستفرحين يا سيدتى متى انتقمتم له ! »

قالت وقد ملكت أمرها رغم ما بدا من ارتعاش أناملها : « نعم يجب أن تنتقم له ، وأنا انما دعوتك « كيفر » رغبة فى ذلك . ان اسمك يا بنى معناه الانتقام . انك ستنتقم لهذا المقتول ظلما . وكيف عثرت عليه وقد بلغنا أنهم رموه فى دجلة ؟ »

قال : « كنت أظن ذلك ، ولكننى عرفت شيئا كان حاضرا مصرعه فدلنى على مدفنه فى المدائن وأعاننى على اخراجه . هذا هو رأس أبى مسلم بلا ريب تفرسى فيه جيدا »

فأعادت النظر الى الرأس وعينساها تغشاها الدموع وقالت : « نعم هو بعينه ، يدلنى على ذلك خفقان قلبى . وهل يخفى على رأس أبى ؟ نعم الرجل أنت يا كيفر ! . انك ستنتقم له . . هل آن وقت الانتقام ؟ »

قال : « قد آن يا سيدتى . وآن أن تقصى على خبر نسبى وتمنعينى الوديعة التى وعدتنى بأن أستخدمها فى الانتقام »

قالت : « انها حاضرة يا ولداه ، تمهل قليلا . لابد من أن أقص عليك خبرها أولا . . اجلس . . ألا تتناول طعاما ! »
قال : « كلا يا سيدتى »



نهضت العجوز من مكانها منتصبية القامة كأنها فى عنفوان الشباب ، وضغطت كتف بهزاد لتمنعه من النهوض معها ، ثم مشيت الى خزانة فى جانب الغرفة وأخرجت من جيبها مفتاحا عالجبت الخزانة به حتى فتحتها وهو ينظر اليها بلهفة ، فأخرجت لفافة مستطيلة من الخز ورجعت بها فوضعتها بين يدي بهزاد وقعدت وقالت : « انت تعلم انى فاطمة بنت أبى مسلم الحراسانى ؟ » . قال : « نعم »

قالت : « ويعتقد الناس وأنت منهم أنك رببت فى حجرى . لا تسرف أبويك ولا يعرفهما أحد سواى »
قال : « صدقت »

قالت : « ان جماعة الحرمية يكرموننى لأننى من دم أبى مسلم ، ولكنهم لا يعلمون أنك أنت من دمه أيضا »

فصاح قائلا : « أنا من دم أبى مسلم ؟ وكيف ذلك ؟ »
قالت وهى تبتسم : « لا نك ابنى »
قال وقد أخذته الدهشة : « ابنك ؟ أنا ابنك ؟ »
قالت : « نعم يا ولدى • انك حشاشة كبدي • وضمتة الى صدرها وقبلته

فقبل يدها وقال : « وكيف ؟ »
قالت : « لأننى تزوجت ولا يعلم الناس أنى وضعت ولدا من أبىك
فيزعمون انك غلام فقير احتضنتك وربيتك »
فاضطرب بهزاد والتبس عليه الأمر فقال : « وكيف اذن ؟ كيف أنا
ابنك ؟ »

قالت : « لا تعجب • ان أباك محرز بن ابراهيم توفاه الله وأنا فيما يقرب
من سن اليأس وظننتنى عاقرا ، ولكننى لما توفى كنت حاملا بك ، وعند
الوضع أخفيت خبرك حينما ثم أظهرت انى احتضنتك وربيتك • ولما كبرت
غرسيت حب جدك أبى مسلم فى قلبك وسميتك (كيفر) أى الانتقام • لأن
أولئك الظالمين حرقوا قلبى بقتل جدك غدرا تلك القتلة الشنعاء • وما زلت
منذ تزوجت وأنا أعد نفسى بولد أكرس حياته للانتقام لأبى ، اذ إنه لم
يخلف ابنا ينتقم له ، وطال انتظارى كما سمعت ، ثم جئت أنت فنذرتك
لهذا الغرض • وقد حفظت من أثر جدك خنجرا لم يخنه قط ، وكان النصر
مصباحا له طالما تقلده » • قالت ذلك وحلت اللقافة وأخرجت منها خنجرا
استلته فلمع فرنده كالبرق ، ودفعته اليه وقالت : « انتقم لأبى مسلم بهذا
الخنجر »

فتناول بهزاد الخنجر وقلبه بين يديه ثم قبله وأغمده وخبأه فى جيبه
وقال وهو يحسب نفسه فى منام : « انى اذن حفيد أبى مسلم الحراسانى •
قد كنت أسمى للانتقام منه متأثرا بما ربيتنى عليه ، أما الآن فأنتقم له لأنه
جدى ! » • ولما قال ذلك أبرقت عيناه وثار الحمية فى رأسه وتذكر ميمونة ،
كما تذكر رأسا آخر فمد يده الى الصندوق وهو يقول : « وهنا رأس آخر
نحن ناقدون على قاتله » • وأخرج يده وهو قابض على ذلك الرأس من
شعرات فى ناصيته يمس الدم عليها وقد جف جلد الوجه واسود والتصق
بالعظم حتى يحسبه الناظر اليه عظما أسود

فنظرت فاطمة الى ذلك الرأس فلم تعرفه فقالت : « رأس من هذا ؟ »
قال : « تفرسى فيه • ألم تعرفيه ؟ »
فتفرست فيه وقالت : « لا • لم أعرفه »
قال : « رأس جعفر القليل الثانى »

فصاحت : « رأس جعفر ؟ جعفر بن يحيى ؟ »
قال : « نعم يا أماء . انه رأس جعفر المقتول غدرا » . وحدثته نفسه أن
يبسوح لأمه بحبه لميمونة ، ثم أطرق وهو يراجع في ذهنه ما سمعه من
الغرائب في تلك الساعة

قالت : « وكيف عثرت عليه يا بني ؟ »

قال : « ألم تعلمي أن الرشيد غدر به وقتله ولم يكتف بقتله بل قطع بدنه
قطعتين نصب كلا منهما على جسر من جسور بغداد ونصب الرأس على جسر
ثالث . معرضة للحر والبرد والشمس والمطر سنتين ، حتى سافر الرشيد
الى الري وعند رجوعه عزم على الإقامة بالرقعة فمر ببغداد وأمر أن تنزل جثة
جعفر وتحرق وكنت أثناء نصب الجثة قد وكلت الى سلمان أن يسمي في
الحصول على الرأس فلما أنزلوا الجثة احتال على الموكل بالاحراق وأخذ منه
الرأس فحفظته في هذا الصندوق حتى جمعت اليه رأس جدى »

فأعجبت فاطمة بما أتاه ولدها ، فقبلته وقالت : « ضع هذين الرأسين في
الصندوق ، وضع الخنجر معهما ، حتى يأتى وقت تجريده فتثقلده وأنت
فائز باذن الله . ولكن اكتم ما ذكرته لك عن كل انسان ، وسيأتى يوم تثقلد
فيه هذا الخنجر وتقتل به عدوك ، تقتل به بعض أبناء قاتل جدك . . ولكن
احذر يا بنى أن تظهر للملأ ما تعمله فاذا دعيت الى الحرب فلا تكن قائدا أو
أميرا »

فقال : « ذلك ما عزمت عليه . فانه لا أرب لى الا فى الانتقام »

فتنهدت وقالت : « هل أرى ذلك اليوم وأشفى غليلي ؟ »

قال : « أرجو أن تريه وتفرحى بى »

قالت : « وستجتمع بالخرمية . فكن لديهم على ما يحبون . فهم يعدونك
زعيمهم لأنك ربيبى ، فأبق معهم على هذه الحال لئلا يفسد عليك تدبيرك »

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب وأعد الطعام فنهضا واكلا . وبات
بهزاد (أو كيضر) ليله وقد أحس بنشاط جديد كان روح أبى مسلم دببت
فيه وتذكر ما يعلمه عن حال الخلافة في بغداد وضعف أمرها فتوقع أن تسنح
الفرصة للانتقام عند ما يخلع الأمين أخاه وكان واثقا من ذلك وعالما بما دبره
سلمان فى هذا الشأن

ونهض فى اليوم التالى فسار الى حيث اجتمع ببعض كبار الخرمية فى
خلوتهم السرية ، فشجعهم وأبلغهم ما شاهدته من استعداد أنصارهم فى
بغداد لنصرتهم بما يملكون ، وتباحثوا فى تدبير الأمور والتربص ريثما
يأتى الوقت للانتقام . وكان ينتظر ما يأتى من أخبار سلمان ببغداد

قضى فى ذلك أياما دون أن يجتمع بالفضل ، ثم أصبح ذات يوم فاذا

بهجان جاءه بكتاب خبأه في نعاله حذرا من أن يراه أحد ، فتناول الكتاب وعلم من خاتمه انه من سلمان ، ففضه وقرأه فاذا فيه :

« من سلمان خادم الحرمية الى رئيسهم ومقدمهم بهزاد

« أما بعد ، فقد علمت ما نحن ساعون فيه وقد وفقنا الى ذلك بالأمس فان الفضل بن الربيع لما قدم من العراق بعد أن نكت بعهد المأمون ، أصبح خائفا على نفسه منه اذا ولى الخلافة ، وراح يعمل على تجنب هذا الخطر ، وقد حثه رئيس المنجمين على اغراء الخليفة بخلع أخيه من ولاية العهد ليختص بها موسى بن الأمين ، وناور الأمين في ذلك ابن ماهان ، وهو كثير الثقة بهذا الشيخ المغرور ، فأشار عليه بالمبادرة الى تنفيذه . فقبل مسورته ، وجعله شيخ الدعوة ونائب الدولة ، ولا يبعد أن يوليه قيادة الجيش . ولئن نشبت الحرب لنكونن قيادته شؤما على الخليفة ، فابن ماهان مغرور لا ينفع . وقد علمت هذا الصباح أن الأمين كتب الى عماله بالدعاء لابنه موسى بالامارة ، وأظنه يبعث الى المأمون في خراسان يطلب اليه أن يخلع نفسه . فافعلوا ما ترونه ، ونحن هنا في خير والسلام »

فلما أتى على آخر الكتاب انشرح صدره وشعر أنه تقدم خطوة كبرى نحو الغرض المطلوب ، وكان وقتئذ في منزل أمه فأطلعها على الكتاب فاستبشرت وقالت : « قد دنا الوقت يا بني ولا أظن الفضل بن سهل يجهل ما يجب عليه في مثل هذه الحال ، واذا جهله فهل تجهله أنت أيضا ؟ »

قال : « ارشديني برأيك يا أماه »

قالت : « اذا استفحل الأمر بين الأخوين فعلى الفرس أن ينصروا المأمون فينصرهم ويرعى حقهم ، ولكنهم اذا أرادوا بعد ذلك أن يتخلصوا من المأمون ، ليستأثروا بالسلطان لأنفسهم بلا خلافة ، فلا شك في أن سعيهم يذهب عبثا لأن العامة لا يحكمون الا بالدين »

قال : « ولكن معنا خليفة هو المأمون نحكم الناس به »

قالت : « وهل يخلد المأمون ؟ انه اذا مات اننقل الأمر الى بعض أهله ، وقد يكون خليفته راصيا عما وفد يكون ناقما علينا كما كان الرشيد فينتقم منا شر انتقام ! »

فوقع قولها من نفسه موقعا عظيما ، وأعجب بدهائها وتذكر ما دار بينه وبين كمار الحرمية ليلة الايوان في المدائن وقال : « وما الرأي اذن ؟ »

قالت : « الرأي أن تهيئوا منذ الآن مستقبلا ثابتا لأعقابكم . فاذا لم يكن بد من وعود خليفة عربي فالعلويون أقرب مودة لنا من سائر العرب فاشترطوا على المأمون اذا نصرتموه أن يجعل الخلافة بعده لبعض العلويين

(الشيعة) فيتم لكم ما تريدون . فاعرض هذا الرأي على الفضل بن سهل ، وانظر ماذا يرى .

فلما سمع نصيحتها هم بيدها فقبلها ، واستأذنها في الذهاب الى الفضل ليطلعه على كتاب سلمان ويباحثه في الأمر . ثم خرج وتوجه الى القصر فبلغه عند الضحى ، ودخل دون أن يعترضه الحاجب لعلمه بمنزلته عند مولاه ، فمر في الحديقة وسار توا الى مجلس الفضل وأخيه وكانا يقيمان معا بذلك القصر فرأى في طريقه قبة وسط الحديقة ، يقف ببابها غلام . فأيقن أن الفضل جالس تحتها ، واتجه اليها محاولا الدخول ، فاذا بفتاة خارجة منها في غير كلفة لأنها لا تعلم بوجود أحد غريب هناك ، فوقف بهزاد ذاهلا ووقع نظرها عليه فأجفلت وبدأت البغته في محياها وتوردت وجنتاها خجلا، ووقفت لحظة كأنها صنم لا يتحرك ، وارتبكت في أمرها لا تدري : أترجع الى القبة وفي رجوعها ضعف ؟ أو تقابل القادم وتحبيه ؟

وكانت بملابس البيت ، وعلى رأسها نقاب خفيف اذا أسدلته على وجهها لم يغط الا بعضه ، فلما وقع نظر بهزاد عليها أعجب برونق جمالها واشراق محياها وبريق عينيها بما يتجلى فيهما من الذكاء والحياء ، فخجل لما سببه لها عفوا من الانزعاج ، وابتدورها قائلا : « العفو يا مولاتي . اظننى أزعجتك ؟ واننى أريد مولانا الفضل وقد حسبته في هذه القبة على عادته »

فقالت وهي تنظر اليه نظر السذاجة وصفاء النية : « ان عمى الفضل خرج مع أبى هذا الصباح للاجتماع بالمأمون . وليس فى قدومك أى ازعاج ، واذا صدق ظنى فأنت صديقهما بهزاد ؟ » . وسكتت كأنها تنتظر جوابه فابتدورها قائلا : « نعم يا سيدتى يسموننى بهزاد »

فقالت : « ان والدى وعمى معجبان بك ولو كانا هنا لفرحا بقدومك . اجلس اذا شئت »

فأعجب بهزاد بظرف الفتاة وذكائها على صغر سنها ، وعلم أنها بوران بنت الحسن بن سهل ، وتذكر تلميح عمها في شأنها فرأى أنها جسيمة افضل الرجال ، ولو لم يكن قلبه مشغولا لكانت نصيبا حسنا . فأجابها نوله : « أشكرك يا سيدتى على تطفلك ، وكنت أود البقاء هنا ولكنى أرانى مضطرا الى الذهاب الى مجلس المأمون أيضا » . قال ذلك وتحول يطلب قصر المأمون ، وهو قصر الامارة لأن المأمون كان يومئذ أميرا على خراسان



المأمون

كان المأمون في خراسان حينما مات أبوه الرشيد ، فلما بلغه ما فعله الفضل بن الربيع من نقض بيعته والعودة بالأموال من طوس الى بغداد ، جمع أصحابه من الفرس في مرو - وكبيرهم يومئذ الفضل بن سهل - واستشارهم ، فأشار أكثرهم عليه بأن يدرك ابن الربيع وأصحابه «بجريدة» فيردهم . ولكن الفضل بن سهل حذره من أن يترك خراسان وقال له : « أن فعلت ذلك جعلوك هدية لأخيك . والرأي أن تكتب اليهم كتابا وتوجه رسولا يذكرهم بالبيعة ويسألهم الوفاء »

فعمل المأمون برأيه ولم يجد في ذلك نفعا أول الأمر ، فقلق وخاف العاقبة ، ولكن الفضل أخذ يطمئنه وقال له : « انت نازل في أخوالك ، وبيعتك في أعناقهم . فاصبر وأنا أضمن لك الخلافة » . وأشار عليه بأن يلزم التقوى لأن العامة لا تحكم بشيء حكمها بالدين . وكان المأمون عاقلا حكيما لطيفا ودبعا رقيق الجانب يحب العلم وقد تفرغ له لما أقام بخراسان وفيها جماعة من العلماء ، فكان يقضى نهاره في مجالستهم ومباحثتهم حتى أطلع على علوم القدماء ولا سيما الفلسفة . وكان ربعة في الرجال ، أبيض جميلا ، طويل اللحية خفيف الشعر ، ضيق ما بين الحاجبين ، في خده خال أسود ، وفي عينيه ذكاء ولطف اشتهر بهما حتى ضرب به المثل وقد تربى على مذهب الشيعة وأحبهم ، لأنه شب في حجر البرامكة ثم الفضل بن سهل

ولبت المأمون في خراسان ينتظر ما يكون من أخيه الأمين ، حتى جاءه منه يوما وقد يكلفه أن يبايع لموسى بن الأمين ويقدم اسمه في الخطبة ، ويدعوه الى بغداد بحجة أنه قد استوحش لبعده . فارتاب المأمون وبعث الى الفضل يستشير في الأمر ، فجاءه هذا الى قصر الإمارة وخلا اليه في مجلس خاص لم يحضره الا خواص الأمراء وفي مقدمتهم أخوه الحسن

فقال المأمون : « جاءنا من أخينا وقد يطلبون الى أن أقدم ابنه موسى على ويدعونني أن اذهب اليه » . فقال الفضل : « أما تقديم ابنه ففيه نكت للبيعة ، والله على الباغي . وأما خروجك من خراسان فإن عزمك عليه فأنت صاحب الأمر ، ولكنك تفقد كل أمل في الدفاع عنك . وليس هذا قولي فقط بل هو قول الخراسانيين جميعا . وهذا هشام كبير وجهاء خراسان فليساله مولاي »

وبعث المأمون الى هشام ، فلما جاءه واستشاره ، قال : « انما بايعناك على ألا تخرج من خراسان . فاذا خرجت منها فلا بيعه لك في اعناقنا . ومتى هممت بالمسير تعلقت بك بيمينى ، فاذا قطعت تعلقت بيسارى ، فاذا قطعت تعلقت بلساتى ، فاذا ضربت عنقى كنت قد اديت ما على ! »

فلما سمع المأمون قوله تشجع ، والتفت الى الفضل فقال له « ذلك ما يراه كل الخراسانيين وهم اخوانك » . ثم اشار عليه باستقاط اسم الامين من الخطبة والطراز ، وقطع البريد عنه ، ففعل وولاه الوزارة في حالى الحرب والسلم وسماه ذا الرياستين

وفيما هم في مجلسهم دخل الفلام يستأذن لبهزاد الطبيب ، فسأل المأمون عنه فقال الفضل : « هو طبيب قصركم في بغداد » . فتذكره وقال : « يدخل » فدخل بهزاد وحيى ، فاشار اليه المأمون بالجلوس فجلس ، ثم سأل المأمون : « كيف فارقت بغداد ؟ » . فقال : « فارقتها وهى تندب اهل الصلاح ، على ان اهل امير المؤمنين والحمد لله في خير وعافية ، ولكن . . . » . وسكت

فقال المأمون : « ولكن ماذا ؟ »

قال : « ولكن لا اعلم كيف يكون حالهم بعد ان استفحل امر اصحاب المطامع حتى نكثوا البيعة ، فاذا راي امير المؤمنين ان يستقدم اهله اليه فعل ! »

فقال : « اصببت ايها الطبيب ، انى فاعل ذلك ان شاء الله »

وانما اشار بهزاد بذلك على المأمون رغبة في استقدام ميمونة ونجاتها من اعدائها ، ولم يكن سلمان قد اخبره بشيء مما اصابها في بيت الامين وسأله المأمون : « وكيف فارقت ام حبيبة ؟ »

فقال : « فارقتها بعافية وشوق الى ابيها »

فابتسم المأمون عند ذكر ابنته لانه كان يحبها كثيرا ويعجب بذكائها وتعقلها على صغر سنها وتحقق ان يقاء اهل بيته في بغداد لا يخلو من الخطر فعزم على استقدامهم ، فالتفت الى الفضل الجالس بجانبه وقال : « كيف ترى الطالع اليوم ؟ هل يستحسن ان نرسل فيه من يحمل اليها اهلنا ؟ »

فاخرج الفضل من جيبه اسطرلابا صغيرا من الذهب كان لا يفارقه ، واطل من بعض نوافذ القصر ونظر فيه وعاد فقال : « لا بأس بالذهب اليوم يا سيدى ، ولكن الذهب غدا افضل »

فعهد المأمون الى خادمه نوفل في السفر الى بغداد لاستقدام اهل بيته ، ثم التفت الى الفضل وسأله : « وبماذا نجيب وفد الامين ؟ »



وقال المأمون لذويه : « جاءنا من أخا وفد يطلبون الى أن أقدم ابنه موسى على .. »

قال : « الراى لأمير المؤمنين ، واذا اذن فى ابداء راى فارى أن ترد الوفد خائباً ، فانك بين اخوالك أمنع عليه منك فى بغداد بين رجاله وكلهم يداجونه ويتملقونه . كما ارى أن تلاينه وتكتب اليه كتاباً رقيقاً لا تظهر فيه عزمك على مناواته ، بل تتلطف فى استعطافه فان ذلك اقرب الى الدهاء فى السياسة ! » فاستحسن المأمون الراى وكتب الى اخيه الأمين كتاباً قال فيه : « اما بعد فقد وصل الى كتاب أمير المؤمنين ، وانما انا عامل من عماله . وعون من اعوانه . وقد امرنى الرشيد بلزوم الثغر ، ولعمري ان مقامى به لأعود بالفائدة على سلطان أمير المؤمنين ، واعظم غناء للمسلمين . وان يكن فى شخصى الى بغداد ما يحقق املى فى قرب أمير المؤمنين والاغتباط بمشاهدة نعم الله عنده . فان راى أن يقرنى على عملى ويعفينى من الشخصى فعل ان شاء الله . » ودفع الكتاب الى رئيس الوفد

ثم تحرك المأمون ، فعلم اهل المجلس ان قد آن لهم ان ينصرفوا فنهضوا وبهزاد اكثرهم رغبة فى القيام ليلبغ الفضل راى امه فى البيعة لأحد العلويين على ان يجعل ذلك شرطاً من شروط نصرة المأمون

فصبر بهزاد حتى رجع الفضل الى منزله فتعقبه وطلب الخلوة به ، فلما خلوا بدا بهزاد فى الثناء على ما ابداه الفضل من الراى الصائب فى المجلس ، ثم مد يده ودفع اليه كتاب سلمان وقال : « اقرا هذا الكتاب »

فقرأه ولم يأت على آخره حتى غلب عليه الضحك وقال : « اذا صح ظن سلمان ، وعهد الأمين بقيادة جنده الى ابن ماهان . كان ذلك غاية توفيقنا . وهذا ما كنت أتمناه واسعى اليه ، لأن ابن ماهان - فضلاً عن غروره وضعفه - تولى خراسان ايام الرشيد واساء السيرة فى اهلها وظلمهم ، فعزله الرشيد لذلك ونفر اهل هذه البلاد منه وابغضوه فاذا حاربوه يحاربونه وهم ناقمون عليه . وهو يظن اهل خراسان يحبونه لأن بعضهم خدعه بكتب بعثوا بها اليه يعدونه اذا جاءهم بأن يستسلموا اليه . وهذا ما كنت أتمناه منذ بدا الخلاف بين الأخوين »

فقال بهزاد : « ماذا تعنى بتوفيقنا يا مولاي ؟ »

قال : « اعنى ان ننتصر على الأمين ونخلعه ونولى المأمون مكانه »

قال : « وما نفعنا من ذلك ، اليس كلاهما عباسيا عربيا ، وكلاهما ابن الرشيد قاتل جعفر وحفيد المنصور قاتل ابي مسلم ؟ »

قال : « ولكن المأمون ابن اختنا وعلى مذهب الشيعة مثلنا ، وهو صنيعتنا يعمل براينا فيكون النفوذ لنا »

قال : « هل تضمن بقاءه على ولائنا ؟ واذا ضمنت ذلك فهل تضمن ان يكون خليفته مثله اذا توفى . . هل تأمن لبني العباس بعد ما ظهر من غدرهم بنا وبغيرنا غير مرة ؟ »

وكان الفضل يسمع مطرقا كأنه آفاق من رقاد ، فلما بلغ الى هنا رفع الفضل بصره اليه وقال : « صدقت يا بهزاد . وقد فهمت مرادك . انك أصبت كبد الحقيقة ولا بد ان نتدارك ذلك من اليوم » . وعاد الى الاطراق وهو يحك عنونه ثم قال : « ان الخلافة لا بد منها للسيادة ، وهي لا تكون الا في آل النبي من بنى هاشم . واقربهم مودة الينا العلويون ، وبين ظهرانينا منهم اليوم على موسى الرضا من اعقاب الحسين بن علي بن أبي طالب ، وهو عاقل حكيم ، والمأمون يحبه ويقدمه فارى ان نشترط على المأمون من الآن ان يجعله ولي عهده فتنقل الخلافة بعد موت المأمون من العباسيين الى العلويين » . قال ذلك وأشرق وجهه فقال بهزاد : « انه الراى الصواب يا سيدى . ونهض للخروج فقال له الفضل : « اذا اتتك رسالة مثل هذه من سلمان فأطلعنى عليها »

ورجع بهزاد الى منزل أمه وما زال قلقا على ميمونة . وليث ينتظر وصول أهل المأمون بفارغ الصبر ، لاعتقاده انها ستكون معهم



دخلت سنة ١٩٥ هـ وفيها جاهر الأمين بخلع أخيه ، وأسقط نقودا كان قد ضربها المأمون بخراسان باسمه وليس عليها اسم الأمين ، وأمر فدعى لابنه موسى على المنابر ، ولقبه بالناطق بالحق وقطع ذكر المأمون وباع لابنه الآخر عبد الله ، ولقبه بالقائم بالحق

فاستشار المأمون الفضل في أمر التجنيد ، فاغتنم الفضل الفرصة واشترط عليه مبايعة « على الرضا » - زعيم الشيعة في خراسان بعده - فعظم ذلك على المأمون ولكنه لم يربدا من أن يطاوعه فوعده ان هو نجح في حربه وفاز على أخيه ونال الخلافة بأن يبايع لعلى الرضا بولاية العهد . فأخذ الفضل - ذو الرياستين - فى التأهب للحرب والتجنيد ، وأعد جندا بقيادة طاهر بن الحسين - ذى اليمينين - وأنفذه الى « الرى » لملاقاة جند الأمين اذا جاءوا قاصدين خراسان . وكان طاهر قائدا بأسلا على صغر سنه اذا قيست بسن ابن ماهان

اما بهزاد فقد كان يترقب رجوع أهل المأمون أو خبرا من سلمان . وعرض عليه الفضل ان يتولى قيادة الجند فأبى ، ثم جاءه كتاب من سلمان قال فيه : « لقد صدق ظنى ونجح سعى وتقلد ابن ماهان رياسة الجند الخارج لقتالكم ، وكتابى هذا اليك وهو يغادر بغداد وقد شيعه الامين نفسه . وذكر مشايخ بغداد انهم لم يروا عسكريا اكثر رجالا واوفر كراعا وأتم عدة وسلاحا من عسكريه ، وهو يعتقد ان أهل خراسان يحبونه وقد آتته كتب يعدونه فيها بالطاعة اذا جاءهم . ولما علم أن طاهر بن الحسين ولي قيادة

جند المأمون استخف به وقال : (انما طاهر شوكة من اغصاني ، وما مثل طاهر يتولى الجيوش) ثم قال لأصحابه : (ما بينكم وبين ان ينقصف انقصاف الشجر من الريح العاصفة الا ان يبلغه عبورنا عقبة همدان ، فان السخال لا تقوى على النطاح ، والبغال لا صبر لها على لقاء الأسد ، وان اقام تعرض لحد السيف واسنة الرماح . واذا قاربنا الري ودنونا منهم فت ذلك في اعضادهم) . وقد اقطعه الامين بعد ان ولاه امرة الجند كور الجبل كلها ، وولاه جزيتها وخراجها ، واعطاه الاموال وحكمه في الخزائن ، وجهاز معه خمسين ألف فارس . وكتب الى ابي دلف العجلي وهلال الحضرمي بالانضمام اليه ، وامده بالاموال والرجال شيئا بعد شيء . وقد خرج ابن ماهان بحملته من هنا والناس يتوهمون انه ظافر لا محالة لكبر سنه . ولما ذهب لوداع زبيدة ام الامين على العادة المتبعة اوصته بان يرفق بالمأمون اذا قبض عليه فقالت له : (ان امير المؤمنين وان كان ولدي ، واليه انتهت شفقتي ، فاني على عبد الله المأمون لمتعطفة ، مشفقة مما يحدث له من مكروه واذى ، وانما ابني ملك نفسه اخوه في سلطانه الكريم فاضطر الى ان يأكل لحمه ، فاعرف لعبد الله حق ولادته واخوته ، ولا تجبهه بالكلام فانك لست بنظيره ، ولا تقتصره اقتسار العبيد ، ولا توهنه بقيد ولا غل ، ولا تمنع عنه جارية ولا خادما ، ولا تعنف عليه في السير ، ولا تساوه في المسير ، ولا تركب قبله ، وخذ بركابه ، وان شتمك فاحمل منه) . ثم دفعت اليه قيذا من فضة وقالت : (ان صار اليك فقيده بهذا القيد) . فوعدها بذلك . واوصاه الامين ايضا بمثل هذه الوصية . وقد علمت ان مولانا المأمون بعث في استقدام اهل بيته اليه ولا يلبثون ان يصلوا اليكم ، وانت تتوقع ان ترى ميمونة معهم فلا يشق عليك الا تراها فانها باقية هنا ، ولم اخبرك بذلك من قبل حتى لا تقلق . واما الآن فلا سبيل الى كتمان ذلك عنك لانك ستعلمه من دنائير او غيرها . فهي مقيمة ببيت الخليفة ولا خوف عليها ، ولهذا قصة طويلة ستقصها عليك دنائير ، فلا يزعجك ذلك ما دمت في منصبى حريصا على سلامتها . والسلام »

فلما قرا بهزاد الكتاب ، اسودت الدنيا في عينيه رغم ما حواه من الاخبار المبشرة بالنجاح ، لما جاش في صدره من الغيرة على ميمونة ، ونقم على سلمان كتمان امرها عنه . ووقع في خيرة لا يدري اخرج من « مرو الشاهجان » لملاقاة ابن ماهان في الري ؟ ام يمكث حتى تأتي دنائير فيسمع منها خبر ميمونة ، فغلب عليه هواه . والمحـب مغلوب على امره . ومكث ينتظر مجيء اهل المأمون ليطمئن على ميمونة قبل خروجه للقتال ، وعلمت أمه بذهاب الجند الى الري وعجبت لبقائه عندها فقالت له : « ان الخنجر في الصندوق ، فمتى انت ذاهب ؟ »

فخجل وتناول الصندوق وقال : « انى ذاهب الساعة وقد جئت لوداعك »
فكشفت عن صدرها وولت وجهها شطر السماء وبسطت ذراعيها وقالت :
« ان الله عونك على القوم الظالمين الذين قتلوا جدك غدرا وسلبونا حقنا
وحرمونا ثمار تعبنا » . ونهضت وضمته الى صدرها وقبلت عنقه ، وطال
عناقها له واحس بدموعها تنحدر على عنقه فآثر فيه ذلك كثيرا وكاد يبكى
معه ولكنه تجلد وقال : « لماذا تبكين يا اماء ؟ »

فرفعت راسها وقد تكسرت اهدابها من البكاء وبان الحزن والسكابة في
وجهها وقالت : ابكى يا ولدى لانى لا ادرى الراك ثانية ام لا ؟ »
قال : « ارجو ان اعود سالما ظافرا واراك في صحة وعافية وتفرحى بما
اصبناه من الانتقام لجدى »

قال ذلك وقبل يديها ، ثم تناول الصندوق فاخرج الخنجر منه فتقلده ،
ولبس ثياب السفر والتف بالعباءة فوق القباء والسر اويل ، وتلثم بالكوفية
فوق القلنسوة ، وجيء اليه بفرسه فركبه واراد ان يأخذ الصندوق معه
فامسكت به امه وقالت : « دع هذا الصندوق هنا وفيه راسان عزيزان
فاما ان تشفعهما براس او اكثر من رؤوس اعدائنا قتلة جدك ، واما ان يبقى
الراسان هنا فنستأنف البكاء حتى نموت »

فآثر قولها في نفسه وقال : « بل ارجو الا تستأنفوا البكاء يا اماء » . وترك
الصندوق عندها ، وحول شكيمة جواده ومضى . ولم يسر الا قليلا حتى
انتبه لنفسه ورأى انه سيق الى ذلك الرحيل خجلا من امه بينما قلبه
لا يطاوعه على ترك مرو قبل مشاهدة دنائير واستطلاع حال ميمونة ، ونقم
على سلمان لانه لم يبسط خبرها في كتابه . وما زال سائرا في أسواق مرو
والجواد دليله حتى خرج من المدينة ، فلما صار خارجها اخذ يعلى نفسه
بملاقة اهل بيت المأمون قادمين بقافلتهم في طريقه .

وقضى في ذلك اياما ، وكلما رأى قافلة او جماعة او فارسا ظن اهل بيت
المأمون قادمين ، حتى صار على بضع مراحل من مدينة الري حيث يقيم
عسكر طاهر بن الحسين

واصبح ذات يوم فرأى قافلة عروف عن بعد انها تحمل نساء من اهل
البيوتات ، لما فيها من الهوادج واحمال الثياب والخيام ، وما في خدمتها من
الغلمان والعبيد ، فدنا منها وسأل مقدمها فأخبره انها تحمل بعض اهل
المأمون . فطلب مشاهدة دنائير فأخذه اليها . فلما رآته امرت القوم باناخة
الاحمال قليلا فاناخوها ، وقصت على بهزاد خبر ميمونة كما وقع منذ
جاءها الشاكرى الى ان عادت هي وزينب من عند الأمين دونها . فقال :
« وماذا جرى لها بعد ذاك ؟ » . فقالت : « لا بأس عليها في بيت الخليفة ،
فقد وعد مولاتى ام حبيبة بالا يمساها ضر ، وسلمان خادمك حريص على

راحتها . فقال : « وهل تعلمين اين سلمان ؟ »

قالت : « لا أدري من امر هذا الرجل شيئا ، فهو يغيب اشهرا ثم يظهر بغتة ، وقد رأيته قبل سفرنا واوصاني بأن اطمئنك على ميمونة ، ولعله كتب اليك فوصل كتابه قبلنا لأن الكتاب يرسل على هجين ونحن نسير بالأحمال والأثقال »

فقال : « وهل رأيتم جنود الامين ؟ »

قالت : « رايناها ورافقناها في معظم الطريق »

قال : « واين هي الآن ؟ »

قالت : « على عشرة فراسخ من الري وبلغني ان قائدها ابن ماهان مغرور بقوته معتز بكثرة جنده واذا كان ما بلغني صحيحا كان طاهر في خطر »

قال : « وما ذلك ؟ »

قالت : « بلغني ان جند ابن ماهان يزيد على خمسين الف مقاتل بينما لا يزيد جند طاهر على أربعة آلاف »

فاطرق بهزاد ثم قال : « ليست الغلبة للكثرة وانما هي للشجاعة والصبر »

قالت : « مع ان الغلبة للشجاعة ولكن كيف يقف أربعة آلاف في وجه خمسين الفا ؟ . وعلمت ايضا ان طاهرا خرج بجنده القليل من مدينة الري وعسكر على خمسة فراسخ منها . ولو بقى في المدينة لكان له في حصونها ما يعصمه من الهزيمة »

قال : « قد احسن ابن الحسين لانه يخاف اهل الري اذا انهزم مثل خوفه جنود الامين . واذا احسن الراي بادر الى الحرب قبل ان تعرف قلة جنده »

فقالت : « يلوح لي انه عازم على ذلك وكنت احسب عمله خطأ فلم اصدق الخبر وذلك ان بعض اصحابه قال له : (ان جندك القليل قد هابوا هذا الجيش الكثير فلو اخرجت القتال لله ان يعجم اصحابك عودهم ، ويعرفوا وجه المأخذ من قتالهم) . فقال : ائني لا اوتى من قلة تجربة وحزم . ان اصحابي قليل والقوم عظيم سوادهم كثير عددهم فان اخرجت القتال اطلعوا على قلتنا واستمالوا من معي برغبة ورهبة فيخذلني اهل الصبر والحفاظ ، ولكنني الف الرجال بالرجال واقحم الخيل على الخيل واعتمد على الطاعة والوفاء واصبر صبر محتسب للخير حريص على الفوز بالشهادة ، فان نصرنا الله فذلك الذي نريده ونرجوه ، وان تكن الاخرى فلسيت بأول من قاتل وقتل ، وما عند الله اجزل وافضل . . »

فاعجب بهزاد ببسالة طاهر وحزمه واحب ان ينهي الحديث فقال : « كنت اود لولا العجلة ، ان ارى ام حبيبة فاهديها سلامي » . وودعها ومضى

ساحة الحرب

سار بهزاد على فرسه وقد التف بالعباءة وتلثم بالكوفية وتقلد الحنجر تحت العباءة بجانب السيف ، ومر بالرى في الضحى فعلم من أحاديث القوم ان طاهرا ينوى المبادرة الى القتال قبل أن يطلع عدوه على قلة رجاله . وما لبث أن سمع قرع الطبول للحرب وقد علت الضوضاء وتصاعد الغبار ، فصعد الى أكمة أشرف منها على سهل ، فرأى الجيشان يتأهبان للقتال والفرق بينهما كبير ، فأوجس خيفة على جند طاهر ، وصمم على ألا يبرح المكان حتى يرى النصر لجند المأمون ولو كلفه ذلك حياته

وكان ماهان قد عبا جنده ميمنة وميسرة وقلبا ، وعبا عشر رايات مع كل راية مائة رجل ، وقدمها راية راية ، وجعل بين كل رايتين غلوة سهم ، وأمر أمراءها اذا قاتلت الراية الأولى وطال قتالها أن يتقدموا برايتهم ليحلوا محلها حتى تستريح . ثم وقف بنفسه يشرف على القتال

أما طاهر فإنه عبا أصحابه كراديس ، كل كردوس كتيبة بصفوفها ، وجعل كردوسه في الوسط ، ومشى بجنده على هذا النظام وهو يحرضهم على الثبات والصبر . ولحظ بهزاد أن جماعة من رجال طاهر فروا الى ابن ماهان فشق ذلك عليه ولكنه ما لبث أن علم ان ابن ماهان - بدلا من أن يكرم أولئك الفارين ليغيب غيرهم في المسير اليه - أمر بجلدهم واهانتهم وتعذيبهم مما أغضب الباقيين عليه . وظل بهزاد واقفا وعيناه شائعتان وقلبه يخفق رغبة في الاشتراك في تلك المعركة ولكنه لبث يترقب الفرصة السانحة

وبينا هو هكذا اذا بطاهر بن الحسين قد خرج من جنده على فرسه حتى أشرف على جند ابن ماهان وبيده رمح أشرعه ، ^١ رأس الرمح رق علم انه صورة بيعة المأمون . فوقف طاهر بين الصفيين وطلب الأمان من ابن ماهان حتى يتكلم ، فلما أمانه رفع الرمح بيده والبيعة معلقة به وقال : « ألا تتقي الله عز وجل ؟ » ان هذه البيعة قد أخذتها أنت بنفسك فأتق الله فقد بلغت باب قبرك »

فغضب ابن ماهان لهذه الاهانة وأمر بالقبض على طاهر فلم يستطع أحد ذلك . ولم يسمع بهزاد شيئا من كلام طاهر لبعده عنه ولكنه فهم فحواه . وما عثم أن رأى الجيشين يتحركان للالتحام ، فهجمت ميمنة ابن ماهان على ميسرة طاهر فانهزمت هذه هزيمة منكرة ، وفعلت ميسرة ابن ماهان مثل

هذا في ميمنة طاهر فازالوها عن مكانها فخاف بهزاد وتحركت حيته وأوشك أن يسوق جواده الى وسط المعركة لينصر طاهرا ولكنه تجلد ليرى له مدخلا نافعا . وما فتى يستجمع الهاربين ويردهم ويحرضهم على القتال وهو يجول على جواده ملثما ويخاطب الفارين بالفارسية يعيرهم بالفرار ويعقر ابن ماهان ورجاله في أعينهم ، فكان لكلامه وقع شديد على نفوسهم فأخذوا يرتدون الى صفوفهم

وكان طاهر من الجهة الاخرى يحرضهم على الثبات والصبر ، فاجتمعت قلوبهم وحملوا على عدوهم حملة شديدة في القلب فهزموهم ، وأكثروا فيهم القتل ، ورجعت الرايات بعضها الى بعض فانتقضت ميمنة ابن ماهان ، وكانت ميمنة طاهر وميسرته قد عادتا الى المعركة فتشدد قلب طاهر وقوى جنده كان بهزاد بث فيهم روحا جديدة ، فتقهقر جند ابن ماهان بغير انتظام .

فلما رأى ابن ماهان تقهقر جنده أخذه الرعب وخاف الفشل فنهض بنفسه ، وأقبل يحرض رجاله على الثبات ويعددهم بالمال ويقبح عمل طاهر ورجاله . فرأى بهزاد الفرصة قد آتت للعمل ، وأن هذا الانكسار لا يكون قاضيا الا اذا قتل القائد الكبير ، فكر بنفسه كالصاعقة ويده على خنجره لا يبالي بما يتساقط حوله من النبال او يتكسر من الحراب ، حتى دنا من ابن ماهان وصاح فيه : « قف أيها القائد ولا تقل اني أخذتك غدرا »

فتحول ابن ماهان الى بهزاد ولم يعرفه من تحت اللثام ، لكنه استل سيفه وضربه فخلا بهزاد من الضربة ، واستل خنجره كالبرق الخاطف وطعنه في صدره فخر قتيلا ، ورجع بهزاد من المعركة وقد اكتفى بما فعله ولم يعد يراه أحد . وشاع في المعسكر أن ابن ماهان قتله أحد رجال طاهر بسهم ، ثم احتز بعضهم رأسه وحمله الى طاهر ، وشدت يداه الى رجلية كما يفعلون بالدواب ، وحمل على خشبة الى طاهر ، فأمر به فالقى في بئر . واعتق طاهر من كان عنده من غلمانة شكرا لله تعالى . وتمت الهزيمة على جند الأمين ووضع أصحاب طاهر فيهم السيوف وتبعوهم فرسخين واقموهم فيها اثني عشرة مرة انهزم فيها عسكر الأمين وأصحاب طاهر يقتلون ويأسرون حتى حال الليل بينهم وغنموا غنيمة عظيمة . ونادى طاهر : « من ألقى سلاحه فهو آمن » . فطرحوا أسلحتهم ونزلوا عن دوابهم ورجع طاهر الى الري وكتب الى المأمون وذى الرياستين : « بسم الله الرحمن الرحيم كتابي الى أمير المؤمنين ورأس على بن عيسى بن ماهان بين يدي وخاتمه في أصبعي وجنده مصرفون تحت أمري والسلام » . فورد الكتاب مع البريد في ثلاثة أيام وبينهما نحو من خمسين ومائتي فرسخ . فدخل الفضل على المأمون فهناه بالفتح ، وأمر الناس فدخلوا وسلموا عليه بالخلافة ، ثم وصل الرأس بعد الكتاب بيومين فطيف به في خراسان

خلع المأمون

تركنا ميمونة في بيت الامين ببغداد كانها على الجمر لفرط حزنها وياسها ، ولا سيما انها لم تر سلمان ولا عرفت مقره حتى ظنته مات او لحق بحبيبها بهزاد ، وكذلك اشتد شوقها الى جدتها واستوحشت لبعدها وجهلها مكانها . فكانت تقضي نهارها وحيدة تتظاهر بانحراف صحتها او دوار في راسها ، فاذا خلت الى نفسها اخرجت كتاب حبيبها وقبلته وكررت قراءته استئناسا بصاحبه . وكلما قررت ما قاله من عبارات النعمة على العباسيين وتهديده بالانتقام يخلج قلبها في صدرها حذرا من وقوع ذلك الكتاب في يد بعض اعدائها ، ولكنها كانت حريصة على اخفائه لا تثق باحد ممن حولها من الجوارى او الوصائف . ما عدا فريدة قهرمانة القصر ، لانها من صديقات دنانير المعجبات بتعقلها وحكمتها ، وقد اوصتها هذه بها خيرا . على انها مع ارتياحها لها كانت تخافها ايضا على سرها وذلك لعلمها بتغشى الجاسوسية ، فلم تطلعها على شيء من امر الكتاب او امر بهزاد الذي انقطعت اخباره عنها كما انقطعت اخبار سلمان ، ولم تكن تعلم انه في القصر على قارب قوسين منها ولكنه متنكر ، لا يعرف احد ممن في القصر عنه شيئا الا انه الملفان سعدون رئيس المنجمين !

قضت في ذلك اياما لا تدرى ما يصير اليه امرها ، ولا تبالي ما تراه من اشتغال جوارى القصر ونسائه باللهو والضحك ، او سماع الغناء او الضرب بالالات ، او غير ذلك ، فاذا رأتهم في مجلس انس انفردت في غرفتها واخرجت كتاب بهزاد واخذت تقرأه ، فاذا سمعت وقع خطوات او صوت متكلم اخفت الكتاب في جيبها . واتفق مرة انها احست بالوحشة وارادت الاستئناس بذلك الكتاب فأرادت ان تخرجه من جيبها فلم تجده ، فاحست كان قلبها سقط من مكانه واعادت البحث جيدا فلم تقف له على اثر ، فخافت خوفا شديدا وزادت وحشتها من الانفراد هناك . واحست بافتقارها الى رفيق يؤنسها فلم تجد خيرا من ان تدعو جدتها اليها ، فكتبت الى دنانير بطاقة شكت فيها استيحاشها وسالتها عن جدتها ثم عهدت الى القهرمانة في توصيل البطاقة الى دنانير في قصر المأمون ، وكانت فريدة تتمنى القيام لدنانير بمثل هذه الخدمة ، فأسرعت في ارسال البطاقة اليها في الخفاء فلما وصلت البطاقة الى دنانير ، سارعت الى ام جعفر واطلعتها عليها

فقلت هذه لها : « ارسلنى اليها ودعيتى امت عندها فقد كنت اظنهم سيطلقون سراحها بعد ايام فاذا هى باقية الى اجل غير مسمى »
فقلت دنانير : « هل تذهبين اليها متكررة ؟ »

قالت : « أخاف اذا عرفونى ان يزيدوا فى التضيق على ميمونة »

فقلت : « ارسلك الى صديقتى فريدة على أنك مربية ميمونة ، واوصيها بان تقيمك معها ، ولا اظنها الا فاعلة »

فأثنت عبادة على غيرتها ولبست ثيابها وودعتها ، وركبت حمرا توجهت به الى مدينة المنصور ، ومعها رسول من دنانير الى القهرمانة . فلما وصلا الى قصر المنصور بعث الرسول بكتاب دنانير الى القهرمانة ، فادخلت عبادة القصر ، ولم تخف عليها حقيقة حالها ، كما انها لم تكن تجهل امر ميمونة ، لكنها تجاهلت فى الحالين رغبة فى اخفاء ذلك عن اهل القصر ، لانها كانت من جملة الذين غمرتهم نعم البرامكة واجبروا على كتمان شكرهم . ولا تسئل عن سرور ميمونة بجدهتها حتى اصبحت لا يهمها ان يطول احتباسها هناك . ولم تجد بدا من اطلاعها على ما دار بينها وبين بهزاد وما تبادلاه من عواطف المحبة حتى بلغت الى الكتاب فأخبرتها بضياعه . ولم تكن عبادة غافلة عما بين الحبيبين ولكنها كانت تتجاهل أحيانا ، وقد ساء لها ضياع الكتاب فى القصر ، واصبحت تخاف العقبي

اما سلمان فكان اثناء ذلك يغرى الامين بخلع اخيه ، وكان يستعين على ذلك بالفضل بن الربيع وابن ماهان . وظل الفضل يلح على الامين فى ذلك مدفوعا بخوفه من انتقام المأمون منه اذا افضت الخلافة اليه . وكان الامين يتردد فى الامر ان لم يكن خوفا من العواقب فحفظا للعهد او عملا برابطة الاخاء . فلما كثر الحاح الفضل عليه زايله التردد وبقي عليه ان يشاور امه زبيدة لانه كان يؤمن بسداد رايها ، وكانت تقيم يومئذ بقصرها «دار القرار» بقرب قصر الخلد ، فتردد بين ان يركب اليها وبين ان يستقدمها اليه فى قصر المنصور . وظل يفكر فى ذلك حينما ، ثم غلب عليه حب اللهو فشغل بصيد السمك من بركة كبيرة فى حديقة القصر فيها سمك مجلوب اليها فحمل قصبه وجعل يصطاد السمك من تلك البركة وحوله جماعات من الوصفاء الخصيان باللبسة النساء ، يجرون بين يديه فى تهيئة الصنارة او تنفير السمك من بعض اطراف البركة الى حيث يلقي صنارته ، وبعضهم يحملون شبكا وآخرون يعدون القصب او الصنانير او غير ذلك . وهو مشغول بلهوه معجب بنشاطه يداعب الوصفاء اظهارا لقوة عضله فيلتقط احدهم بيده ويرفعه حتى يلقيه فى الماء ، فيطرى الحاضرون قوته الخارقة ويعربون عن عجزهم عن الاتيان بمثل ذلك . وكان الامين فيما يقال قوى العضل بحيث يضارع الاسد فيصرعه

وفيما هو في لهوه جاء بعض الغلمان يقول : « ان موكب مولاتنا ام امير المؤمنين قادم »

فسر بقدموها لرغبته في استشارتها ، فأمر قيم القصر بالاستعداد لاستقبالها ، وأمر قيمة القصر بترتيب الوصائف والوصفاء صفوفا وفي جملتهم فرقة من الجوارى المقدودات الحسان كانت امه زبيدة قد اهدتهن اليه لما رأت اشتغاله بالخدم والغلمان عن النساء ، فاتخذت هؤلاء الجوارى والبستهن لباس الغلمان فعممت رؤوسهن وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية ، والبستهن القراطق والمناطق فبانن قدودهن وبرزت أردافهن ، وبعثت بهن اليه فاستحسنهن واجتذبن قلبه وأبرزهن للناس من الخاصة والعامة ، فقلده بعضهم في ذلك . فلما سمع بقدم امه رأى ان يسرها باشارك هؤلاء الجوارى في استقبالها فأمر القيم بترتيب الغلمان صفوفا يرأسها كوثر الذي اشتهر بافتتانه به ، فصفت فرق الخصيان والجوارى ، وفرق الغلمان الجرادية ، والحبشان الغرابية ، وكل فرقة في زي خاص وأشكال والوان خاصة ، فهناك القصير من الملابس والطويل ، وهناك الأحمر والأزرق والسماوى والوردي والأصفر . وفيهم الغلمان بالبسة النساء ، والنساء بالبسة الغلمان ، يتخللهم العوادون وأصحاب الطنابير والمزاهر

واصطفوا هكذا من باب القاعة الى باب القصر الخارجى ، وبين الصفوف غلمان بعضهم يحرق البخور وبعضهم يحملون الأزهار وآخرون ينشدون الأشعار ، ومشى الأمين بين الصفين لاستقبال امه بباب القصر . وكانت في قبة من خشب الصندل منزلة بالفضة ، والقبة قائمة على هودج يحمله بغلان عليهما سرجان من الفضة ، يقودهما غلمان عليهم أقبية من الديباج المزركش ، وقد نقشت عليها شارة الدولة لانهم من الجند . وفاحت رائحة المسك عن بعد

فلما وقف الهودج بباب القصر تنحى الواقفون الا كبير الخصيان فأعان السيدة زبيدة على نزولها ، ثم تقدم الأمين وقبل صدرها فقبلت رأسه ، ومشيت بخفين مرصعين بالجواهر وعلى رأسها نقاب محاك بالذهب في حاشيته صور مرصعة بالحجارة الكريمة ، ويلوح من خلال النقاب عصابتها المرصعة وعقود الجواهر في عنقها والقراطق في أذنيها . وعلى كتفها مطرف ذهبي اللون التفت به فغطى منكبيها وجنبها ، وظهر تحته ثوبها الحريري الوردي يغطى قدميها من الخلف ولا يغطيها من الامام لتظهر خفافها المرصعة . وهى اول من رصع الخفاف بعد الاسلام . على أن من يلقي زبيدة لا يشغله لباسها الفاخر الثمين عما في محياها من الجمال الجاذب ، وما يتجلى فوق ذلك من سلايح السيادة ودلائل الأبهة والجلال

ولم تطأ قدماها باب القصر حتى انتشر خبر قدومها ، فبلغ عبادة

فارتعدت فرائصها ، وخفق قلبها . وأحبت الانزواء لئلا يظهر ذلك عليها .
أما ميمونة فكانت كثيرة الشوق لمشاهدة موكب أم الخليفة وقد طالما سمعت
عنها وعن عظمتها فأطلت من كوى القصر الخفية فاعجبت بجمال زبيدة
وجلالها



ظل الأمين وامه سائرين الى قاعة خاصة عملا بإشارتها ، لأنها كانت تريد
أن تسر إليه امرا . وقبل جلوسها جاءت المواشيط فنزعن عنها بعض ما يثقلها
من الالبسة ، ووقف بعض الوصائف والعلماء بالمراوح والمذاب بين يديها ،
واشتغل آخرون بأعداد الشراب والطعام . ولكنها قالت للأمين « أحب أن
أراك يا محمد على انفراد ، ولا أرب لي في الطعام »

فأشار الأمين فخرج الجميع ولم يبق غيرهما ، فجلست على السرير
وأشارت إليه أن يجلس بجانبها فجلس وقال : « ما أسعد هذه الساعة
يا أمه . كأنك جئت على موعد ، فقد كنت هذا الصباح أهم بالذهاب إليك
أو استقدامك لاستشيرك في بعض الشؤون فإذا بك تفاجئيني فتفاءلت
خيرا »

فابتسمت والفضب باد في عينيها وقالت : « خيرا ان شاء الله ؟ . ولكني
جئتك لأمر آخر يهمني ويهمك ! »

فاهتم الأمين وقال : « وما ذلك يا أمه ؟ »

قالت : « ألا تزال تلك الفتاة الضالة عندك ؟ »

فقال : « أية فتاة ؟ » . قالت « أعني ابنة عدونا الذي تعمد خلعتك من
ولاية العهد ، وأغرى أباك الرشيد بمبايعة ابن مراجل »

فأدرك أنها تعنى ميمونة بنت جعفر فقال : « نعم يا سيدتى لا تزال بين
جوارى القصر »

قالت : « وكيف أبقيتها ولم تخف شرها ؟ »

قال : « لأنى وجدتها يتيمة مسكينة لا ضرر منها ، وقد أوصتنى ابنة
أخي بها خيرا بعد أن أبيت إطلاق سبيلها لأبقيها هنا اتقاء ما نخشاه منها »

قالت : « يتيمة مسكينة ؟ ! تبالها من خائنة غادرة ! . وأغرب من ذلك

أن تقبل شفاعاة ابنة أخيك ، وأخوك أشد عدااء لك من أعدائك ! . ألم يستعن

عليك بالخراسانيين ؟ وإذا أتيح له أن يخلعتك عن هذا العرش ألا تظنه يفعل ؟

ومن أوجد هذا الغرور في نفسه . اليس هو جعفر بن يحيى أبا هذه الفتاة ؟

لقد كان أبوك رحمه الله أدرى منك بأقدار الرجال فقتله شر قتلة ، ولو لم

يبادر الى قتله ما جلست أنت هذا المجلس . . فكيف تقول بعد ذلك أنها

بنيمة مسكينة وان ابنة اخيك او صتك بها خيرا ؟ ان اخاك قد غلب فيه دم
الفرس على دم الهاشميين فأخذ من أمه مراجل أكثر مما أخذ من أبيه .
الرشيد فتراه يستعين بأخواله علينا »

قالت ذلك وقد حمى غضبها وامتنع لونها وذهب احمرار شفيتها وتورد
وجنتيها . ووافق ذلك ما يجول في خاطره من خلع أخيه فأراد ان يجعل
ذلك براياها فقال : « ألم يكن أبى قد بايع لى ولأخى عبد الله بالخلافة بعهد
علقه على الكعبة ؟ »

فقطعت كلامه وقالت وصوتها يخنقه الحنق : « لا قيمة لذلك العهد لأنه
كتب باغراء الوزير الخائن رغبة في اخراج الخلافة من بنى هاشم عن طريق
أخيك هذا ، وهل يصلح أبناء الجوارى للخلافة اذا وجد أبناء الاحرار ؟ ايقاس
ابن الجارية مراجل بابن زبيدة بنت جعفر ؟ . اتعلم من هى مراجل وكيف
اتصلت بأبيك حتى ولدت عبد الله ؟ »

قال : « لا » ، قالت : « انا اقص عليك خبرها . كانت مراجل من جملة
جوارى مثل مارية وفارسة وغيرهما ، فرايت اباك مشتغلا عنى بمغنية ليحيى
وزيره اسمها ، وصار يقضى كثيرا من وقته عندها ، فشكوته الى
أعمامه فأشاروا على نأن اشغله عنها بجوار اهديهن اليه ، فأهديته عشر
جوار منهن مراجل هذه وهى فارسية . فلما ولدت له عبد الله رباه جعفر
من صفرة على حب الفرس حتى جرى ما نعلمه . فكيف يكون هذا صنوك .
اما العهد الذى اشرت الى انه معلق فى الكعبة فابعث من يأتى به ومزقه لأنه
كتب خداعا »

فسرى عن محمد وقال : « اذن انت ترين ان اخلع أخى عبد الله من ولاية
العهد ؟ »

قالت : « اولم تخلعه بعد ؟ اخلعه قبل ان يخلعك »

فاعتدل فى مجلسه وقال : « قد كنت عازما على استطلاع رايتك فى هذا ،
فالحمد لله على أن وافق رايتك راي الفضل »

فقالت : « اخلعه وبإيع لابنك موسى وان كان صغيرا ، فتكون الخلافة
أعرق فى بنى هاشم لأنه لم يولد لبنى العباس خليفة والداه هاشميان الا انت ،
فأولادك أعرق فى النسب الهاشمى من سائر العباسيين »

فانبسطت سرائر الامين وسكت واطرق فابتدرته قائلة : « ولنعد الى
تلك الفتاة الخائنة ، فما أجدرك أن تقتلها وتخلص منها »

قال : « اقبلها ؟ واى ذنب انت ؟ وما الذى نخافه من بقائها حية ؟ »

قالت : « انك غافل يا محمد عما يجرى حولك ، وقد شغلك اللهو عن
دسائس المملقين . اما أنا فساهرة على شؤونك وأعلم ما يجرى فى قصرك .

وقد تبينت أن بقاء هذه الفتاة في قصرك أشد خطرا عليك من بقاء ولاية العهد لأخيك ، فاقتلها ! » . فاستغرب الأمين تشديدها وهو لم ير في الفتاة ما يوجب ذلك فقال : « لا شيء على إذا قتلتها ، ومثلها مئات بل الوف في قصرى ، ولكننى وعدت أم حبيبة بأن أحافظ عليها »

فأفلت جاش زبيدة من يدها عند سماعها قوله ، ونهضت وقالت : « انك لا تزال ساذجا تجوز عليك الالاعيب ، والا لأدركت من شـفاعة بنت عبد الله فيها أن هناك ما يبعث على الشك . اعلم أن ميمونة هذه مخطوبة لأكبر اعداء العباسيين ، وبينها وبينه مراسلة تشف عن تعمده الانتقام لأبى مسلم الخراسانى وجعفر بن يحيى ، وهو يعد العباسيين خائنين غادرين ، وإذا كنت في شك مما أقول فاقرا هذا الكتاب » . قالت ذلك وأعطته لفافة فيها كتاب بهزاد ، فاخذ الأمين الكتاب وطفق يقرؤه ولم يصل الى آخره حتى ارتجفت يده وارتعشت أنامله لما حواه من الطعن فى العباسيين والنقمة عليهم وتهديدهم . فنظر الى امه وكانت قد قعدت واتكات على الوسادة وأخذ الغضب منها مأخذا عظيما ، فالتفت اليه وقالت : « أرايت هذه اليتيمة المسكينة ؟ هذا خطيبها يزعم أننا غلبنا بالغدر والخيانة وأنه سينتقم لأبيها وذاهب الى خراسان لهذا ، فكيف تبقىها في قصرك وبين جواريك تطلع على احوالك ومساعيك واسرارك ؟ ! »

فدهش الأمين لسهر امه على شؤونه وقال : « كيف وصلت الى هذا الكتاب ومن اتاك به ؟ »

قالت : « اتيت به من وسط قصرك لانى ساهرة وانت نائم ! »
فاخذته العزة بالاثم وقال : « سآمر بالقائها في قاع دجلة الساعة »
قالت : « أتلقيا في دجلة بلا سؤال ولا جواب ؟ »
قال : « اليس الغرض ان نتخلص منها ؟ »

قالت : « ما اقل دهاءك ! . قبل ان تقتلها استطلعها ما تعلمه من احوال اعدائنا فلا ريب انها تعرف اسرارهم ، ومتى نلت مرادك منها فاقتلها او اغرقها كما تشاء ! »

قال : « ادعوها اليك الساعة ونسألها معا ؟ » . قالت : « اجل »

فصفق فجاءه احد الغلمان فقال له : « الي بالجارية يا سيدي »

وكانت ميمونة منزوية مع جدتها في احد فروع القصر ، وفاء لان امها زبيدة . وعبادة تنوسل الى الله ان ترعى زبيدة ، فأتى بها الى القصر فادخلها فادخلها يدعو ميمونة الى أمير المؤمنين . فلما دخلت القصر فوجدت امها زبيدة وتحققت ان زبيدة اتت لتحرض ابها على الخروج الى القصر فندمت على ذهابها اليها . ولم تجد زبيدة في القصر فخرجت الى القصر

اتى القاعة فدخل وقال : « الجارية بالباب يامولاي » . قال : « تدخل »
فدخلت مطرقة خجلا وركبتها تصطلكان من الخوف . فوقع نظرها على
زبيدة وهى متكئة وقد رادها الغضب هبة ورعنه ، والامين حالى بجانبها
كأنه بعض غلمانها . فوفعت وحيث فاسد رها الامين قائلا : « تقدمى باميمونة »
فمست نحوه وهى تنظر الى الارض وقد اخذتها الرعدة من الخوف ، فمد
يده وفيها الكتاب وقال : « اتعلمين لمن هذا الكتاب ؟ »

فلما وقع نظرها على الكتاب عرفتته وأيقنت بافتضاح سرها ، فلم تعد يدها
تطاولها على تسليمه من سدة الارتعاش . فناولته واناملها ترتعد فسقط من
يدها فانحنت لالتقاطه عن البساط فسقطت واهنة القوى ولم تعد تستطيع
الوقوف وانحدرت دموعها على خديها ، وحاولت ان تنظر الى الكتاب فلم
تستطع وغلب عليها البكاء فتربعت عند قدمى الامين تقبلهما وتبكي ولا تفوه
بكلمة

فصاحت زبيدة فيها قائلة : « ويلك ما يبيك ! اتظنين البكاء ينجيك ؟ .
من هو بهزاد هذا ؟ . اليس حبيبك حامل سيف النعمة على العباسيين ؟ . »
ثم رأت انها يجب ان نحتال في كشف سرها فعمدت الى الملاينة فقالت :
« لا تخافى اما ينجيك الصدق . فولى لنا اين حبيبك الآن ؟ . وما الذى
تعرفينه من احوال الخراسانيين ؟ . فاذا صدقنا القول اطلقنا سراحك وابقينا
عليك ، والا فانك مقنولة لا محالة »

فقالت وصوتها يتقطع من البكاء : « نقى ياسيدتى بأنى لا اعلم شيئا غير
ما فى هذا الكتاب ، وقد تفهمين من تلاوته اننى لم اكن قبله أعرف هذا
الشاب . واقسم برأس امير المؤمنين انى لم أعد أعرف شيئا عنه بعد تلاوته »
فضحكت زبيدة مستخفة وقالت : « وتقسمين برأس امير المؤمنين ؟ »

قالت : « أقسم به لأنى صادقة فى قسمى »
فقال الامين : « اصدقينا يا بنية ، ولا خوف عليك . واذا لم تقولى الصدق
اتينا برئيس المنجمين فى هذه الساعة فيكشف مكنونات صدرك . فاذا اطلعنا
على شيء تنكرينه كان جزاؤك العذاب الاليم »

قالت : « الامر لأمير المؤمنين ، وليس عندى غير الذى قلته »

فصفق الامين وامر الغلام بأن يدعو رئيس المنجمين ، فذهب الغلام . وكانت
ميمونة قد وقفت ، فأمرها الامين بالجلوس فجلست ، ولم تكن تعلم ان رئيس
المنجمين هو سلمان نفسه . وكانت تظن سلمان هرب او مات لطول غيابه
عنها . وبعد قليل اقبل الملقان سعدون بعمامته الكبيرة السوداء وجبته
الطويلة وتحتها الثوب العسلى وقد تمنطق بزنا غرس فيه الدواة ، واصطنع لحية
كثيفة مسترسلة دب فيها الشيب تتصل من الجانبين بسالفين كثيفين ، وغمر

ذلك من قيافة الخرائين اهل الدمة وهى تخالف ما تعرفه عن سلمان ونو
خامرها بشك فيه لعرفته من عينيه وانفه

ودخل سعدون وحى ووقف متادبا وقد تابط الكتاب وعينهاه تختلسان
النظر الى اهل ذلك المجلس ، فرأى ميمونة وزبيدة ، ووقع بصره على كتاب
بهزاد بين يدي الامين فعرفه لانه هو الذى حصله الى ميمونة ، فادرك لأول
وهلة سبب استقدامه . ثم امره الامين بالقعود بلا حجاب او ستر بينهما ،
فبعد جاثيا وعينهاه لا تتحولان عن الارض ، فابتسدره الامين قائلا : « دعوناك
ياملفان سعدون نطلب اليك ان تستطلع سر هذه الجارية ، فقد سالناها فانكرت
وهددناها باستطلاع سرها على يدك . فأصدقنا »

وكانت زبيدة جالسة تنظر الى المنجم ولا تتكلم حتى ترى علمه . وكانت
قليلة الايمان بالمنجمين وانما رضيت باستدعاء المنجم ساعته اربابا لميمونة
لعلها تعترف خوفا من العقاب . اما سعدون فاخرج كتابه والتمس ان يؤتى
اليه بكانون فيه نار من خشب الزيتون زاعما ان المنديل لا يتم الا اذا كانت النار
من ذلك الخشب ، فاتوه بالنار في شبه مبخرة من الفضة وضعوها على طبق
بين يديه ، وهو ماض في القراءة والتمتمة . ثم اخرج من هيبه قطعة بخور
القها في النار ، وطلب قدحا فيه ماء فاتوه به فأخذه بيساره بين الابهام
والسبابة وتفرس في الماء حينئذ استاذن الخليفة في ان تتقدم ميمونة نحوه
وتضع يدها على كتابه فتقدمت وهى ترتعد خوفا ووضعت كفها على ذلك
الكتاب . وتناول سعدون يدها الاخرى وقرا أسرارها ثم رفع يدها عن
الكتاب واجلسها وفتح الكتاب وقرا همسا وهو يتسم ابتسام الفائر ويهز
رأسه ثم نظر الى الامين قائلا : « ان لهذه الفتاة حديثا طويلا وان لها لسانا »

فضحكت زبيدة استخفافا بهذه النبوءة لانها لا تدل على معرفة ، فادرك
سعدون غرضها فنظر اليها وهو يتحاشى التفرس في وجهها تأدبا وقال :
« لا اقول ذلك تعمية او ابهاما ، ولكننى أعنى انها ليست من عامة الناس بل
من اصل عريق في الكرامة والوجاهة وان كانت اليوم في جملة الجوارى »

فقطعت زبيدة كلامه قائلة : « اذا كنت على ثقة مما تقول فأنبئنا عن حقيقة
حالتها بصراحة »

قال : « واقول ذلك امامها ؟ » . فقالت : « قل »

فأعاد النظر الى القدر ثم نظر في وجهها وقال : « انها بنت وزير مات
مقتولا »

فلما قال ذلك اقشعر بدن الفتاة وامتقع لونها والتفت الامين الى امه لفته
ظافر فرآها لا تقل دهشة عنه ولكنها تجاهلت وقالت : « ربما كنت مصيبا
فيما قلت » . ومدت يدها الى كتاب بهزاد وقبضت عليه بكفها وقالت :
« وما الذى بيدى ؟ » . قال : « كتاب »

فقههت وقالت : « بورك في مهارتك ، ان الاطفال يعرفون ذلك . فاذا كنت رئيس المنجمين كما يسمونك فقل ماذا في هذا الكتاب »

قال : « يسوءنى ياسيدتى استخفافك بعلمى ، وقد يجدر بى بعدما سمعته ان اسكت عما أعلمه . ولكننى اقول لك انك تقبضين على كتاب من نار بل النار اخف وطأة على هذه اليد اللطيفة مما في هذا الكتاب . ان بيدك كتابا من رجل فارسى الى هذه الفتاة وفيه من نصرة الفرس والفرس من مقام العباسيين ما يسوؤك ويسوء مولاي امير المؤمنين . واذا لم يقنعك هذا الاجال فصلته تفصيلا . ان هذا العلم لم يكذبنى من قبل ، ولا أدري اذا كان قد صدقنى الآن »

فبغتت زبيدة ولم تعد تستطيع اخفاء الاعجاب فقالت : « صدقت ايها الملفان ، واذا قد علمت سر الكتاب فأعلمنا عن صاحبه اين هو الآن ؟ »

قال : « هو بعيد ياسيدتى . انه في خراسان »

قالت : « وما علاقة هذه الفتاة به ؟ »

قال : « انها علاقة قريبة العهد ، واذا ادعت غير ذلك فانها كاذبة . ولا تسأل عما حواه الكتاب من كلام التهديد او الانتقام لأنها كانت خالية الذهن منه حين وصوله اليها ، ثم لم تعد تعلم عن صاحبه شيئا »

وكانت ميمونة اكثر السامعين استغرابا ، لان الرجل قرا ما في ضميرها ، ولو ارادت هى ان تترجم احساسها لم تستطع تبيانه بأوضح من ذلك ، فأشرق وجهها وبانت الطمأنينة في محياها ، ونظرت الى الامين نظر الاسترحام وظلت ساكنة »

اما زبيدة فخفت نغمتها على ميمونة ولم يخف كرهها فقالت لسعدون : « هل تعتقد ان هذه الجارية بريئة ؟ »

قال : « هذا ما اظهره لى المندل ، وعهدى به لا يكذبنى . وعند امير المؤمنين الخبر اليقين عنه »

فأشارت الى ميمونة ان تخرج فخرجت وهى لا تصدق انها نجت . ثم التفتت زبيدة الى الملفان سعدون وقالت : « انى واثقة من علمك ايها الملفان ، ولكن قلبى لا يحدثنى عنها خيرا »

قال : « لانك تكرهينها ، ولا عجب فان اباهها اساء اليك والى سيدى امير المؤمنين ، واذا رايت ان اعيد المندل في فرصة اخرى فعلت . واذا اذن امير المؤمنين ان اجالسها مرة اخرى على انفراد زدته تفصيلا عن احوالها »

قال الامين : « لك ذلك ايها الملفان » . ونظر الى امه نظرة فهم غرضه . بينا سعدون يتساعل بجمع ماتفرق بين يديه من ورق كتابه استعدادا للخروج . فابندرت زبيدة قائلة : « اما » قد بدا لنا منك هذا العلم الواسع

في استطلاع الغيب فأخبرنا عما يجول في خاطري وخاطر أمير المؤمنين «
فأدرك أن المأمون أهم ما يمكن أن يجول في خاطرها وقتئذ فقال : « يجول
في خاطرهما أشياء كثيرة أهمها يمر رجلا في خراسان تحذرونه ويحذركم ،
وقد تخافونه وهو أشد خوفا منكم »

فوافق قوله ما في نفسها فقالت : « صدقت ، وماذا ترى بعد ذلك ؟ » .
فأعاد النظر في الكتاب طويلا حتى ظهر الاعتماد في جبينه وتصيب العرق منه
ثم رفع نظره اليها وقال : « لا أرى مناصا من تجريد السيوف »

قالت : « ومن يجردها » . قال : « إنما يظهر السابق وعلم المستقبل عند الله »
فالتفتت إلى الأمين ولسان حالها يقول : « ألم أقل لك بادر إلى خلعه قبل
أن يخلعك ؟ »

فقال الأمين : « وقد أشار وزيرنا الفضل بخلع عبد الله ، فإذا لم يدع حملنا
عليه بالجيوش ، فهل تغلب ؟ »

فتناول الكتاب ثانية وقلب عدة صفحات ثم قرأ ونظر إلى السماء من نافذة
في تلك القاعة ، وأخرج قلما من منطقتة وغطسه في المداد وكتب وحسب ثم
قال : « قلت لولاي أن علم المستقبل عند الله وليس لي . ولكن يظهر لي من
هذا الحساب أن الفئة التي فيها الفضل هي الغالبة بأذن الله »

فازداد الأمين اعتقادا بضرورة الخلع ، فأثنى خيرا على الملفان سعدون
وامر له بجائزة ، فعلم هذا أن قد آن له أن ينصرف فجمع أوراقه وأدواته
واستأذن وخرج .

ثم نهضت زبيدة للذهاب ، فأتتها المواشط فألبسها ما خلعتة عند
وصولها ، ولما ودعت ابنها نصحت له بأن يأتي للإقامة بقصر الخلد قريبا
منها ، فوعدها بذلك فعادت بموكبها إلى دار القرار .

وأقر الأمين بعد ذهابها خلع أخيه وتولية ابنه موسى ، وبعث إلى خراسان
بذلك كما تقدم . ثم جند جندا أراد أن يجعل الفضل قائدا عليه ، ولكن
هذا رغبة في ابن ماهان ففعل ، وخرج الجند لمقاتلة طاهر بن الحسين في
الري . وبعد إرسال الجند انتقل الأمين إلى قصر الخلد ونقل معه بطانته .
أما ميمونة وسعدون فأبقاهما وأمر بالاحتفاظ بهما



كانت ميمونة قد خرجت من حضرة الأمين وهي ترقص فرحا ودهشة ،
حتى أتت جدتها وكانت تنتظرها على مثل الجمر ، فقصت عليها ما جرى وأثنت
على مهارة رئيس المنجمين ، فاستغربت عبادة ما سمعته وقالت : « جزاه

الله خيرا ، ان الله سخره لانقاذنا من هذا الخطر العظيم ، ولولاه ما رخصت تلك الملكة الظالمة بغير قتلنا »

فقالت ميمونة : « وقد تخلى سلمان عنا فأرسل الله لنا من يأخذ بيدنا ، انه سبحانه لا يترك المظلوم حتى ينصره »

ومكثتا في ذلك القصر بعد انتقال الأُميين الى قصر الحلد لا يعلمان شيئا مما يجرى من شؤون السياسية ، وفقدت ميمونة تسليتها بفقدانها كتاب بهزاد . ولما طال غياب سلمان عنها كادت تنساه لولا ارتباط ذكره بذكر بهزاد . وكيف تنساه وهو خليفة بهزاد عليها وقد حمل اليها كتابه ؟ وكانت في شوق كثير لمعرفة مكان حبيبها لتطلع على حالها لعله يسعى في انقاذها . وأنى لها ذلك وهي محبوسة بين أربعة جدران لا تسمع خبرا ولا ترى رجلا . وكانت عبادة تحاول التخفيف عنها جهد طاقتها

وفيما هما جالستان ذات يوم جاءتهما قهرمانة القصر تقول : « ان رئيس المنجمين يطلب مشاهدة ميمونة » . فبغت الفتاة وصعد الدم الى وجهها وقالت : « ما شأننا معه ؟ »

قالت : « ان أمير المؤمنين أوصى ألا يؤذن لأحد في مشاهدتك غير رئيس المنجمين متى شاء ، ولا بأس عليك منه »

فتحولت بغتها الى سرور وقالت في نفسها : « سأسأله عن سلمان أو بهزاد اذا آنست منه عطفاً لعله يهديني الى مكانهما » . ثم قالت للقهرمانة : « هل يأتى الينا أم نذهب نحن اليه ؟ »

قالت : « طلب أن يراك على انفراد في غرفته »

فأجفلت وقالت : « أنفرد به في غرفته ، وهو رجل غريب !؟ »

فقالت عبادة للقهرمانة : « هل تأذنين أن أكون أنا معها في تلك المقابلة » قالت : « لا بأس »

فنهضتا وتنقبتا ، وأرت سلت القهرمانة معهما غلاما أوصلهما الى غرفة الملفان ساعدون في بعض أطراف القصر ، وقرع الغلام باب الحجرة وأنبأ بوصول ميمونة ورجع . ففتح سلمان الباب وهو بقيافته المعهودة ورحب بالفتاة وجدتها وأدخلهما الحجرة وأقفل الباب وراءهما . فلما وجدت ميمونة نفسها في ذلك المكان استوحشت وتلفتت فلم تجد حولها الا أدوات وأشياء لا تفهم لها معنى ، من أنابيب وأقداح مختلفة الأشكال والألوان ، وألواح عليها رسوم وخطوط بعضها يقرأ وبعضها طلاس لا يقرأ . وكان قبيل دخولهما قد نزع جبته وبقي بالازار (القفطان) العسل وحوله الزنار وعلى رأسه عمامة صغيرة ، فأشار الى ميمونة وجدتها بالقعود على طنفسة بجانب طراحتة فقعدتا وهما لا تتكلمان . فقعد هو بين يديهما وخاطب ميمونة قائلاً : « هل تعلمين يا ميمونة أنى أنقذتك من القتل ؟ »

فدهشت لما سمعته يذكر اسمها وقالت : « نعم يا سيدى ، وانى لا أنسى لك هذا الجميل جزاك الله خيرا »

قال : « انى لا أسألك على ذلك أجرا ، وأتقدم اليك أن تصدقيني فى سؤال ألقه عليك : هل تفعلين ؟ »

قالت : « نعم وهل أستطيع غير ذلك وأنت تكشف مكنونات القلوب ؟ » قال : « هل تحبين بهزاد كثيرا »

فتوردت وجنتاها فجأة ، وأطرقت حياء فابتدرها قائلا : « لا ينبغي أن تستحيى منى . قولى »

فتنهدت وظلت مطرقة ولم تجب ، فأجابت عبادة عنها وقالت : « أظن رئيس المنجمين فهم جوابها دون أن تنطق به ؟ »

فوجه خطابه الى العجوز وقال : « وهل أنت لا تزالين تعرفين الحب ودلائله رغم ما مر بك من الأهوال ؟ »

فلم تستغرب عبادة اشارته الى حالها بعد ما بلغها من اعجازه فى كشف الضمائر فسكتت . فالتفت الى ميمونة ويده على لحيته يمشطها بأنامله وقال : « قد علمت أنك تحبين بهزاد ولكن هل هو يحبك ؟ »

فرفعت كتفها وهى مطرقة كأنها تقول : « لا أعلم »

فابتدرها قائلا : « لو كان يحبك لم يتركك فى هذا القصر ويذهب ، وقد تبقيين فيه العمر . وقد دبرت لك سبيلا للنجاة ، فإذا أطعنى أفلحت » قالت : « انى رهن أمرى يا سيدى »

قال : « انى أعرف شابا هو خير شبان بغداد وأكبر وجيه فيهم يحبك حبا مبرحا وأنت لا تحبينه » . وتوقف عن الكلام ، فأدركت أنه يشير الى ابن الفضل فأظهرت الاشمئزاز والتفتت الى جدتها كأنها تكلفها أن تجيب عنها ، فهمت عبادة بالكلام ، فقطع سعدون كلامها قائلا : « انى أعرف الجواب ، ولكن رفضك لا ينفعك لأن الرجل صاحب النفوذ الأكبر ، وإذا طلب من أمير المؤمنين دفعك اليه فأجدر بك أن تقبلى راضية . وهذه نصيحتى فان بهزاد بعيد ومن يدرى فقد لا ترينه بعد »

فضاق صدر ميمونة عند ذلك وانحبست عواطفها ولم تستطع أن تمسك عن البكاء ، فنهضت عبادة وقالت كمن يستغيث : « أما وقد اطلعت على سرنا وعرفت حقيقة حالنا ، فأتوسل اليك أن تكون عوننا لنا لا علينا »

فأشار اليها أن تقعد وقال : « ماذا تريدن ؟ »

قالت : « لا نصيب فينا للفتى الذى تشير اليه ، وأنت تعرف السبب ، والموت أيسر علينا من اجابة طلبه . وانما أتقدم اليك أن ترشدنا بعلمك الى امر يهمنى » . قال : « وما ذلك ؟ »

قالت : « اضعنا عونا كبيرا خلفه لنا بهزاد عند سفره ، وهو الذى اوصل كتابه الى ميمونة ، ثم لم نعد نراه ولا نعرف مكانه ، فهل تكشف لنا خبره بالمدل ؟ »

فضحك وقال : « اظنك تبحثين عن سلمان ؟ » . قالت : « نعم »

قال : « ان الوزير سألني عنه أيضا »

فقالت عبادة : « وهل هو فى بغداد ؟ » . قال : « نعم انه فى هذا القصر »

فبغتت ميمونة وقالت : « فى هذا القصر ؟ » . قال : « وفى هذه الغرفة ، وأحست عبادة عند ذلك كأن غشاوة انكشفت عن عينيها وتذكرت ميمونة صوت سلمان فصاحت : « سلمان ؟ سلمان ؟ »

فقال : « لا ترفعى صوتك ، نعم انا سلمان ، انا رئيس المنجمين ! »

ولم تستطع الامسساك عن الضحك وبان البشر فى وجهها وخفق قلبها واحست كأنها لقيت حبيبها بهزاد لأملها فى الاطلاع على أخباره ، فلم تعد تعرف كيف تسأل سلمان أو تستفهمه ، وأرادت التكلم فتلجلجت فسبقها الى الكلام قائلاً : « ستلوميننى على اختفائى كل هذه المدة ، ولكننى لم أختف الا رغبة فى خدمتك ، فلما رأيت منفعة لك فى الظهور ظهرت ، واظننى أفدتك »

فقالت عبادة : « انك أنقذتنا من الموت جزاك الله خيرا و . . . »

وقطعت ميمونة كلام جدتها فقالت : « وأين بهزاد الآن ؟ »

قال : « فى بغداد أو حولها »

فصاحت : « فى بغداد . . ؟ ألا يأتى إلينا ؟ »

قال : « وهل تظنين ان ظهوره سهل ؟ انه لا يظهر الا اذا آن الاوان . وقد تغيرت أحوال بغداد منذ وطئ ترابها ، لأن الأحزاب السرية عادت الى عملها بأرشاده ، فكثر الثورات فى طريق هذا الغلام القابض على قضيب الخلافة »

فقالت : « بورك فيك يا سلمان ، لله ما أكرم نفسك ! » بهزاد أتى من خراسان ؟ هل رأيته ؟ » . قال : « نعم رأيته وحادثته »

قالت : « أين شاهده وكيف ؟ » . قال : « لنا مكان نلتقى فيه لا يعرفه أحد سوانا »

قالت وقد أشرق وجهها : « اذن هو هنا وسنراه ؟ ومتى يكون ذلك ؟ »

قال : « لكل شئ وقت لا تكونى بلوجة »

قالت : « حسنا ، كما تشاء ، والآن ما الذى ترى أن نصنع ؟ »

قال : « تبقيان كما كنتما ، وتكتمان ما رأيتما عن كل انسان ، حتى يأتى الوقت الموافق وأظنكما تثقان بما أقوله »

فقالت عبادة : « مضى علينا زمن لم نسمع فيه خبرا عن المأمون ولا عن الأمين ولا عن الحال بينهما »

قال : « أبشرك يا سيدتى بأن الله سينتقم لك ولنا . ان الأمين خلع أخاه المأمون من ولاية العهد ، فخلعه هذا أيضا ، وقام الفرس لنصرة المأمون لأنهم أخواله ، وجردوا جيشا بقيادة طاهر بن الحسين ، وجرد الأمين جيشا بقيادة ابن ماهان صاحب الشرطة ، فالتقى الجيشان فى الرى فانتصر جيش المأمون وقتل ابن ماهان وتشنت جيشه ، ولما وصلت هذه الأخبار الى الأمين وقع فى حيرة وبعث الى فذهبت اليه فى قصر الحلد واستشارنى ، فأشرت عليه بأن يرسل الفضل بن الربيع فى الحملة الثانية ، وأنا أعلم أن الفضل لا يذهب ، وجعلت نجاحه فى الحرب مشروطا بإرسال الفضل وابنه ، فآل ذلك الى اختفاء الفضل ، ولم تفلح الحملة الثانية فضعف حال الأمين واستخف به رجال دولته حتى هموا بخلعه ، ولكنهم لم يستطيعوا لأن سلمان لم يكن معهم . ولو شئت لخلعوه ولكننى أردت اضعافه فقط »

فأعجبت ميمونة بدهاء سلمان ، وسرت بما دبره للفضل وابنه . ثم قال سلمان : « فامكثا فى قصر المنصور هذا برعاية قهرمانته ، وربما ذهبت أنا الى الخليفة ومكثت فى قصر الحلد أياما » . وصدق فأتى غلامه فقال له : « اذهب بهما الى القصر ، وقل للقهرمانه فريدة انى أحب أن أراها »

فمضى بهما . وهم سلمان بلبس ثيابه وأمر الغلام أن يعد له بغلته ليركب الى قصر الحلد ويمر فى طريقه على القهرمانه ويوصيها بهما . ثم ركب وهر بالقهرمانه وأوصاها بأن تحتفظ بهما ، فأشارت مطيعة ، فتحول يطلب قصر الحلد والغلام فى ركابه ، والناس ينظرون اليه ويوسعون له اعجابا بما اشتهر عنه من معجزات التنجيم

وصل سلمان الى قصر الحلد فوجد بالباب جماعة من العيارين يحرسونه بدلا من الجند ، وعرفه أحدهم فنهض وحياه ووسع له فدخل على بغلته الى ردهة القصر ، ولقى الهرش رئيس العيارين خارجا على فرسه فلما وقع نظر هذا على الملفان سعدون أوقف فرسه وسلم عليه . فسأله عن سبب وجود رجاله بالباب بدلا من الجند فقال : « ان الجند غاضبون على أمير المؤمنين »

قال : « لماذا ؟ » . قال : « ان خبره يطول ولا أستطيع بسطه ونحن راكبان ، ولا أظنه يخفى عليك ولكننى أقول موجزا : ان طاهرا وأصحابه لما أفلحوا فى وقعة الرى وقتل ابن ماهان ضعفت عزائم جنده وهربوا وتقدم طاهر فاستولى على أعمال الجبال ، فجند الأمين حملة أخرى فعادت خائبة ، وضعفت سطوة الخليفة حتى حاول قواده خلعه ثم رجعوا عن ذلك ، وظل

طاهر يتقدم فى جنسده حتى أتى الأهواز ثم استولى على واسط فالمدائن ، ونزل أخيرا الى صرصر وهى على مقربة منا . وكان أمير المؤمنين يخرج الأموال ويفرقها فى رجاله . وبلغ ذلك رجال طاهر فطمعوا فى الأموال ، فجاء منهم جماعة الى الأمين فأعطاهم وغلف لحاهم بالغالية وأكرمهم كثيرا فغضب جنده لأنه لم يكرمهم مثل هذا الأكرام فتفرقوا عنه غاضبين ، فبعث الى أن أتى برجالى لنصرته »

فضحك سعدون وقطع كلام الهرش قائلا : « رب مصيبة أتت بنعمة . . لابد أن يكون الأمين قد بذل لكم الأموال فغنمتم ، وأنت تعلم أن ما يسرك يسرنى وأنتك أهل للعطاء أكثر من أولئك القواد الحائنين ومن الوزراء . فهذا الفضل بن الربيع لما رأى الأمر استفحل ترك مولاه واختفى وهو سبب هذا البلاء كله » . قال ذلك وودع الهرش وساق بغلته فاستوقفه الهرش قائلا : « أنك داخل على الخليفة ومتى رأيت يزل عجبك مما بلغ اليه أمرك »

فلم يفهم سلمان قصده فلما نزل عن بغلته عند الباب الثالث من أبواب القصر ودخل الحديقة أدرك السر

وذلك أنه سلم البغلة لغلामه ومشى فى الحديقة يتوكأ على عصاه وينظر ذات اليمين وذات الشمال ، فلا يرى الا غلمانا يركضون وبعضهم حفاة مكشوفو الرؤوس فأوجس خيفة من هذا المنظر . وظل ماشيا فى بعض طرق الحديقة حتى أشرف على بركة كبيرة فى وسط الحديقة وقد تكأأ حولها الغلمان ونزع بعضهم ثيابه وغطس فيها وآخرون واقفون يحدقون فى مائها . ثم رأى الأمين نفسه مقبلا كالواله وعليه ثياب المنادمة وقد ذهبت القلنسوة عن رأسه فظن سلمان أن دسياسة كشفت فى القصر يراد بها قتل الأمين وإن الغلمان يفتشون عن صاحبها وتوهموا انه نزل البركة التماسا للفرار الى دجلة . لأن البركة متصلة بقناة تمر من تحت السور فاذا أغلقت الأبواب على هارب وكان يحسن السباحة استطاع الخروج من القنساء الى دجلة لا يعترضه الا شبكة كالمنصفاة منصوبة عند مخترق القناة من السور لا يصعب عليه نزعها

ثم سمع الأمين يصيح قائلا : « أين مقرطتى أين ذهبت ؟ من أخذها ؟ يا سعيد . . يا جوهر . . يا كوثر . . يا . . تعالوا ، أظنها وقعت فى البركة . . ابحثوا عنها . . ألقوا الشباك . . »

فلما سمع كلامه تذكر ما سمعه من الهرش ، وعرف ما يعنيه ، فقد كانت هذه الضجة كلها لأن الأمين أضاع مقرطته ، وهى سمكة كانت قد صيدت له صغيرة فقرطها حلقتين من ذهب فيهما حبتا در ، وكثيرا ما كان يلهو بها ، فاتفق أن تفقدها فى هذه الساعة فلم يجدها ، وشغل أهل القصر بالتفتيش عنها . فلما رأى سعدون ذلك تنحى جانبا حتى يفرغ الأمين من لهوه أو يجد

مقرطته وقال في نفسه : « كيف تستقيم أمور دولة هذا شأن خليفته ؟
فلا عجب اذا فاز أخوه الساهر على أمره ، ومعه جند يتفانون في نصرته ؟
وهذا انما يحيط به المتملقون طمعا في رفده »

وفيما هو كذلك رأى الأُمين ينظر اليه وقد تحول مجونه وتهتكه الى جد
واهتمام ، وأشار اليه أن يتبعه . فمشى سعدون في أثره حتى اجتاز باب
القصر الداخلى واتصل منه الى دهليز ينتهى بقبة يسمونها «طارمة» مصنوعة
من خشب الصندل والعود ، مساحتها عشر أذرع في مثلها ، اتخذ لها فراشا
مبطنا بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب الأحمر وغير ذلك من أنواع
الابرسيم ، ورأى رجلا وقوفا ببابها عليهم سيماء الوجاهة ، وقد وسعوا
للأُمين عند دخوله ، ومنهم : ابراهيم بن المهدي عم الخليفة ، وسليمان بن
جعفر المنصور من شيوخ بنى هاشم . فلما دخل الأُمين أشار الى سعدون
بالدخول وصرف الباقيين ، فترك سعدون عكازه ونعاله بالباب ودخل .
فجلس الأُمين على دكة في صدر القبة وأشار اليه أن يقعد فقعد وهو يعجب
لتغير حاله . ووقع نظره على آثار لمجلس شراب وغناء كان منعقدا هناك قبل
مجيئه فرأى الأقداح مبعثرة والأياريق متفرقة بين فارغ ومملوء وأطباق الفاكهة
مصفوفة . ورأى بين يدي الأُمين قدحا من بلور يسع شرابا يزن خمسة
أرطال وقد قلب وانكسر . ورأى قدحين مثله بين وسادتين كان عليهما اثنان
من خاصة الجلاس لعلهما سليمان بن المنصور وابراهيم بن المهدي ، وهما
أرفع مقاما من سائر جلسائه

فأدرك سعدون أن الأُمين كان في مجلس طرب وعلم بضياح مقرطته فأسرع
للبحث عنها . ولكنه استغرب انقلابه من اللهو الى الاهتمام فلبث ساكنا
حتى يبدأ الأُمين بالكلام . أما هذا فانه أزاح بقايا القدح المكسور بين يديه
ونظر الى سعدون وتنهد وقال : « لم يبق لي صديق أودعه سرى الاك ، فرجالي
تفرقوا عني ولم أجد بينهم مخلصا لأنهم انما يطلبون مالى أما أنت فقد أعجبت
بعلمك واطلاعتك على الخفايا فأحببت أن أستشيرك . ويسوؤنى أنك جئتني
ورأيت اشتغالى بعث الغلمان ثم دخلت هذا المجلس ورأيت ما فيه من آثار
الندمان على ما نحن فيه من أسباب القلق وبواعث الاهتمام » . ثم تنهد
تنهدا عميقا وقال : « ولكننى أفعل ذلك لأذهب ما بى من اليأس ، فبعثت
الى بعض أعمامى ، فجاءوا الى بالمغنيات والشراب فشربنا وسمعنا ، ولم
يذهب شيء مما فى نفسى بل زدت يأسا وكدرا لما سمعت الجوارى ينشدن
من أبيات الشؤم ، ولا أدري أفعلن ذلك عمدا أم اتفاقا كقول احدها :
وهم قتلوه كى يكونوا مكانه

كما غدرت يوما بكسرى مرازبه

وانى لأخشى ممن حولى وهم مثل مرازبة كسرى ليس فيهم من يهमे
أمرى ، حتى الفضل وزيرى تخلى عني وتركنى واختفى . وزادنى تشاؤما

أن إحدى المغنيات قامت لحاجة لها فعثرت بهذا القدر فكسرتة ، وهو قدحى ما برحت أشرب به منذ أعوام لم يصبه عطب . فهل ألام اذا تطيرت ؟ » . قال ذلك وصوته يكاد يختنق

فقال سعدون : « لا بأس عليك يا مولاي »

فقطع الأمين كلامه قائلا : « حتى أنت لم تصدقنى هذه المرة أو أن تنجيمك لم يصدق »

قال : « وكيف ذلك ؟ »

قال : « أتذكر حديثك فى قصر المنصور لما سألتك عن القتال بينى وبين أخى فبشرتنى بالنجاح ؟ »

فاطرق كأنه يفكر ثم قال : « لو راجع مولاي ما قلته يومئذ لتحقق صدق قولى . فقد قلت ان العلم يدلنى على أن الفئة التى فيها الفضل هى الغالبة فهل ذهب الفضل فى تلك الحملة ؟ »

فانتبه الأمين لذلك وقال : « نعم لم يذهب ، وقد أردت أن أرسله مع الحملة الثانية فتوصل ، ولما ألححت عليه خاف التبعة فاخفى ولم أعد أراه ولا أعلم أين هو »

فهز سلمان رأسه متعجبا ، ثم أطرق هنيهة وهو يحك جبينه بسبابته وقال : « بل أرى المندل قد صدقنى أيضا فان وزير أخيك فى خراسان اسمه الفضل ، وهو أقوم على نصرته من قيام هذا الفضل على نصرته أمير المؤمنين . انى واثق من صحة ما أعلمه واذا ظهر خطأ فانما يكون فى فهم ما يظهر لنا من النتائج »

فصدق الأمين قوله وزادت ثقته به وقال له : « والآن لا أخفى عليك انى قد فرغت يدي من الرجال ، وخزائنى من الأموال حتى ضربت ما فى قصورى من آنية الذهب والفضة نقودا وأعطيتهما لرجالى ، وبعث الآنية الثمينة وفرقتها فيهم ، وجمعت ما استطعت جمعه من أموال التجار لأسترضى جندى ولكن هذا كله لم يفدنى شيئا وأصبحت كما ترى » . قال ذلك وغص بريقه . ورأى سعدون دمعين تتلألأ فى عينيه فلم تتحرك شفقتة أو حنوه ، وان أظهر ذلك احتيالا للوصول الى غرضه . وكان يود استفحال الأمر بين الأخوين حتى لا تذهب مساعى الفرس عبثا ، فأبدى أسفه لما سمعه من حال الأمين وقال : « ألم تبحث عن المال فى قصر أخيك ، فقد علمت بمال حفظه نوفل خادم القصر من أيام مولانا الرشيد ؟ »

فقطع الأمين كلامه قائلا : « كان عند نوفل هذا ألف ألف درهم أخذناها مع الضياع والغلات »

فاطرق سعدون وقد سره تضعض الأمين ثم قال : « أنت تطلب المال

لارضاء الجند ، وفي بغداد جند يحارب بلا عطاء ويأخذ عطاءه مما يغنمه ،
قال : « أظنك تعنى العيارين والشطار ؟ »

قال : « نعم فهؤلاء يحاربون عراة وسلاحهم المقاليع ونحالي الخوص يحملون
بها الحصى يرمون بها الناس فتؤذيهم أكثر مما تؤذيهم السيوف والرماح ،
وفي بغداد اليوم من هؤلاء نحو خمسين ألفا فأمر زعيمهم ان يجندهم »

قال : « اتظننى غافلا عن ذلك ؟ . كان الهرش عندى الساعة وقد أمرته
باعدادهم فوعدنى بأن يفعل ، وأظنه سيجمع من تصل اليهم يده من باعة
الطريق وأهل السجون والأوباش والطرارين وأهل السوق . وهؤلاء اذا
قاموا خربت المدينة . ولكن » . وسكت

فأدرك سعدون انه يكتم شيئا يخاف التصريح به ، فظل ساكتا ينتظر
ما يبدو ، فعاد الأمين الى الكلام فقال : « أشار على بعض خاصتى الباقيين على
ولائى بأن أخرج من بغداد بمن بقى من رجالى ، وهم سبعة آلاف فارس فأمر
ليلا من أحد أبواب المدينة حتى آتى الجزيرة أو الشام فيفرضون الفروض
ويجبون الخراج ويكون لى مملكة واسعة هناك ، وأترك بغداد لأصحابها حتى
يقضى الله بما يشاء فما رأيك ؟ »

فلما سمع سعدون ذلك تحقق انه رأى الصواب ، وخاف اذا عمل
الأمين به أن يعرقل مساعى الفرس ، لأن بقاء الأمين حيا فى مملكة أخرى
يفسد عليهم سعيهم فقال : « هل يرى أمير المؤمنين فائدة من الفرار ؟ . ومن
أى باب يخرج بسبعة آلاف فارس وبغداد محاطة بالأعداء من كل جانب
شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . فاذا وقع فى يد أعدائه - لا قدر الله - فانهم
يستحلون منه ما لا يستحلونه فى حال أخرى »

فقال الأمين : « ألا نجد لنا مخرجا من بغداد ؟ »

قال : « اذا شاء أمير المؤمنين صعدنا الى احدى المنائر العالية ، وأشرفنا
على بغداد وأرباضها فنرى أماكن العدو رأى العين والأمر بعد ذلك له »



استحسن الأمين رأى سلمان ، ونهض وقال : « فى هذا القصر منارة
عالية هلم بنا اليها » . فنهض سعدون فى أثره حتى صعدا المنارة وأطلا
منها على بغداد وقصورها ، فالتفتا أولا نحو الشرق وقال سعدون : « أنظر
يا مولاي ، هذه مضارب هرثمة بن أعين وراء دجلة ؟ . وهذه مضارب عبيد
الله بن وضاح فى الشماسية ومعه جند عظيم وقد حفظ الجسر الأعظم .
وجند هرثمة يحرسون طريق خراسان فلا سبيل الى الفرار من هذه الجهة ؟
وأما جهة الغرب فهذا طاهر وجنده فى البستان قرب باب الأنبار وكأنى

أراهم يقتربون بأعلامهم . أراهم دخلوا محلة الكرخ حول باب الكوفة وما يليها وسائر الأرباض الغربية الجنوبية ، وكادوا يحصروننا والعيارون يدفعونهم بالمقاليع ألا ترى الحصى يتطاير فوق البيوت ؟ »

وكان الأمين ينظر الى ذلك وقلبه يختلج وامتعق لونه ، وتحقق ضياع أمره ، فلم يجب ولكنه وجه نظره نحو الحربية في الشمال فرأى النار قد لعبت فيها فصاح : « ويلاه ما هذا ؟ »

فقال سعدون : « أظن أوشاب السكان وأهل السجون اغتتموا فرصة اشتغال الناس بالقتال فألقوا النار في البيوت ليتمكنوا من السرقة والنهب . انزل يا سيدي الى قصرِكَ فانك آمن فيه وهو حصن منيع »

فنزل الأمين وسعدون وراءه حتى بلغا الدار فرأيا أهلها في هرج ومرج يركضون ذات اليمين وذات الشمال كأنهم يفتشون عن ضائع ، وحالما وقع بصرهم على الأمين أجفلوا وصاحوا : « هذا مولانا أمير المؤمنين . هو هنا » . وما عثم أن رأى أمه زبيدة تعدو نحوه حتى ضمته الى صدرها ودموعها تتساقط وهي تقول : « ولداه أين كنت ؟ لقد بلبلت بالي لغيابك هذه الساعة . وقيل لي انك كنت جالسا هنا ثم لم يجدوك وذكروا انك لم تخرج فطار صوابي لتغيبك في مثل هذا الوقت »

فأثرت لهفة أمه تأثيرا شديدا في نفسه ولم يتمالك عن البكاء ، ثم تجلد وأظهر رباطة الجأش وقال : « وما الذي يخيفك يا أماء ؟ » . اننا في خير ان شاء الله . وانما كنت مع رئيس المنجمين . ما الذي جاء بك الآن ؟ »

فأمسكت بالأمين ودخلت به غرفة ودخل سعدون في أثرهما وأقفلوا الباب وقالت : « جئت لأمر مهم . أنت تعلم اني لا أغفل عن التفكير في أمرك ، وقلبي يدلني على خطر يهددنا من يد ذلك الخراساني بهزاد . وما زلت أبحث العيون للبحث عنه حتى قيل لي انه في بغداد ، ولكنني لم أقف على مسكنه ، وبينما أنا أتوقع الوقوف عليه حلمت حلما مزعجا لا أقصه على أحد بل أنا أريد نسيانه . على انني لم أعد أستطيع صبرا على بهزاد هذا ، واذا استطعنا القبض عليه فكأننا هزمنا نصف الجيش لأنه منذ وطئ هذه الديار تغيرت حالنا وقوى جند طاهر ، وذلك لأن بهزاد زعيم كبير وله نفوذ على كبار البغداديين ، وقد ذكرت لك مرارا انه رئيس عصابات سرية أعضاؤها من أكبر تجار بغداد وأهل النفوذ فيها » . قالت ذلك وقعدت

فقعد الأمين وهو يشير الى سعدون أن يقعد ، وقال لأمه : « وأين هو ؟ » قالت : « لا أدري أين هو . ولكنني سأبحث الى هذه الفتاة أستقدمها الى لعلها تعترف بمكانه فيسهل علينا القبض عليه »

فالتفت الأمين الى سعدون كأنه يستطلع رأيه ثم قال : « مالنا ولتلك الفتاة ؟ هذا رئيس المنجمين عندنا »

فقالت وهي تعتدل في مجلسها على الوسادة بجانب ابنها « أخبرنا أيها الملقان عما يدلك عليه علمك عن ذلك الخراساني »

فأخرج كتابه وقرأ فيه على عجل ووضع قطعة من البخور في فمه ومضغها قليلا ثم قال : « انه في بغداد يا سيدتي » . قالت : « هل تعرف مكانه ؟ » قال : « يلوح لي انه بين ماءين ، ولكن ليس في النهر » . على أن تحقيق ذلك يحتاج الى وقت أوسع وجو أصفى ، أما تلك الفتاة فلا تعلم مكانه . وكيف يتأتى ذلك وهي محبوسة في قصر أمير المؤمنين لا يراها أحد ولا ترى أحدا ؟ »

فأطرقت زبيدة هنيهة وقالت : « علمت ان ابن الفضل يهواها وهي لا تريده ، ولولا اختفاء ابنه لزوجته بها برغم أنفها » . وسكتت ثم قالت : « والفضل هذا خاننا عند الحاجة اليه . انه أصل هذه المصائب وهو الذي حرض محمدا على خلع أخيه والتجريد عليه . لعنه الله من خائن ! »

وغصت زبيدة بريقها كأنها شعرت بالخطر المحدق بابنها . ثم استأنفت الكلام وبدأ على وجهها الاهتمام وقالت : « ولكنني حسنة الظن بالفضل » . وأحس الأمين بما تضرره من الخوف عليه فأحب ان يصرف ذهنها عن هذا فتجلد وتكلف الابتسام وقال : « سوف يلقي الحائن جزاءه ، اذهبي يا أماء الى قصرك الآن واطمئني وادعي لنا بالنصر ، ولا يغرنك ما ترين من كثرة جند الأعداء فاننا غالبون باذن الله ، ولنا من العيارين أكبر معين »

فعلمت انه يريد لها أن تنصرف ، فنهضت وهمت بالخروج فأحست بما يحجب اليها البقاء، ولم يطاوعها قلبها على فراق ابنها كأنه أنذرها بالخطر عليه، فأرادت أن تعود الى مقعدها فخافت أن تكدر ابنها فوقفت هنيهة تتردد ثم أكبت على الأمين وقبلته في عنقه قبلات حارة ، فأحس بسخونة الدمع فدفعها بلطف وقبل صدرها وهو يغالب عواطفه ويخاف أن تخونه دموعه . أما هي فأسرعت في الخروج وشعرت بأن قلبها خلع من صدرها وانصرفت في موكبها الى قصرها

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فقال سعدون : « هل يأمر لي مولاي بالانصراف ؟ »

فقال : « امكث .. لا تفارقني . اني سأحتاج اليك الليلة »

فتوقع سعدون من وراء ذلك نبأ جديدا فنظر الى وجه الأمين فرأى اضطرابا لم يعهده فيه من قبل ، فهم بالخروج الى بعض غرف الأضياف فأشار اليه الأمين أن يمكث ، ثم صفق فجاءه غلام فقال : « الى بالشراب وأنر الشموع » . فلما خرج الغلام نزع الأمين عمامته عن رأسه وزفر زفرة سمع لها دوى وقال : « يلومونني على الشراب ، وماذا يفعل اليائس في مثل هذه الحال؟ ان الشراب ينفس الكرب ويذهب الغم حتى يقضى الله بما يشاء » .

أما سعدون فجلس متأدبا محتشما ، ثم جاء الغلمان بمائدة الشراب والفاكهة وأناروا الشموع الكبيرة المعروفة باسم الأُمين ، فصاح الأُمين بالغلام قائلا : « هل عمى إبراهيم هنا ؟ » . يريد إبراهيم بن المهدي المغمى

قال : « كلا يا مولاي »

فأشار إليه أن يملا له قدحا ، ثم أخذه وأشار إليه أن يملا قدحا آخر وقال لسعدون « ألا تشرب يا مفلان »

قال : « إذا أمرني أمير المؤمنين أطعته ، ولكنني لم أذقها قبل الآن والشراب لا يتفق وصناعتي »

فقال الأُمين للساقى : « دعه لا تسقه . اننا في حاجة الى علمه وصناعته الليلة وإذا جاءنا رسول فاوص صاحب بابنا أن يوصله إلينا حالا ولو في نصف الليل »

فازداد سلمان رغبة في استطلاع ما يضمه الأُمين ، ولبت ينتظر ما يبدو منه ، فشرب الأُمين بضعة أقذاح وسرى عنه ، فالتفت الى سعدون وقال : « أتدرى لماذا استبقيتك هنا دون سواك ؟ » . قال « كلا يا سيدي »

قال : « لو أردت لكشفت سري لبعض خاصتي ، ولكنني أصبحت لا أثق بأحد من أهل بطانتي بعد أن تكشفوا لي عن أعداء في ثياب الأصدقاء ، وما منهم الا من يطمع في مالي . ويكفيك مثلا منهم ونهرى سببي هذا الخصام بيني وبين أخي . فانه لما رأى اشتداد الأزمة خاف على حياته واختفى ولم يبالي ما يهددني ، وهكذا فعل كل رجال دولتي فانهم بقوا معي حتى أنفقت أموالا وبعثت جواهرى وآيتي ، فلما فرغت يدي تخلصوا عني . وشدد الأعداء الحصار علينا فمنعوا الأقوات عنا . وكأنه خاف أن تبدو جهشة بكائه فتناول قدحا وفاكهة يتشاغل بهما وأعطى سعدون بعض الفاكهة وهو يقول : « ومن كان هذا شأنه مع رجال بطانته كيف يرجي فلاحه ؟ »

فاستبشر سعدون من شكواه وتحقق سقوط دولته ، ولكنه تظاهر بالاستغراب وقال : « لا يياس أمير المؤمنين ان الله ناصره فليتوكل عليه »

فقال : « طالما خدعتني الآمال ، وصدقت المتملقين أهل الفساد حتى نزع الشيطان بيني وبين أخي ، فرأيت رجاله أثبت من رجالى وقواده أكفأ من قوادي ورجعت الى رشدي ، فاذا أحببت أن أصالحه لا أجد من يتوسط بيني وبينه . . . فما أنذا أطلعك على سر ضمنت به على أهل دولتي . وعلى أمي »

فقال سعدون : « اني عند ثقة مولاي » . فقال الأُمين : « لا أخفي عليك اني لما فرغت يدي من الرجال والمال وامتنع على الخروج بعثت الى هرثمة في البر الشرقي أطلب الأمان وأنا في انتظار الجواب . . . فهل أحسنت ؟ »

مقتل الأمين

أظهر سعدون الأسف للأمين ، ثم رفع حاجبيه ، وقال : « حسنا فعلت ، وما في الأمان عار لاسيما انك ستكون في أمان أخيك والدم لا يتغير ولا يخون .. ولكن .. » وسكت

وكان الأمين يصغي لكلام سعدون ويده تفاحة يقشرها ، فلما رآه توقف قال : « ولكن ماذا ؟ »

قال : « لا أدري الحكمة في الاتصال بهرثمة دون طاهر ، وهو صاحب الجند المحاصر لهذا الشطر من بغداد »

فتنهذ الأمين ورمى التفاحة من يده وقال : « لا .. لا أتصل بطاهر فاني أتطير منه وأكرهه ، وقد رأيت في منامي كأنني واقف على حائط من آجر شاهق عريض الأساس لم أر مثله في الطول والعرض ، وعلى سوادى ومنطقتى وسيفى وكان طاهر عند أساس الحائط فما زال يضربه حتى سقطت قلنسوتي عن رأسى فتشامت منه . أما هرثمة فانه من موالينا وهو بمثابة الأب لى »

فرقص قلب سعدون طربا لهذه البشرى وقال : « الأمر لمولانا »
وفيما هما في الحديث جاء الغلام يقول : « ان رسول أمير المؤمنين بالباب » فقال الأمين : « يدخل حالا »

فدخل الرجل متخفيا بشياب التجار ، فوقف الأمين وقال له : « قل ما وراءك ؟ »

قال : « أقول كل شيء ؟ » قال « قل ولا تخش شيئا »
قال : « لقيت هرثمة وعرضت عليه ما أمرتنى به فقال : (السمع والطاعة) ولكنه يرى أن يكون نزول أمير المؤمنين عنده في الليلة القادمة وليس في هذه الليلة و ... »

وكان الأمين مقبلا على سماع الرسول فلما سمع قوله أشار إليه أن يقعد وقال : « وماذا بعد ذلك ؟ قل ولا تخف » ما الذى بعثه على تأجيل الذهاب ؟
فقعد الرجل وقال : « لأنه على ثقة من أن ذهاب أمير المؤمنين إليه يسوء طاهر بن الحسين ، وهو قريب من هذا القصر وانما شدد الحصار رجاء أن يختار أمير المؤمنين الخروج بأمانه إليه فيفتخر بالفوز على يديه وله عينون

مبثوثة في هذه الاطراف . وأخبرني هرثمة أنه شاهد على الشاطيء أمرا
رأبه فهو حريص على حياة أمير المؤمنين »

فأدرك الأُميين أن طاهرا يهدده فقال : « بل أذهب الى هرثمة . ولا بد من
الذهاب الليلة لأنني أصبحت وحيدا وقد تفرق عني الناس والموالي والحرس
وغيرهم ، ولا آمن أن ينتهي الخبر الى طاهر فيدخل على فيأخذني »

ونفض وقد بان الانقباض في حياه، وأمر فجىء اليه بثياب بيض وطيلسان
أسود فلبسها واعتصم بعمامة خفيفة ثم أمر الغلام أن يأتيه بولديه . فوقف
سعدون وسكت تهيبا واحتراما وقال للأُميين : « أيا امر مولاي بخدمة أقضيها
فان نفسى قداؤه »

قال : « لا تفارقنى حتى أخرج انى أرى وحشة » . ثم جاءوه بولديه
فضمهما اليه وودعهما وبكى وقال : « أستودعكما الله عز وجل » . ومسح
عينيه بكفه ومشى الى بغلة أعدوها له فركبها ، وسعدون واقف الى جانبه ،
فأشار اليه مودعا فقبل سعدون ركابه وقال : « سر فى حراسة الله » .
فأوصاه بأهله خيرا وخرج راكبا الى الشاطيء وكانت حراقة هرثمة فى انتظاره
هناك فنزل فيها فحول ربابها الدفة نحو الشاطيء . وكان فى الحراقة هرثمة
نفسه وجاعة من رجاله . فلما دخل الأُميين قاموا له وجثا هرثمة على ركبتيه
واعتذر اليه من نقرس فى رجله ، واحتضنه وضمه اليه وجعله فى حجره
ليؤنسه . وكانت ليلة باردة - لأنه خرج فى مساء الأحد لحمس بقين من
المحرم سنة ١٩٨ هـ وهى توافق ٢٨ سبتمبر سنة ٨٦٣ - وأمر هرثمة
النوتية أن يسرعوا فى التجذيف فقد شاهد حركة على الشاطيء . واذا
بزوارق لطاهر كانت راسية هناك قد أسرع الى حراقة هرثمة ونقبوها
ورموا فيها بالآجر والنشاب فدخل الماء الى الحراقة ففرقت وسقطت هرثمة
والأُميين الى الماء فشق الأُميين ثيابه وخرج الى الشاطيء ونجا هو وهرثمة .
فأركبوا الأُميين حمارا وساروا به يطلبون نجبا وهم لا يصدقون أنهم نجوا



كان سلمان بعد ذهاب الأُميين قد جعل همه أن يقتله ، لأن فى بقائه على قيد
الحياة ما يجعل سبيلا الى الصلح مع أخيه فلا يستفيد الفرس شيئا . فنوع
عنه ثياب التنجيم وسبق الأُميين الى الشاطيء، وأخبر رجال طاهر بأن الأُميين
خارج الساعة الى حراقة هرثمة فترقبوا قدومه ، ولما رأوا الحراقة تتحرك
أغرقوها كما تقدم . وكان سلمان معهم فنزل فى جملة من نزل للبحث عن
الأُميين فرافق الذين فروا به الى المكان الذى خباؤه فيه ثم رجع الى بهزاد
وكان بهزاد منذ وصوله الى بغداد يعرض رجال الشيعة على الاخذ بناصر

أخوانهم وفيهم جماعة الحرمية ، ولكنه لم يظهر لطاهر ، ولم يعلم طاهر به ، على أنه كان يغتنم الفرص لمساعدة الجند كما فعل في واقعة الرى ، وكان نفوذه على الحرمية ببغداد عونا كبيرا لرجال المأمون حتى تضعفت أحزاب الأُميين وضعف أمره واضطر للتسليم . ولم يكن بهزاد يرى أن يأخذ الأُميين أسيرا ، وإنما كان همه أن يلتقى به فى ساحة قتال ويبارزه ويقتله بخنجره ليتم وعده لأمه فيرجع إليها برأسه ظافرا غانما . وكان فى أثناء إقامته ببغداد أو ضواحيها يجتمع بسلمان ويسأله عن ميمونة ، فيطمئنه هذا لئلا يشغله داعى الغرام عن اتمام مشروعه . واطمأن هذا المشروع بهم سلمان كما بهم بهزاد ولكن غرضه ومطمح أمله فى خراسان وليس فى بغداد

قضى بهزاد مدة طويلة على هذه الحال حتى اشتد الحصار وبلغه حديث الناس عن الأُميين ، فتوقع قرب استسلامه . وفيما هو ذات ليلة فى منزل أحد الحرمية بالكرخ وقد انتصف الليل ونزع ثيابه وعلق سلاحه فوق رأسه ونام . جاء أحد الغلمان ينبئه بقدوم سلمان ، فعلم أنه لا يأتيه فى مثل ذلك الوقت الا لأمر مهم ، فنهض وأمر بإدخاله ، فدخل سلمان وعليه ثياب لا هى لرئيس المنجمين ولا للخادم سلمان ، ودلائل التعب بادية فى وجهه ، فصاح فيه : « ما وراءك يا سلمان »

قال : « أبشر بالنصر »

قال : « انى مستبشر به وواثق من الحصول عليه ، ولكن ماذا حدث ؟ » فقص عليه الحديث كله الى أن قال : « فالأُميين الآن مختبىء فى بيت لبعض الناس على الجانب الشرقى ، وقد تركته عريان وليس عليه من الثياب الا السراويل والعمامة وعلى كتفيه خرقة خلقة ، ومعه احمد بن سلام صاحب المظالم لأنه لقيه فى فراره عرضا . وسمعت الأُميين يسأله عن اسمه فلما عرفه استأنس به وقال له : (ضمنى اليك فانى أجد وحشة شديدة) . فضمه اليه وكانت عنده مبطنة ألقتها عليه . ثم سمعته يقول له : (يا أحمد ما فعل أخى ؟) . فقال له : (هو حى) . فقال : (قبح الله بريدهم كان يقول قد مات) . وأنا واثق بعلمه أنه حى ، ولكنه ما قال هذا الا استرضاء واعتذارا . فأجابه ابن سلام : (قبح الله وزراءك) . وسمعته يقول : (وما تراهم يصنعون بى ، أيقتلوننى أم يفون لى بأمانهم ؟) . فقال له : (بل يفون لك) . وقد كذب فأله . وتنحنج سلمان ، فأدرك بهزاد غرضه من ذلك فقال : « ماذا تعنى يا سلمان ؟ . . أترى أن ننكث عهد الأمان ؟ »

قال : « وهل تريد أن يبقى هذا الرجل حيا ؟ . فاذا حمل الى أخيه وقع الصلح فيذهب سعيينا عبثا ؟ . لماذا حملت هذا الخنجر معك من خراسان ؟ . ألم تذكر أنك نذرت أن تنتقم به لأبى مسلم وجعفر ؟ . فكيف تنتقم لهما . ها قد سنحت لك الفرصة والرجل فى قبضة يدنا وفى قتله ختام فوزنا . أنتركه يفلت منا ؟ »

قال بهزاد : « أنت تعلم أنى أول ناظم على هذه الدولة وقد كرسست حياتى لمناهضتها ونجحت فى مسعى والحمد لله . وأقصى رغبتى أن أقتل هذا الخليفة بىدى وبخنجرى لأضيف رأسه الى الرأسين اللذين تركتهما فى مرو . نعم أريد أن أقتله فى ساحة الوغى . أقتله متقلدا سلاحه بالمبارزة وليس غدرا وخلصه وهو أعزل خائف دخل فى أماننا . أنكت ونحن انما نقمنا على هذه الدولة لانها نكتت العهود وغدرت ببعض رجالنا ؟ والغادر تعود عاقبة غدرة عليه . » قال ذلك وبانت الحماسة فى عينيه . فتكدر سلمان من هذه الأريحية لأنه لم يكن يفهم مغزاها وانما هو رجل مكر داهية يهمة تنفيذ ما ربه لا يبالي ما يعترضه ولا يهمة ما يأتى فى سبيل ذلك من أساليب الكذب والمكر والغدر . لا يخاف ضميرا ولا يرعى ذمما ، ولذلك اختساره صاحب الأمر بخراسان للعمل الذى تقتضيه هذه الحصان ، على خلاف بهزاد فانه رئيس شريف وكل أعماله تؤيد ما طبع عليه من الأريحية وصدق اللهجة والبسالة

فلما سمع سلمان اباءه لم يستغربه ولكنه ندم على تكليفه ذلك وتظاهر بأنه اقتنع وقال : « صدقت يا بهزاد بورك فى بطن حملك . » وتناعس فنام ونام بهزاد وهو يفكر فيما انتهت اليه هذه المهمة وما عساه أن ينجم عنها . وبينما هو فى رقاده فى أواخر الليل اذ سمع خربشة فاستيقظ وفتح عينيه فرأى شبعا واقفا بجانب فراشه وهو يتناول الى الحائط فنهض والتفت ولم يدعه ذلك وقال : « من هذا ؟ »

فرأى شيئا وقع من يد الرجل على الفراش فتوسمه فاذا هو خنجره والرجل سلمان فقال : « ماذا تفعل يا سلمان ؟ »

قال : « لا أفعل شيئا وقد فعلت ما أريده وهذا خنجرك خذه »

فمد يده الى الخنجر فرأى عليه أثر الدم فقال : « ماذا فعلت . هل قتلت الرجل ؟ »

قال : « قتلناه لا أقامه الله . » اكنت تريد أن يبقى عشرة فى طريقنا ؟ لقد مات واسترحنا منه »

فصاح به : « ويلك قتلته ؟ وبخنجرى ؟ »

قال : « لأن خنجرك موجود لهذا الأمر كما قلت فأحببت أن اتحمل أنا ذنب القتل وأترك لك فضائل الأباء والنزاهة والأريحية وكبر النفس . » وهز رأسه استخفافا وقال : « تريدون انشاء دول لا نكت فيها ولا غدرا ، ولم نر صاحب دولة استغنى عن ذلك ولولا أن غدر أبو مسلم الخراسانى ما غلب ، والمنصور لو لم يغدر به لم تثبت دولته ، والرشيد لو لم يغدر بجعفر لكان فى خطر على خلافته . بل ارجع الى صدر الاسلام تر عليا وأبناءه لم يفشلوا فى سياسستهم الا لأنهم توخوا الحق والوفاء وبالغوا فى البعد عن

الغدر والدهاء . ولو لم يمكر معاوية ويغدر لما استطاع أن ينشئ دولة ولا أقام سلطانا . وقد توارث العلويون حب الحق والتدقيق في الوفاء من على فكان حظهم الفشل مثل حظه . ما أحوجنا نحن إلى الغدر الآن ، على أنى لم أكلفك ارتكاب هذه الجريمة فتحملت الذنب وحدي »

فأعجبه اعتذاره وقال : « ومع ذلك فإن الغادر تعود عاقبة غدره عليه والتاريخ أصدق شاهد » . وسكت وقد سره التخلص من الأمين على يده ودون أن يتحمل وزر دمه فقال : « وكيف فعلتم ؟ كيف قتلتموه ؟ » قبحكم الله ! »

قال : « سرقت خنجرك وتزييت بزي جند الفرس ، وأسرعت إلى المكان الذي تركت الأمين فيه وقد مضى نصف الليل والظلام شديد ، فلقيت ببابه بضعة رجال من العجم وسيوفهم مسلولة ، فاختلطت بهم ودخلت معهم على الأمين فوجدته قاعدا ولما رأنا نهض قائما وقد أخذ الرعب منه مأخذا عظيما وقال : « أنا لله وأنا إليه راجعون ذهبت والله نفسي في سبيل الله ، أما من مفيت أما من أحد من الأبناء ؟ » . أما نحن فظللنا داخلين عليه وكان بيده وسادة تترس بها وهو يقول : « ويحكم أنا ابن عم رسول الله ، أنا ابن هرون ، أنا أخو المأمون ، الله الله في دمي ! » . فخفت أن تدرك القوم رافة فيفسد علينا أمرنا فالحمت على رجل أمامي كان سيفه مسلولا بيده ، وقلت عليك به فضربه بالسيف على رأسه فرماه الأمين بالوسادة فتقدمت أنا وطعنته بهذا الخنجر في خاصرته فكانت القاضية فصاح : (قتلني قتلني) . فدخل بقية القوم فذبحوه من قفاه وأخذوا رأسه ومضوا به إلى طاهر وجئت أنا بالخنجر إليك . فان كنت ترى أنى أستوجب القصاص فأحكم على »

قال : « يظهر أن الرجل كان مقتولا لا محالة ، ولكنك جعلت لخنجرى أثرا في القتل حتى يصح النذر . رحم الله الأمين ، وهنيئا لنا فقد انتهت مهمتنا » قال سلمان : « ونجن راجعون إلى خراسان غدا إذا شئت »

قال : « ولماذا هذه العجلة ؟ »

فقال وهو ينظر إليه شزرا : « فرغت أنت من عملك وضمنت مستقبلك ، وهذه ميمونة تحت أمرك لو تمكثتما هنا أو في غير هنا فأنت مطمئن . أما أنا فلي مارب في خراسان لم أتوثق منه بعد ، لذلك أحببت الرجوع »

قال بهزاد : « وميمونة ؟ ألا تخرجها من المكان الذي حبستها فيه ؟ »

فضحك وقال : « صدقت ، هي في قصر المنصور ، وفي الغد أحملها إليك مع جدتها . ألا يكفيك ذلك ؟ »

قال : « بلى . واني شاكر لك معروفك ، وقد آن لنا أن نكون كالأخوة نأنت أخي وصديقي منذ الآن ، وقد انقضى زمن الخدمة بانتهاء هذه المهمة » فأثنى سلمان عليه ، وباتا بقية ذلك الليل ونهضا مبكرين فقال سلمان :

انى ذاهب لساعتى بلباس رئيس المنجمين حتى يسهل على الدخول الى قصر المنصور لاحضار ميمونة وانت ماذا تفعل ؟ »

قال : « أسير فى ظلك أو أنت تسير فى ظلى حتى لا نضيع فرصة » . قال : « حسنا »



تزيى سلمان بزي رئيس المنجمين وركب بغلته ، وركب بهزاد بخواده وعليه القباء والقلنسوة والسرراويل كأنه أحد كبراء الفرس . فمرا بأسواق الكرخ وقد لاح الفجر ، وتحولا من ناحية باب الكوفة فهالهما ما شاهدها من ازدحام الأقدام ، واستغربا كثرة ما يتساقط عليهما من الحصى التى كان العيارون يرمونها من الأسوار . وقبل وصولهما الى الباب رأيا جماعات من الناس وفيهم أهل الأسواق فضلا عن الجند الخراساني يستبقون الى البستان الذى كان طاهر معسكرا فيه ، وإذا برأس مرفوع على قناة فعلم سلمان أنه رأس الأمين جاء به طاهر وغرسه على برج فوق حائط البستان . ولما رآه الناس سقط فى أيديهم وهلعت قلوبهم أو لعلهم فرحوا لانتهاء الحرب . ولما وقع نظر بهزاد على الرأس كبر واستعاذ بالله وقال : « سبحان الحى الباقي ، اليوم سقطت دولة وقامت دولة أخرى . اذا عرف الفضل بن سهل الانتفاع بهذا النصر »

فقال سلمان : « ماذا ترى طاهرا يفعل بهذا الرأس ؟ »

قال : « أظنه يرسله الى المأمون فى خراسان ومعه البردة والحاتم والقضيب ، لتطمئن القلوب ويتحققوا النصر ، ولينال طاهر جائزة كبيرة ويصبح المأمون الخليفة الوحيد »

أما قصر المنصور فكان سلمان قد غادره بالأمس وأهله غافلون عما يجرى فى قصر الخلد وكانت القهرمانه فريدة مشغولة بشؤونها فجاءها الحاجب يقول : « ان ابن الفضل بن الربيع بالباب يطلب أن يراك » . وكانت تعرف الفضل ومنزلته عند الأمين ، فظنت ابنه قادما بأمر مهم فأذنت فى دخوله . وكان قد مضى عليه وقت طويل وهو مختف مع أبيه لكنهما لم يفارقا بغداد فكانا على بينة مما يجرى فيها ، فلما علم فى ذلك المساء أن الأمر قد استفحل ولا تلبث بغداد أن تسقط فى أيدي الخراسانيين . وكان يراقب حركات ميمونة ويعرف أمرها . أخذ يسعى جهده فى الحصول عليها حتى ذهب الى زبيدة فى صباح الأمس وأقنعها بأنه يستطيع أن يستعلم منها عن محل بهزاد ولمح أنه يحبها فقالت : « اذا استطعت معرفة مكان الرجل فانها لك » . فطلب منها أمرا للقهرمانه أن تأذن فى مقابلتها . ولما رأى اضطراب الحال

أتى ببعض العيسارين واستأجرهم لاختطاف ميمونة اذا لم تأذن القهرمانة بتسليمها وجاء الى قصر المنصور

فلما دخل على القهرمانة قابلته أحسن مقابلة ، وسأله عما يريد فدفعت اليها كتاب زبيدة فتذكرت أن سعدون كان قد أوصاها بالألا تأذن لأحد في اخراجها ، فلم تر بأسا من أن يقابلها ابن الفضل فدخلت عليها وأخبرتها أن ابن الفضل يريد مقابلتها وكانت جدتها عبادة معها فقالت : « لا حاجة لنا به »

فقالت : « ولكنه جاءنى بأمر من مولاتنا زبيدة »

فلما سمعت عبادة ذلك الاسم اضطربت جوارحها وتشاءمت ، وتوسلت الى القهرمانة أن ترد عنهما هذا الشاب فلم تفعل

فأقبل ابن الفضل على الغرفة وقد أنيرت بها الشموع وجلست ميمونة بثوبها الأسود وقد تغير لونها من توالي المصائب وأصابه شحوب زاده رقة ، فدخل وهو يبتسم ابتسامة الاستعطاف وفي وجهه أمارات الحب . فحالما رآته لقشعر بدنهما وظلت جالسة مطرقة فتقدم نحوها وحياتها وقال : « ألا تعرفيننى يا ميمونة ؟ »

قالت بنفور وجفاء وهى تحول وجهها عنه : « كلا »

قال : « ألا تعرفين شابا يهواك الى حد التلف ؟ ألا تعرفين ابن الفضل ؟ » قالت : « سمعت بهذا الاسم وذكره يؤلمنى لأن أباه البسنى هذا الثوب » فقال متلطفًا : « وأنا أتكفل أن أعرضك منه ثوبا أبيض ومن أيامك السود أياما بيضاء كالثلج ! »

قالت وهى تنظر اليه شزرا : « قد تعودت السود ولم أعد أشتهى سواه » قال : « البسى ما تشائين وافعلى ما تشتهين ولكن تعطفى على فتى يحبك حبا مبرحا . انى أحبك يا ميمونة ومن سوء الطالع انك لا تحبيننى » . قال ذلك وجثا بين يديها وأراد لمس يدها فجذبتها منه كأن عقربا همت بلدغها ! فوقف وقد شق عليه جفاؤها وقال : « جئت يا ميمونة أتوسل اليك باسم الحب فاذا لم تشفقى على تذلى جثتك من سبيل آخر »

فقالت : « لا أعرف لك سبيلا الى ، دعنى وشأنى وابحث عن سواى فان النساء كثيرات »

قال : « لم يقع اختياري على سواك ، ويدلك على ذلك ثباتى فى حبك رغم ما تظهرين من النفور . ألم يأن أن تتعطفى ؟ »

فتحولت عنه وقالت : « دعنى يا رجل »

فنهض وقال مهددا : « قلت لك اذا ظلمت على هذا الجفاء عاملتك بالقسوة ولو شق على ذلك »

قالت وهي لا تنظر اليه : « لا تستطيع شيئا ونحن فى قصر أمير المؤمنين »
قال : « انى أستطيع حملك بالقوة ، فان معى فرقة من الجند وبيدى أمر
من أم الخليفة »

وكانت جدتها جالسة تسمع ما يدور بينهما فصاحت قائلة : « كنت
أحسبك شهما يؤثر فيك الكلام . أما كفاك ما سمعته ؟ » دع الفتاة وشأنها .
ولو كنت مكانك وعلمت أنها لا تحبى لتركتها وشأنها »

قال : « يشق على أن أفشل بعد الصبر الطويل فانى أريد الآن أن أعلمها
من أنا وان مثلى لا يعامل هكذا وفي بغداد مئات من بنات الأمراء والقواد
يتمنين رضاي » . والتفت الى ميمونة وقال : « ارجعى الى صوابك وثقى بأنى
أنصح لك فلا تلجئى الى القوة ، ان فرقة من العيارين فى انتظار أمرى
خارجا »

فضاقت نفسها وتململت وصاحت : « ويلاه أين الجند أين الحرس ؟ »
فنهضت جدتها وقالت لابن الفضل : « اكفنا أيها الشاب شرك ودعنا وشأننا .
إذا كنت تعرف من نحن فاشفق علينا وكفانا ما قاسيناه من البلاء »

وفيما هم فى ذلك سمعوا جلبة فى الدار فظنت ميمونة أن العيارين دخلوا
للقبض عليها فصاحت : « ويلاه يا ربى . إذا لم يكن قد انتهى حبل مصائبى
فخذ روحى » . وطفقت تبكى ولم تتمالك لاضطرابها ولهفتها أن صاحت :
« أين سلمان . أين بهزاد ؟ أواه ما أشقانى ! » . وكانت جدتها فى أثناء
ذلك واقفة الى جانبها تهون عليها والدموع تتساقط من عينيها

أما ابن الفضل فعلم أن الضوضاء ليست من العيارين فخرج ليرى سببها
نسمع الخدم يقولون : « السيدة زبيدة أتت »

فاستغرب الجميع مجيئها فى تلك الساعة وقد مضى معظم الليل
والسبب فى مجيئها أنها بعد أن خرجت من قصر الخلد فى ذلك المساء وهي
على ما وصفنا من الخوف على ابنها ، ذهبت الى قصرها مبلبلة البال ، وكان
قلبها دلها على الخطر القريب فذهبت الى الفراش ولم تنم . وبعد منتصف
الليل أيقظتها قهرمانة قصرها فنهضت مذعورة وسألت عن الخبر فقالت
القهرمانة : « ان بعض شاكزية قصر الخلد يسأل عن أمير المؤمنين »

فصاحت : « يسأل عن ابنى ؟ يسأل عنه هنا . . أين هو ؟ انى تركته فى
قصر الخلد منذ ساعتين . أين الشاكزية ؟ »

فأدخلوه اليها فقالت : « أين أمير المؤمنين ؟ »

قال : « لا نعلم يا سيدتى وقد بحثنا عنه فى كل مظانه بالقصر فلم نجده
ولا نعلم أين هو »

فنهضت والتفت بمطرفها وركبت الى قصر الخلد وفتشت عنه هنساك فلم

تجده . فخطر لها أنه وذ يكون ذهب في أمر وسيعود فمكثت على مثل الجمر حتى كاد الفجر يلوح فحدثتها نفسها أنه دخل مدينة المصور للامتناع في قصرها . فركبت الى هناك وسألت عنه القهرمانه فذكرت انها لم تره فقالت زبيدة : « رأيت بالباب بعض العيارين فمن أتى بهم الى هنا ؟ » قالت : « ابن الفضل وقد جاءني بكتاب منك ليكلم الجارية ميمونة » فلما سمعت اسمها اشند غضبها وصاحت : « أين هي ؟ »

قالت : « هي في هذه الغرفة » . ولم تصبر زبيدة لتستقدمها اليها فتوجهت الى الغرفة ودخلت فجأة وقد أخذ الغضب منها مأخذا عظيما ، فلقبها ابن الفضل بالباب فتنحى ، ودخلت فرأت ميمونة واقفة وجدتها عبادة الى جانبها فلما رأت عبادة هناك لم تتمالك أن صاحت : « وأنت هنا أيضا ؟ تبا لك من عجوز شقية . انك سبب متاعبي وأصل بلائي ما الذي جاء بك الى هذا المكان ؟ »

فاطرت عبادة وسكتت لانها لم تجد وجها للكلام ولا عذرا للمجيء . فوجهت زبيدة خطابها الى ميمونة وقالت : « والآن ألم يثن لك أن تقولى لنا عن مكان ذلك الشقى الحائن الذى تسمونه بهزاد . وقد علمت أنه فى بغداد وكل بلائنا منه . أين هو ؟ »

فقالت وصوتها يختنق من الخوف : « لا أعلم يا سيدتى فانا سجينه هنا لا يصل الى خبر ولا أعرف من حوادث الدنيا شيئا »

قالت : « أتكذبن والعلاقة بينك وبينه على يد خادم اسمه سلمان ؟ » فقالت : « أسألى القهرمانه ، انى لا أرى خادما ولا أميرا ، بالله أشفقى على يا سيدتى وكفانى ما أقاسيه » . وأغرقت فى البكاء

قالت : « أشفق عليك ؟ لماذا ؟ لو استطعت خنقك بيدي ما ترددت » . ثم التفتت الى الخارج فرأت ابن الفضل واقفا فصاحت به : « خذ هذه الجارية فقد ملكتك اياها افعل بها ما تشاء . وهذه العجوز النحس سوف أذيقها ما تستحقه »

فلما سمعت عبادة قولها جثت بين يديها وقالت : « افعل بي ما تشائى وارفقى بهذه الفتاة فانها بريئة من كل ذنب . قد تضرعت اليك فى شأنى قبل الآن فرددتنى ، والآن أتوسل اليك وأنت والدته وتعرفين حنو الأمهار أن تترفقى بهذه الفتاة . وأما أنا فلا أسف على حياتى »

فلما سمعتها تذكر حنو الوالدات أحست بشيء أو هن عزمها ، لعلمها بما يهدد ابنها من الخطر ولاسيما فى تلك الساعة فقد أضاعته ولا تعلم أحى هو أم ميت . ولكنها تجلدت لئلا يظهر الضعف عليها ، فنهضت وتظاهرت بالغضب وقالت : « قلت لك انه لا سبيل الى خلاصها الا اذا اعترفت بمكان بهزاد والا فهى ملك لابن الفضل » . وأشارت اليه أن يأخذها

بهزاد وميمونة

خرج ابن الفضل لينادى العيارين ليقبضوا على ميمونة ويجهلوا قهرا، فسمع الخدم يقولون : « أتى رئيس المنجمين » . فأراد أن يراه ويخاطبه لعله يقنعها بالحسنى فقبل له : « إنه عند السيدة زبيدة » . وكانت قد انفردت فى القاعة الكبرى وأخذت تفكر فيما أحاط بها وما يهددها وقلبها خائف على ابنها . فدخلت القهرمانة وأخبرتها بقدم رئيس المنجمين فقالت : « ادعيه الى »

وكان سلمان قد وصل الى القصر مع بهزاد منذ هنيهة والمدينة قد سقطت وأهل قصر المنصور لا يعلمون . فلما أتيا وجدا فى ساحته جماعة من العيارين فلم يبال سلمان وتقدم الى الباب فرآه موصدا وسع ضوضاء من الداخل فقرعه فلم يجبه أحد فبالغ فى القرع فأطل عليه خادم من كوة فوق الباب وقال : « من الطارق ؟ »

فرفع سلمان بصره فرأى غلاما عرفه فصاح به : « افتح حالا » فعرف الغلام انه رئيس المنجمين فأسرع وفتح الباب فدخل ببغلتة ودخل بهزاد فى أثره الى فناء القصر وترجلا وسلما الدابتين الى الغلام ، فرأيا أهل القصر فى هرج والخدم يدخلون ويخرجون من باب القصر الداخلى . فقال رئيس المنجمين للغلام : « أين القهرمانة ؟ »

قال : « هى بين يدي مولاتنا زبيدة » فلما سمع ذلك تشام من وجودها فقال : « ادع لى القهرمانة الساعة . قل لها رئيس المنجمين يطلبك لأمر مهم » فمضى وعاد وهو يقول : « ادخل فان السيدة زبيدة تطلبك » فالتفت الى بهزاد وقال له : « لا شك أنها ستسألنى عن ابنها وعن مكانه ، وربما تسألنى عنك فهل أذهب اليها وحدى ؟ » قال : « دعنى أذهب معك »

فقال سلمان للغلام : « قل للقهرمانة ان مع رئيس المنجمين رفيقا لا يدخل لا معه »

فعاد وقال : « ادخلا الى القاعة » فدخلا والغلام يمشى أمامهما الى القاعة . فدخل أولا سعدون وحى ، ثم دخل بهزاد ولم تنتبه له زبيدة لاشتغالها

عنه بهواجسها ، وكانت قد تربعت ووضعت على حجرها وسادة أسندت إليها كوعياها وألقت رأسها بين كفيها . فحالما دخل سعدون رفعت رأسها وصاحت به : « ويلك ؟ أين كنت وكيف أتيت في إبان الحاجة إليك ؟ » . ثم أشارت له بالعودة ففعد وقعد بهزاد وهي لا تراه

فقال سلمان : « كنت مجدا في البحث عن بهزاد حتى وجدته »

فأبرقت أسرتها وصاحت : « وجدته ؟ .. أين هو ؟ »

فأشار إلى بهزاد وقال : « هذا هو يا سيدتي »

فدهشت وأجفلت وصعد الدم إلى وجهها ونظرت إلى بهزاد وحدثت فرأت فيه جمالا وهيبة ووقارا ، فلم تتمالك أن صاحت فيه : « أنت بهزاد ؟ » قال : « نعم أنا هو »

قالت : « كيف تجرأت على المجيء إلينا ؟ ألم تخف بطش أمير المؤمنين ؟ » فقال بهدوء ورزانة : « لم أخفه حيا فكيف أخافه ميتا ؟ »

فدعرت واقشعر بدنهما ولطمت خديها وصاحت : « أمير المؤمنين مات ؟ ابني محمد .. ماذا تقول ؟ أتتهزا بي يا نذل ؟ »

قال : « كلا يا سيدتي اني أقول الحق . ويسوءني أن يؤلمك هذا ، ولكنك سألتني فلم أكذبك »

فالتفتت إلى سلمان وهي تحسب نفسها في منام وقالت : « سعدون ، قل الصحيح . قل أين أمير المؤمنين ؟ أظن الرجل يهذي .. أين ابني محمد ؟ ولدي حبيبي . أين هو ؟ .. قل »

فأجابها بفتور : « رأيت رأسه معلقا على حائط البستان يا سيدتي ، وقد قضى الامر » . قال ذلك ونهض فلطمت زبيدة خديها بكفيها وصاحت وولولت . وسمع بهزاد في تلك اللحظة صوت ميمونة تستغيث وتقول : « آه . أين انت يا بهزاد ؟ انجذني أنقذني »

فوثب من القاعة ويده على خنجره وهو يقول : « لبيك يا حبيبة »

فرأى جماعة من العيارين قد أمسكوا بشعرها وأخذوا يجرونها وابن الفضل واقف يقول : « خذوا هذه الخائنة »

فما كان من بهزاد الا أن استل خنجره وطعن ابن الفضل ، طعنة قضت عليه ، وتحول إلى العيارين وصاح فيهم : « أخسأوا يا أنذال جاءكم بهزاد » فلما سمعوا صوتا ورأوا ابن الفضل مجندلا فروا هاربين . ولم تكن ميمونة تعلم بوجود بهزاد هناك ولكنها لما يشست من النجاة ورأت ابن الفضل يأمر العيارين بجرحها استغاثت على غير هدى ، فلما رأت بهزاد ترامت عليه وأغمى عليها وأسرعت جدتها إليه وقالت : « من أين أتيت إلينا أيها الملاك ؟ اني أخاف عليك من هؤلاء الانذال »

فقال : « لا تخافى يا سيدتى ان بغداد فى قبضتنا ورأس الأُميين معلق على الحائط يراه الناس »

فلما سمع أهل القصر ذلك ذعروا وأخذوا يترაკضون الى زبيدة فراوها فى القاعة وقد حلت شعرها وأخذت فى النحيب وهى تقول : « وا ولداه ! قتلك البغاة الظالمون ! »

فسمعتها عبادة تقول ذلك ، فآثر قولها فى نفسها ، فدخلت اليها ولما رأتها فى تلك الحال غلب عليها الحزن ورقت لحالها فأكبت على يديها تقبلهما وتقول : « ارفقى بنفسك ياسيدتى هذه ارادة المولى » . وتذكرت مصيبتها بآبئها فشاركتها فى البكاء

وكانت زبيدة تتوقع أن تشمت عبادة بها ، فلما رأت مجاملتها وسمعت بكاءها خجلت ونظرت اليها نظر الانكسار والذل . ولا يذل مثل الموت - وقالت : « صدقت يا أم الفضل (عبادة) لا يعرف قيمة الشكل الا الذى ذاقه . . . أوام ! يا ولداه ! رحم الله جعفرًا والرشيد ورحم الله محمدا . . . مات ؟ . مات حقيقة ؟ . قتلوه ؟ . علقوا رأس ابنى ؟ . بالله ارفقوا ببذنه الغض . انه لم يتعود الشقاء . لا طاقة له بحر الشمس . كيف علقتموه انه لم يتعود غير الرفاه والنوم فى الحرير . حرام عليكم . انه شاب فى مقتبل العمر . ألم يكن الاولى أن أقتل أنا ويبقى هو حيا . انزلوه وعلقوني مكانه . صدقت يا أم الفضل اننى لم أصغ لتضرعك لانى لم أكن قد ذقت الشكل . . . » وأخذت فى البكاء والنحيب ، وطفقت تلطم وجهها وتخطر فى القاعة ذهابا وإيابا على غير هدى حتى لم يبق أحد هناك الا بكى . ثم اشتغل كل بنفسه

أما بهزاد فلم يكن همه الا ميمونة فحملها من بين الفوغاء وخفف عنها وهى تحسب نفسها فى منام . تنظر الى بهزاد ولا تصدق انها تراه وقد جاءها فى ابان الحاجة اليه فانقذها من القتل . وبينما هى تمشى بالدار متكئة على ذراعه انتبهت الى جثة ابن الفضل ملقاة على الارض ، فقالت ليهزاد : « انى آسفة لمقتل هذا الشاب ، فقد كان يريد خيرا ، ولكنه كلفنى ما لا طاقة لى به . ان قلبى لا يحب غير بهزاد ؟ »

فقالت بهزاد : « ولكننى رأيتہ ينتهرك ويهددك فلم أطق صبرا فقتلته . ما لنا وللناس قد قضى الامر ، هلمى بنا . اين سلمان . . . هيا بنا »

فجاء سلمان وأخذ بيد عبادة وأخذ بهزاد ميمونة ، وخرجوا فركبوا دوابهم وانصرفوا وتركوا أهل قصر المنصور فى ماتمهم

وانتهى بمقتل الأُميين ما كان من النزاع بين المتخاصمين ، ودخلت بغداد فى حوزة المأمون وأصبحت الخلافة له . ولكنه بقى فى خراسان وأتاب عنه فى بغداد وغيرها الحسن بن سهل أخا الفضل وكتب الى طاهر بن الحسين بذلك



فأكبت عبادة علي يدي زبيدة تقبلهما وتقول : « ارفقي بنفسك يا سيدتي »

أما بهزاد فلم يبق له عمل في بغداد ، وأصبح راغبا في الرجوع الى أمه
بمرو ليبشرها بالفتح ويخبرها بحبه ميمونة لتباركه وتزوجه بها . وفي
أصيل اليوم الذي خرج فيه من قصر المنصور ركب هو وميمونة وعبادة
وسلمان يقصدون الى خراسان ، وميمونة لا تصدق انها مع حبيبها ، ولا
ترتوي من النظر اليه . وكثيرا ما اشتاقت لمعرفة حقيقة حاله ، وما هو
نسبه ، وماذا كان يحمل في ذلك الصندوق من اسرار . وهمت بأن تسأله
أثناء الطريق ، فمنعها الحياء ووجود جدتها . على أنها عللت النفس بمعرفة
ذلك عند وصولها الى خراسان

وكانت فاطمة والددة بهزاد وسائر أهل خراسان ينتظرون خاتمة الاحداث
بفارغ الصبر ، وقد قضوا في ذلك منذ توفي الرشيد بطوس نحو خمس
سنوات ، والفضل بن سهل وزير المأمون في خراسان يشير عليه ويدير
شؤونه وسماه المأمون ذا الرياستين

فلما جاءهم البريد بمقتل الأمين وتسليم بغداد فرحوا واستبشروا ، ثم
أرسل طاهر رأس الأمين الى المأمون ومعه البردة والقضيب والخاتم ، فوصل
الرأس الى الفضل فأدخله للمأمون على ترص فلما رآه سجد . وقد تمكن
الفضل مما أراده من تمهيد الأمور لارجاع سلطة الفرس بظل الشيعة ، اذ
بايع المأمون بالخلافة بعده لعل الرضا زعيم حزب الشيعة ، وأمر الناس
بترك السواد شعار العباسيين والاستعاضة عنه بلباس الحضرة . فكان
لذلك وقع سيء لدى العباسيين في بغداد وكاتبوا المأمون يعاتبونه ويهددونه .
وكان الفضل يأخذ كتبهم ولا يطلع المأمون عليها لفرط دالته ونفوذ كلمته



وصل بهزاد الى مرو وقد نال ما يرجوه من ثمار سعيه وخطيبته معه .
أما سلمان فقد قام بما عليه ولكنه لم ينل جزاءه بعد . فلما وصل بهزاد
الى مرو واستأذن سلمان بالذهاب الى بيته مع عروسه ، قال له سلمان :
« أما انت فقد فرغت من مهمتك وأنا لا أزال أتوقع الجزاء »

فقال بهزاد : « ستكون رئيسا لجماعة الحرمية ، وقد أوصيت لك بذلك
من قبل . ألا يقنعك هذا الجزاء ؟ »

قال : « كلا . وإنما أرجو شيئا آخر هو أهم عندي من الرياسة ، فكن
ساعدي فيه كما كنت ساعدك في مثله » . قال : « وما ذاك ؟ »

قال : « ألم أكن نصيرك في الحصول على ميمونة ؟ فأنا أطلب الزواج
ببوران بنت الحسن بن سهل ، وإذا شاء عمها الفضل ، فالأمر سهل ،
وأظنني أهلا لها بعد ما أتيت من المعجزات في نصرته هذه الدعوة »

فأطرق بهزاد وأعمل فكرته في هذا الطلب ، فلم يجده بعيد المنال .
وتذكر ما دار بينه وبين الفضل في شأن بوران قبل عودته الى بغداد ،
فراى في تزويجها من سلمان فضا للمشكلة ، فقال : « غدا ننظر في ذلك
ولكننى أطلب منك أمرا هو خاتمة أفضالك على »

قال : « وما هو ؟ » . قال : « انى أحتاج الى رأس الأُميين . هل تحتال
فى اخراجه الى من مدفنه سرا كما أخرجنا رأس جعفر ورأس أبى مسلم ؟ »
فأدرك سلمان غرضه ، فقال : « ذلك شئ بسير فانتظرنى الى الغد
فأتيك بالرأس الى منزلك » . وافترقا

وسار بهزاد توا الى بيت أمه فاطمة ومعه عبادة وميمونة وهو يحاف ان
يكون قد دهمها الموت أثناء غيابه فقرع الباب وهو مصبح سمعه ، فلم
يجبه أحد ، فخفق قلبه ، فقرع ثانية فسمع وقع أقدام فى الداخل . ثم
فتح الباب وأطل الخادم الذى فتحه له فى المرة الماضية وأنس فى وجهه تغيرا
وانقباضا ، فابتدره قائلا : « كف الوالدة ؟ »

فرحب به وقال : « فى خير . ولكنها تشكو ضعفا من شدة شوقها
إليك »

فأوصى الخادم بأن يدخل الضيفتين الى غرفة ترتاحان فيها ، وأسرع
ودخل على والدته فوجدها ملقاة على سريرها وقد غارت عيناها وبرزت
وجنتاها وبان فيها الهرم المتناهى ، فوقف بارائها وحياها بصوت ضعيف
وهو يخشى أن تكون قد ماتت

فلما سمعت صوته أفاقته وفتحت عينيها وأدارت رأسها ببطء لشدة
الضعف وتبسمت تبسما لا رونق فيه . فجثا بجانب سريرها وأكب على
يدها وقبلها ، فأشارت اليه أن يدنو منها . فقبلت جبينه ونظرت اليه
نظرة مستفهم . فقال : « قد جئتك يا سيدنى بما تريدن ، فغلبا القوم
الظالمين ، وقتلنا خليفتهم الغلام الغر ، وأصبح ابن أحنأ المأمون خليفة
المسلمين ، وغدا يكون الخليفة على الرضا صاحب النسبة ، ثم تعود الدولة
إلينا . فما أنذا انتقمتم لجدى بخنجره كما أمرت » . ومد يده فأخرج الخنجر
وأراها أثر الدم على نصاله ، وقال : « وانتقمتم لجعفر بن يحيى »

فبان السرور فى وجهها وتنهدت تنهد مرتاح ، وقالت بصوت منقطع
« بورك فيك يا بنى . لقد بزعت العار عن قومك ، وجبرت قلب أمك »
ثم تنهدت وتململت وهى تتجلد وتغالب الضعف ، وقالت : « أين الرأس
الثالث ؟ »

قال : « يكون هنا فى صباح الغد وتدفن الرؤوس الثلاثة معا »
فرفعت يدها نحو السماء كأنها تدعو له ثم لمست وجهه لتباركه فأحس
ببردها وجفافها ، كان أصابعها من حديد بارد ، وأومات اليه فأنحنى عليها

فقبلته ثانية وهمست في أذنه بصوت لا يكاد يبين : « ادفنه معي غدا »
فنظر الى وجهها الشاحب الضئيل ، فرأى في عينيها دمعين تحاولان
الانحدار ، ولا تجدان مخرجا من المقلتين لشدة غورها وهي مستلقية فتتحقق
قرب أجلها ، فابتدورها قائلا : « لقد باركتني يا أمه فأتوسل اليك أن
تباركني فتاة ستكون شريكة حياتي كما كانت شريكتي في المصائب »
والتفت فأشار الى الخادم أن ينادي ميمونة وعبادة

وكانت ميمونة قد سمعت بهزاد يسأل الخادم عن أمه ساءة وصولهم
فعلمت أنها في المنزل وأصبحت مشوقة الى معرفة نسبه ، فلبثت
لمشاهدة أمه ذعرت لما رآته فيها من الضعف والشيخوخة ، وبان ذلك عليها
وأدرك بهزاد ذعرها ، فابتدورها قائلا : « طالما أحسست أن تعرفني بسببي ،
فاعلمي الآن أن هذه الراقدة أُمي ، وهي بنت أبي مسلم صاحب الدعوة ،
مؤسس الدولة العباسية الذي قتل غدرا ، كصبا قتل أبوك ، وليس في
خراسان من يعلم أنني حفيد ذلك البطل الا سلمان الخادم وأُمي ، والناس
يحسبونني ربيبها لأنني ولدت بعد وفاة أبي ، وادعت هي أنني ربيبها
وأوقفتني على الانتقام لأبيها وسمتني كيقر . وقد آن لي أن أخبرك أيضا
عما في ذلك الصندوق ، فاعلمي أن فيه رأس جدي ورأس أبيك »

فلما سمعت ميمونة ذلك أجفلت وتغير لونها ، فشغلها عن دهشتها
باتمام حديثه فقال : « وقد حفظتهما في الصندوق حتى أتيت برأس
الأمين وهو ثالثهما ، وسيؤتي به إلينا غدا ويدفن الثلاثة معا فأكون قد
وفيت نذر والدتي وزدت على ذلك أنني أتيتها بابتنة جعفر حبيبنا »

وكانت فاطمة في أثناء ذلك مستغرقة في النوم لشدة ضعفها ، فلما
فرغ بهزاد من حديثه أمسك ميمونة بيدها وأدناها من سريرها وهو
يقول : « هذه ميمونة بنت جعفر بن يحيى قتيل الرشيد ، قد أسعدني
الحظ بلقيها ، وأحببها وأحببني ، وقاست العذاب معي ، وقد فرجنا معا ،
وهي ستكون زوجتي فباركها »

فرفعت يدها وأشارت إليها أن تدنو منها ، فدنت فقبلتها وممسكت
وجهها بكفها وتمتمت وأشارت الى ثوبها الاسود وشسفت ذلك بإشارة
النهي ، ففهمت أنها تأمرها بنزع الحداد فأشارت مطيعة . ثم استقدم
عبادة وكانت بجانبه ، وقال لها : « وهذه أم الفضل والدة جعفر »

فحدقت فيها مع شخص بصرها وجوده وتكلفت الابتسام ، كأنها
تقول : « عرفتاه » فقالت عبادة : « نعم أنني أعرفك منذ صبا » وانعدمت
عليها وقبلتها فلمستها فاطمة بنفسها وقد أخذت منها الضمعة ، فأخذا عظيميها
وأحسست بضيق صدرها وسرعة تنفسها ، فعلم الفوم أنها في حالة النزاع
ولكنها ما رأت مبعثمة ابتسام الفوز حتى فاضت روحها وهم ينظرون

الخائن لا صديق له

وبعد أيام عقد لبهزاد على ميمونة ، ثم بعث الى سلمان فولاه رياسة الخرمية فذكره سلمان بوعدة بالتوسط لدى الفضل فأشار مطيعا . وفي اليوم التالي ركبا الى بيت الفضل بن سهل . وكان الفضل قد بلغ أوج سعده بما أوتيته من التوفيق باستقلال المأمون بالخلافة ، وبالصيغة بها بعده لعل الرضا ، فأصبح الفضل الأمر الناهي تجرى ارادته حتى على المأمون . فلما أنبأ الحاجب أن بهزاد وسلمان بالباب أمر بادخالهما وكان مجلسه غاصا بأصحاب الحاجات وفيهم الوجهاء والقواد الا أخوه الحسن لأنه سار الى بغداد . فلما دخل بهزاد رحب به الفضل ودعاه للجلوس الى جانبه على السرير وأشار الى سلمان فجلس على كرسي بين الخاصة فأخذ الفضل يسأل بهزاد عن سفره وما شاهده فأخبره انه قادم من بغداد بعد أن شهد سقوطها فقال له : « وهل كنت فيها يوم مقتل الأمين ؟ »

قال : « نعم كنت مع صديقي سلمان وشاهدنا راس الأمين منصوبا على حائط البستان » . فضحك ضحكة الظافر وقال : « على الباغي تدور الدوائر » ثم شغل بقضاء مصالح الناس وسكت بهزاد ريثما ينفض المجلس ولم يتم ذلك الا بعد أذان الظهر فأنصرف الناس ولم يبق غير بهزاد وسلمان والفضل

فنظر بهزاد الى الفضل وقال : « يسرنى أن أروى لك ما آتاه صديقي سلمان من المعجزات في أثناء هذه الوقائع فانه كان من أكبر العاملين في تنفيذ رغبات ذي الرياستين بعقله وسيفه » . فابتسم الفضل وقال : « سنكافئه بولاية عمل من الأعمال المهمة . أم تراه مثلك لا يرغب في المناصب ؟ »

فضحك بهزاد وقال : « اذا قلدته عملا فقد أسبغت عليه نعمك ولكنني أحب أن ينال حظوة أخرى في عينيك يتشرف بها بين الأقران »

فقال : « وما ذلك ؟ » . قال : « أن تزوجه بابنة أخيك »

فوجم الفضل ثم قال : « وأي بنات أخى تعنى ؟ » قال : « بوران »

فتراجع وتغير وجهه وهز رأسه وقال : « أيتطلب هو ذلك ؟ »

قال : « بل أنا أطلبه له اذا شئت فانه من خير الرجال »

قال : « يعز علي رد طلبك يا بهزاد فان بوران مخطوبة »
فطن بهزاد لأول وهلة أنه يعنى خطبتها له فأراد الاستفهام فسبقه
سلمان الى الكلام وقال : « لمن ؟ »

فنظر الفضل اليه وقد امتعض من اعتراضه وقال : « مخطوبة لأعظم رجل
فى الاسلام اليوم » . فأدرك سلمان أنه يعنى المأمون وتحقق ذهاب العروس
من يده فانقبضت نفسه وهاج غضبه وقال : « يلوح لى أن ذا الرياستين نسي
وعده »

قال : « أى وعد ؟ » . قال : « ألم نتواعد على شىء ؟ »

قال وفى صوته جفاء وانتهاز : « متى تواعدنا ؟ »

قال : « هل أقول ذلك الآن ؟ » . قال : « قل ما تشاء »

قال : « تواعدنا عليه لما كفرت بالمجوسية واعتنقت الاسلام رغبة فى
المناصب وتواطأنا على السعى فى هذا السبيل ، وأنت يومئذ لا تملك شيئاً ،
وكانت بوران طفلة . أما الآن فقد تغيرت الأحوال وأصبحت ذا الرياستين
وصاحب الأمر والنهى ، فاذكر ما تعاقدنا عليه وأنى قمت بما على ، فهلا
قمت بما عليك ؟ » . فظهر الغضب فى وجه الفضل لما يتخلل كلام سلمان
من التعريض والتلميح وقال : « لا أذكر شيئاً من ذلك . ولكن ما رأيك هل
نرد خطيبها خائباً ونزفها اليك ؟ وعلى كل حال فالأمر لوالدها وهو غائب »
فوقع قوله فى قلب سلمان وقوع السهم وامتقع لونه ورقص شارباه فى
وجهه وتحفز للنهوض فرأى بهزاد تغيره فوقع فى حيرة وأراد أن يستأنف
الكلام فرأى الفضل يتناول مذبته ويتزحزح فى مجلسه ، فعلم أنه يفض
المجلس فوقف بهزاد وسلمان وانصرفا بعد أن حياهما الفضل تحية فاترة .

فلما خرجا أراد بهزاد أن يخفف من غضب سلمان فلم يدعه هذا يقول شيئاً
وهم بوداعه فقال بهزاد : « لا تغضب يا أخى لعل للرجل عذراً مقبولاً » .
فأجابه وفى صوته خشونة الغضب : « لا عذر له ولكنه دنىء الأصل لا يعرف
قدر الرجال وسأريه عاقبة أمره » . ومشى مهرولاً . وظل بهزاد واقفاً حتى
توارى سلمان عنه وهو يحسب لهذا التهديد ألف حساب . لعلمه ان صاحبه
ذو كيد ومكر لا يثنيه عن الأذى ضمير أو عهد ولا يرعى ذمة أو جواراً

أما سلمان فسار توا الى قصر المأمون واستأذن فى مقابلته فأذن له ، فلما
اختلوا قال سلمان : « انى من موالى أمير المؤمنين ويفرحنى ان ما بذلناه فى
سبيل نصرته لم يذهب عبنا فمن الله علينا ببقائه وبالحلافة وهو خليف بها »
فتوقع المأمون من وراء ذلك خبراً جديداً ولم يكن غافلاً فاعتنم هذه الفرصة
وقال : « انى شاكر لأخوالى الحراسانيين فانهم أصحاب الفضل »

فتظاهر سلمان بالتردد كمن يقدم رجلاً ويؤخر أخرى فقال له المأمون :
« قل ما بدا لك ولا تخف »

قال : « أنا أعلم أنى أستهدف للموت بما سأقوله ولكننى أقوله رغبة فى حفظ حياة أمير المؤمنين ودوام دولته وأرجو أن يبقى قولى سرا عن كل انسان » . فاهتم المأمون وقال : « أتوصينى بحفظ السر وقد قامت دولتنا به ؟ قل سريعا . لا تخف »

قال : « ان وزيرك الفضل بن سهل يوهمك انه رد السلطة اليك وهو يدبرها لنفسه » . فخاف المأمون أن يكون الرجل مدسوسا من الفضل عليه فقال : « ان مثل الفضل أهل للتمتع بنفوذ الكلمة بعد الذى بذله فى سبيلى » قال : « أرى مولاي يحاذر أن يظهر ما يجول فى خاطره ورأيه الأعلى ، ولكننى أقول ان الفضل انما أراد السلطة لنفسه ليس لنفوذ كلمته فحسب ، ولكنه يسعى فى نقل الخلافة من العباسيين الى العلويين لترجع الى الفرس ولذلك اشترط البيعة لعل الرضا بعد أمير المؤمنين »

فانتبه المأمون لمساعى الفضل فى هذا الشأن ، ولم يكن غافلا عنها من قبل ولعله اضطر اليها رغبة فى التغلب على أخيه فقال : « ولكننى بايعت لعل الرضا مختارا ، لأننى لم أجد فى بنى العباس من هو أهل للخلافة »

قال : « وهل تضمن أن يكون بنو على أهلا لها . . وهب انك فعلت ذلك مختارا فهل تضمن أن يصبر الفضل على نقلها حتى يستوفى أمير المؤمنين حظه منها ؟ أعذر صراحتى يا أمير المؤمنين ، وأنا واثق من بقاء هذا سرا ، ولا أطلب الا الحذر من هذا الرجل على حياتك ثم على دولتك »

فاطرق المأمون وقد جالت فى خاطره خواطر كثيرة وحدثته نفسه بأمور سكت عنها واكتفى بقوله : « وما الحيلة ؟ »

فاستبشر سلمان بهذا السؤال وقال : « اذا عهد أمير المؤمنين فى ذلك الى فانى أنقذه بجرعة عسل أو شربة ماء »

فأعظم المأمون جسارة هذا الرجل وقال فى نفسه : « ان وجود مثل هذا الغادر خطر على أعدائه وأصدقائه . لأنه بعد أن بذل نفسه فى خدمة الفضل أصبح يسعى فى قتله فلا بد لذلك من سبب حمله على التغير ، ولا يبعد أن يحدث ما يغيره على سواء » . لكنه رأى فيه عونا على التخلص من الفضل فسكت هنيهة ثم قال : « سننظر فى ذلك » . واكتفى سلمان بهذا الجواب لعلمه أنه لا يجيبه على اقتراحه جوابا سريعا لأسباب يعرفها مثله .

وتحرك المأمون فخرج سلمان ولبث المأمون بهما . فخرج يفكر فيما سمعه وهو يخاف أن يكون قد جاء بهاموسا من قبل الفضل . . فعزم على استطلاع رأى الفضل .

وفى ذلك المساء جاء الفضل الى المأمون على عادته وقد أنبأه جواسيسه بدخول سلمان على المأمون فى ذلك اليوم فأنه جاء ليوسطه فى شأن بوران

ولم يخطر بباله أنه يجيء للوشاية به في أصل مشروعه لما في ذلك من الإيقاع بالفرس كافة . وتعهد المأمون الحلوة بالفضل وتبادلا الأحاديث المتنوعة حتى ذكر سلمان فقال المأمون : « قد بلغني عن هذا الرجل أعمال أتاهها في بغداد يمدح عليها »

فقال الفضل : « نعم يا سيدي قد أعان حزينا بمساع أساسها المكر والخيانة وقد أفادتنا ولكنه كبير المطامع » . قال : « لا بأس من تقليده منصبا »

فابتسم الفضل وقال : « عرضت عليه ذلك فرأيته طامعا فيما يقصر أمثاله عن نيله . ولو علم أمير المؤمنين بمطمعه لاستغربه » . قال : « وما هو ؟ » قال : « انه طامع في بوران ابنة أخي ، ولما قلت له انها مخطوبة غضب كأنه أولى بها من أمير المؤمنين » . وكان المأمون قد خطب بوران من أبيها سرا فأدرك المأمون سر الخلاف وعلم أن الرجل لم يبح بسر الجماعة الا انتقاما ولم يفت المأمون اطلاع الفضل على مجيء سلمان ، فأحب أن يذهب خوفه من تلك الزيارة فhez رأسه احتقارا لسلمان وسكت ، وترك المسألة وأظهر الاستغراب لما سمعه وغير الحديث ، فانصرف الفضل وهو مقتنع بأنه أوغر قلب المأمون على سلمان



ولبت المأمون بعد ذلك يراقب ما يبدو من الفضل ليتحقق ما بلغه حتى جاء على الرضا ذات يوم لزيارته وهو ولي عهده على الخلافة فرحب به وجرى الحديث بينهما فقال على : « انما جئتك لأثبتك بما يخفيه وزيرك الفضل عليك »

قال : « وما ذاك ؟ » . قال : « ان أهلك في بغداد لما علموا أنك بايعتني بعدك نقموا عليك أشياء وقالوا عنك أنك مسحور مجنون وبايعوا ابراهيم ابن عمك المهدي مكانك وخلعوا بيعتك لاعتقادهم أنها ستؤول بعدك لي » فاستغرب المأمون ذلك لأنه لم يكن بلغه فقال : « لم يبلغني شيء من ذلك » قال : « لأن وزيرك الفصل يتناول أخبار البريد ويخفيها عليك رغبة في منافعه » . فشكر المأمون لعل حرية ضميره وقال : « اذكر ان الفضل قال لي ان أهل بغداد أقاموا ابراهيم بن المهدي أميرا عليهم لا خليفة »

قال : « ان الفضل قد كذبك . والخلاف قائم الآن بين الحسن بن سهل وبين ابراهيم ، والناس ينقمون عليك مكانه ومكان أخيه الفضل ، ومكاني ومكان بيعتك لي من بعدك » . فقال المأمون : « ومن يعلم هذا ؟ » فسمى له رجلا اطلعوا على ذلك فاستقدمهم المأمون ، وسألهم بعد أن

أعطاهم الأمان من الفضل وكتب لهم خطه به ، فأخبروه بالبيعة لأبراهيم
ابن المهدي، وإن أهل بغداد قد سموه الخليفة السني ، وأنهم يتهمون المأمون
بالرفض لمكان علي منه . فلما سمع المأمون ذلك أثنى على علي وصرفه ، ولما
خلا بنفسه أخذ يفكر في أمره فصمم على قتل الفضل ولكنه خاف من بقاء
علي الرضا وليا للعهد وأنه إذا لم يقتل ظل موقفه حرجا

وبلغ سلمان ما كان من علي وما قصه علي المأمون فعلم أن التمرة قد نضجت
فدخل علي المأمون في خلوة فلمح له المأمون تلميحا فهم مراده منه وانصرف
يعد المكائد ويغتتم الفرص

وسافر المأمون إلى بغداد سنة ٢٠٢ هـ فلما وصل إلى سرخس وثب قوم
علي الفضل في الحمام فقتلوه ، وكان ذلك بمساعي سلمان ، فحاكم المأمون
الذين وثبوا عليه وقتلهم . وبعد أن وصل المأمون إلى بغداد بقليل شاع مقتل
علي الرضا بأكلة عنب مسموم ، وتحدث الناس أن المأمون دس له ذلك
العنب . وإنما دسه سلمان

فنجأ المأمون بذلك وظلت الخلافة في أهله ، ولكنه ظل خائفا من سلمان
فدس إليه من قتله خوفا من انقلابه عليه فمات جزاء غدره فصيح فيه قول
بهزاد : « ان الغادر تعود عليه عاقبة غدره »

أما بهزاد فلم يعد يرى سلمان منذ افترقا يوم خروجهما من عند الفضل ،
ثم بلغه مقتل الفضل بن سهل وعلي الرضا فأسف لضياع مساعيه في نقل
السلطة إلى الفرس ، ولكنه تعزى بما وفق إليه من الانتقام لجده وحبيه ،
وعاش مع عروسه في راحة والناس لا يعرفون أنه حفيد أبي مسلم وإنها
ابنة جعفر البرمكي . ثم بحث عن سلمان فعلم أن المأمون قتله خوفا من غدره
فقال في نفسه : « ذلك جزاء الحيانة وعاقبة الغدر »

أما المأمون فبعد أن جاء بغداد تزوج ببوران بنت الحسن بن سهل ترضية
بئبها عما لحق بأخيه فان سبب قتله لم يخف عليه . ولزفاف بوران احتفال
عقوا في بطون التاريخ



روايت تاريخ الإسلام صدر منها

الانفلات العثماني	فتاة القيروان
العباسية أخت الرشيد	الأميين والمؤمنون
استيلاء المماليك	غداة كربلاء
أبو مسلم الخراساني	الملك الشارو
شجرة الدر	عروس فرغانة
شارل وعبد الرحمن	عبد الرحمن الناصر
أحمد بن طولون	عنداء قریش
فتاة غسان	فتح الأندلس
أسير المماليك	أرمانوت المصرية
الحجاج بن يوسف	جناد المحبين
١٧ رمضان	صلاح الدين الأيوبي